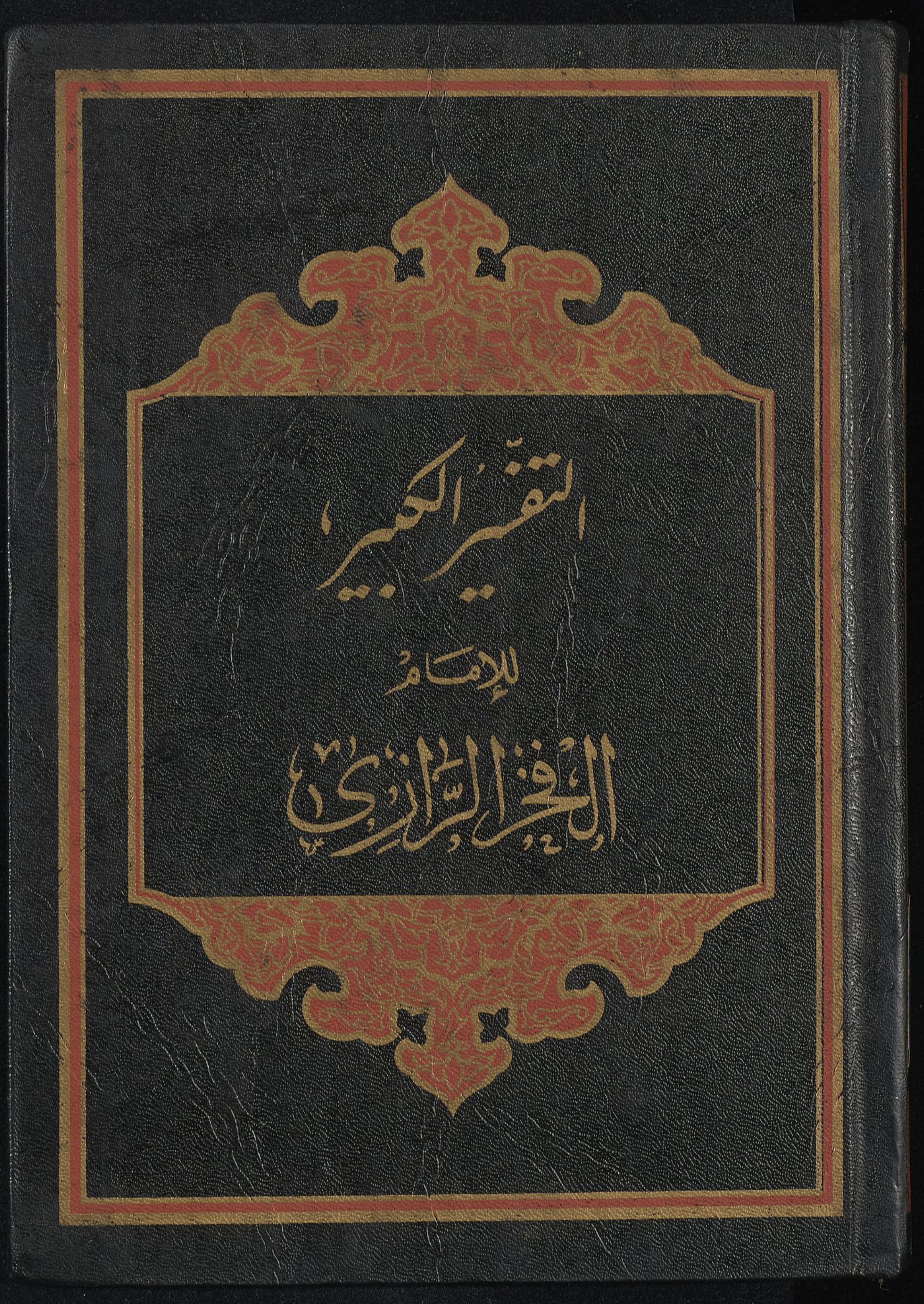
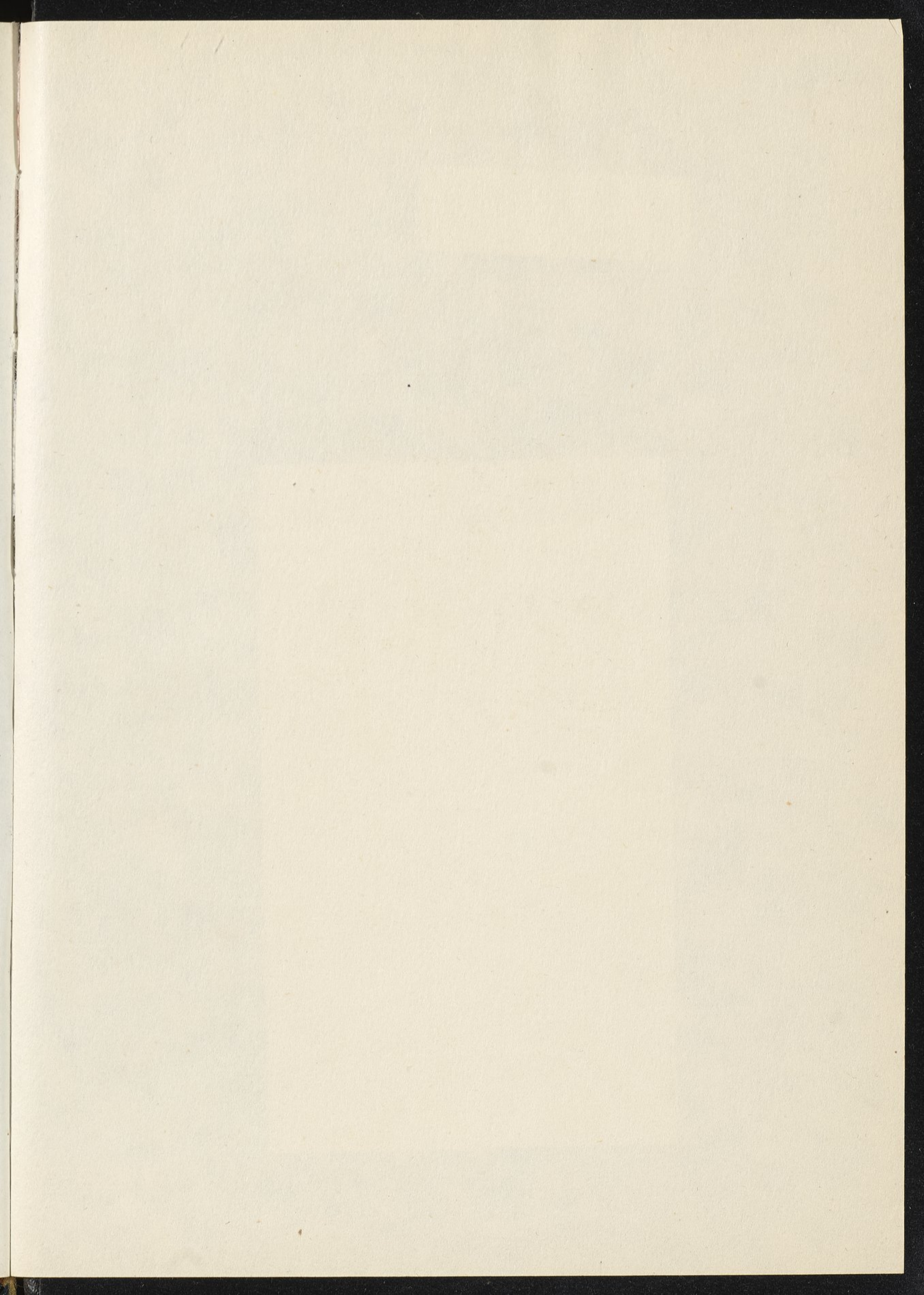

التفسير الكبير
للإمام
الفخر الرازي
١


CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.

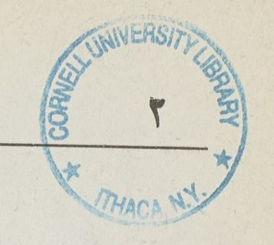


التفسير الكبير

للإمام

الفخر الرازي

الجزء الخامس والعشرون



بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «٥٦» وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٥٧»

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أولم نمـكن لهم حرماً أمناً يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولـكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

اعلم أن فى قوله تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء) مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذه الآية لا دلالة فى ظاهرها على كفر أبى طالب ثم قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت فى أبى طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يامعشر بنى عبد مناف أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال عليه السلام « ياعم تأمرهم بالنصح لأنفسهم وتدعها لنفسك ! قال فما تريد ياابن أخى ؟ قال أريد منك كلمة واحدة ، فانك فى آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله تعالى ، قال ياأخى قد علمت أنك صادق ولـكنى أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولـكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف » .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى قال فى هذه الآية (إنك لا تهدى من أحببت) وقال فى آية أخرى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ولا تنافى بينهما فان الذى أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق ، وشرح الصدر وهو نور يقذف فى القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً) الآية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية فى مسألة الهدى والضلال ، فقالوا قوله (إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء) يقتضى أن تكون الهداية فى الموضعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية فى قوله (إنك لا تهدى) شيئاً وفى قوله (ولـكن الله يهدى من يشاء) شيئاً آخر لاختل النظم ، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف

طريق الجنة أو خلق المعرفة فى القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة فى القلوب لا على سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عمومها ، وكذا القول فى الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة ، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى أيضاً غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقاً على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير ، لا يجوز أن يقول إنى أعطى عشرة دنانير إن شئت ، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه فى المشيئة ، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل ، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضى عذراً عن ذلك .

أما قوله (وهو أعلم بالمهتدين) فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدى بعد ومن لا يهتدى . ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة ، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفى ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى ، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهى قولهم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) قال المبرد : الخطف ، الانتزاع بسرعة ، روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ: إنا لنعلم أن الذى تقوله حق، ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا ، أى يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا . فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الأول) قوله (أو لم نمكن لهم حرماً آمنا) أى أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه ، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه ، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة ، وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم ، أو لقوله تعالى (ومن دخله كان آمناً) أما قوله (يجبى إليه ثمرات كل شىء) فهو تعالى لما بين كون ذلك الموضع خالياً عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ، ومعنى (يجبى) يجمع من قولهم : جبيت الماء فى الحوض إذا جمعته ، قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء ، وأهل الكوفة ، وأبو عمرو بالياء ، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقى ، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ، ومعنى الكلية الكثرة كقوله (وأوتيت من كل شىء) وحاصل (الجواب) أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان ، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى ، قال القاضى : ولو أن الرسول قال لهم إن الذى ذكرتم من التخطف لو كان حقاً لم يكن عذراً لكم فى أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا ، أو قال لهم إن تخطفهم لكم بالقتل وغيره ، وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ «٥٨» وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ «٥٩»

نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضاً ، ولو قال لهم ماقدر مضرة التخطف فى جنب العقاب الدائم الذى أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا ، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم فى أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ، أن ذلك لايجرى إن آمنوا ، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا ، فلذلك قدمه الله تعالى ، والآية دالة على صحة الحجاج الذى يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين ، بقى ههنا بحثان :

﴿ الأول ﴾ قال صاحب الكشاف فى انتصاب رزقاً إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شىء ، ويرزق ثمرات كل شىء واحد ، وأن يكون مفعولا له ، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

﴿ الثانى ﴾ احتج الأصحاب بقوله (رزقاً من لدنا) فى أن فعل العبد خلق الله تعالى ، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم ، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقاً لله تعالى لما صحت تلك الإضافة ، فان قيل سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذى ألقى تلك الدواعى فى قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم ، قلنا تلك الدواعى إن اقتضت الرجحان ، فقد بينا فى غير موضع أنه متى حصل الرجحان ، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية . واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ماوصلت إليهم إلا من الله تعالى ، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لايخافون أحداً سوى الله تعالى ولا يرجون أحداً غير الله تعالى ، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق ، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ، وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٦٠» أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ

اعلم أن هذا هو (الجواب الثانى) عن تلك الشبهة ، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ماخصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا فى نعم الدنيا ، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم ، والمقصود أن الكفار لما قالوا إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان ، قال صاحب الكشاف : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه ، وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله (واختار موسى قومه) أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما تضمين بطرت معنى كفرت .

فأما قوله (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) ففى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة (وثانيها) يحتمل أن شؤم معاصى المهلكين بقى أثره فى ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها ، وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه الباقى بعد فناء خلقه ، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها، فكأن سائلا أورد السؤال من وجهين (الأول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد ﷺ مع أنهم كانوا مستغرقين فى الكفر والعناد ؟ (الثانى) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد ﷺ مع تمادى القوم فى الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد ﷺ ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم ، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ، ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) أى فى القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها رسولا لإلزام الحجة وقطع المعذرة (الثانى) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الأرض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، ومعنى (يتلو عليهم آياتنا) يؤدى ويبلغ ، وأجاب عن السؤال الثانى بقوله (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً .

قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا

الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ «٦١»

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ «٦٢» قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

تعقلون ، أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ .

اعلم أن هذا هو (الجواب الثالث) عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ماعند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلوجهين (أحدهما) أن المنافع هناك أعظم (وثانيهما) أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهى بغير المتناهى كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لانسبة لها إلى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال (أفلا تعقلون) يعنى أن من لايرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل ، ورحم الله الشافعى حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة . فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهى إلى الانقطاع والفناء وماكانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله (أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه) فهو يكون كمن أعطاه الله قدراً قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لولم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ،وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى (لكنت من المحضرين ، فانهم لمحضرون) وفى لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لايليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره .

قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ «٦٣» وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ «٦٤» وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ «٦٥» فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ «٦٦»

شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانو يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ماكانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون أنه يشفع ؟ أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذى نزل بكم . ثم بين تعالى مايقوله من حق عليه القول ، والمراد من القول هو قوله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه ، واختلفوا فى أن الذين حق عليهم هذا القول من هم ؟ فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال ، وقال بعضهم الشياطين قوله (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال ، وهذا معنى ماحكاه الله عن الشيطان أنه قال (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) وقال تعالى لإبليس (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فقوله (إلا من اتبعك) يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لامن قبل إلجاء الشيطان إلى ذلك ، ثم قال تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ماكانوا إيانا يعبدون . إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأيضاً فلا يمتنع فى قوله تعالى (أين شركائى) أن يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى ، وإذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا إلهنا هؤلاء ماعبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة

(وثانيها) قوله تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة فى دعائهم لهم ، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم ، وكل ذلك على وجه التوبيخ ، وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا ، فأما قوله تعالى (لو أنهم كانوا يهتدون) فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماأبصروه فى الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى (لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله (ادعوا شركاءكم) فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شىء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً فقال تعالى (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) شيئاً أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئاً لاجرم ما رأوا العذاب (وثانيها) أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الأصنام أنهم لايجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلاجرم ما رأت العذاب فان قيل قوله (ورأوا العذاب) ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام ؟ قلنا هذا كقوله (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقية هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الأمر الثالث) من الأمور التى يسأل الله الكفار عنها قوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ، فعميت عليهم الأنباء) أى فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس فى المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وقرىء فعميت وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فما ظنك بهؤلاء الضلال ، قال القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عميت عليهم الأنباء ولقالوا إنما أتينا فى تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك ، فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول إنما أغويت بخلقك فى الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ «٦٧» وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «٦٨» وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ «٦٩» وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٧٠»

فتكون الحجة لهم فى ذلك قوية والعذر ظاهراً (والجواب) أن القاضى لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها ، وكما أن وجه استدلاله فى الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان إذا أمر بادخال الإيمان فى الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين ، والذى اعتمد القاضى عليه فى دفع هذا الحرف فى كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن . بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت ، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً فثبت أن الإشكال مشترك والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين، وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيباً فى التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين) وفى عسى وجوه : (أحدها) أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين (وثانيها) أن يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع فى الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا ، واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفى ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (وربك يخلق ما يشاء ويختار) والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة ، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصواباً فليس لأحد أن يعترض عليه وقوله (ماكان لهم الخيرة) والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر

والخيرة أيضاً اسم للمختار يقال محمد خيرة الله فى خلقه إذا عرفت هذا فنقول فى الآية وجهان : (الأول) وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله (ويختار) ويكون ما نفياً ، والمعنى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثانى) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله (وربك يخلق ما يشاء) ثم يقول (ويختار) ماكان لهم الخيرة ، قال أبو القاسم الإنصارى وهذا متعلق المعتزله فى ايجاب الصلاح والأصلح عليه ، وأى صلاح فى تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله ، فان قيل لما كلفه استوجب على الله ماهو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعاً إنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه فى العقاب الأبدى لا يكون رعاية للمصلحة ، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل فى حق من يستنكف من تفضله ، أما الذى ما حصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ، ثم قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والإذلال مفوض اليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره فى النبوة ، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال (وهو الله لا إلا هو) وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، منزهاً عن النقصائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، ويحتمل أيضاً أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله (يوم يناديهم) فيقول (أين شركائى) ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به .

أما قوله (له الحمد فى الأولى والآخرة) فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا وإحساناً فله الحمد فى الأولى والآخرة ، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم ، قال القاضى إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضاً بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم ، لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر ، وهذا فيه نظر . لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الإشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة ؟ كلا ، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ «٧١» قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ «٧٢» وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «٧٣»

أما قوله (وله الحكم) فهو إما فى الدنيا أو فى الآخرة فأما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه ، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول ، فهو الحاكم فى الحقيقة ، وأما فى الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة ، فينتصف المظلومين من الظالمين .

أما قوله (وإليه ترجعون) فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون ، فان كلمة إلى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه من المكان والجهة .

قوله تعالى ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة) فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه ، فأما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجه بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين تعالى أنه لاقادر على ذلك إلا الله تعالى ، وإنما قال (أفلا تسمعون)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ «٧٤» وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٧٥»

(أفلا تبصرون) لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله (أفلا تسمعون) معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله (أفلا تبصرون) معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ، قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد ، فإن قيل هلا قال : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بليل تسكنون فيه ؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون ، لأن السمع يدرك مالا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معاً .

واعلم أنه وإن كان السكون فى النهار ممكناً وابتغاء فضل الله بالليل ممكناً إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به .

قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين ، أولا : ثم ذكر التوحيد ودلائله ، ثانياً : عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال (ويوم يناديهم) أى القيامة فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) والمعنى أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصكم ، أو أين قولكم تقربنا إلى الله زلفى وقد علموا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائداً فى غمهم إذا خوطبوا بهذا القول .

أما قوله (ونزعنا من كل أمة شهيداً) فالمراد ميزنا واحداً ليشهد عليهم ، ثم قال بعضهم هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائداً فى غمهم ، وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الأنبياء وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التي لم يوجد فيها النبي وهى أزمنة الفترات والأزمنة التى حصلت بعد

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «٧٦» وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَيكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «٧٧» قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٧٨»

محمد ﷺ فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله (وضل عنهم) غاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ما كانوا يفترون) من الباطل والكذب .

قوله تعالى ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ، قال الكلبى : إنه كان ابن عم موسى عليه السلام ، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ، وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن إسحق إنه كان عم موسى عليه السلام ، لأن موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث . وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته ، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، إلا أنه نافق كما نافق السامرى .

أما قوله (فبغى عليهم) ففيه وجوه (أحدها) أنه بغى بسبب ماله ، وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثانى) أنه من الظلم ، قيل ملكه فرعون على

بنى إسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال : بغى عليهم ، أى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك : طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب : بغيه عليهم أنه زاد عليهم فى الثياب شبراً ، وهذا يعود إلى التكبر (السابع) قال الكلبى : بغيه عليهم أنه حسد هرون على الحبورة ، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون ، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح ، وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون من ذلك فى نفسه ، فقال ياموسى لك الرسالة ، ولهرون الحبورة ، ولست فى شىء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى عليه السلام : والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له ، فقال والله لا أصدقك أبداً حتى تأتينى بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون ، قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بنى إسرائيل أن يجىء كل رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام فى قبة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى ياقارون أما ترى ما صنع الله لهرون ! فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى إسرائيل ، فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه ، وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ أنه قال « كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى » .

أما قوله (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) ففيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال الكعبى : ألستم تقولون إن الله لا يعطى الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله (وآتيناه) ؟ وأجاب بأنه لا حجة فى أنه كان حراماً ، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك ، وكان هذا الظفر طريق التملك ، أو وصل إليه بالإرث من جهات ، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا .

﴿ البحث الثانى ﴾ المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو مايفتح به ، وقيل هى الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ، ويقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى إخوة يوسف عليه السلام (ونحن عصبة) وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول : ههنا قولان (أحدهما) أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب ، قالوا كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع ، وكان لكل خزانة مفتاح ، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ، ومن الناس من طعن فى هذا القول

من وجهين (الأول) أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ، فأى حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح (الثانى) أن الكنوز هى الأموال المدخرة فى الأرض ، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح (والجواب) عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض ، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ فى الكثرة إلى هذا الحد ، وأيضاً فهذا الذى يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ، ليس مذكوراً فى القرآن فلا تقبل هذه الرواية ، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة ، وكان كل واحد منها معيناً لشىء آخر ، فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها ، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد ، وعن الثانى أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع فى المواضع التى عليها أغلاق (القول الثانى) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد . قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء ، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبى مسلم : أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله (وعنده مفاتح الغيب) والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبة أولى القوة والهداية ، أى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها . ثم إنه تعالى بين أنه كان فى قومه من وعظه بأمور (أحدها) قوله (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلا ، وقال بعضهم : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبى :

أشد الغم عندى فى سرور … تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركا ، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) والظاهر أنه كان مقراً بالآخرة ، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام إنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الإنفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه السلام « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار » (ورابعها) قوله (وأحسن كما أحسن الله اليك) لما أمره

بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ، وإنما قال (كما أحسن الله إليك) تنبيهاً على قوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) وخامسها قوله (ولا تبغ الفساد فى الأرض) والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام ، وقال آخرون بل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال إنما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه : (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون أقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال إنما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه نخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهباً (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله (إنما أوتيته على علم عندى) أى الله أعطانى ذلك مع كونه عالماً بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله (عندى) أى عندى أن الأمر كذلك ، كما يقول المفتى عندى أن الأمر كذلك أى مذهبى واعتقادى ذلك ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) وفيه وجهان : (الأول) يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له : أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندى فتصلف بالعلم وتعظم به ، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ؟ .

أما قوله (وأكثر جمعاً) فالمعنى أكثر جمعاً للمال أو أكثر جماعة وعدداً ، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم ، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافاً .

فأما قوله (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال ، فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين) ؟ قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه ، وذكر أبو مسلم وجهاً آخر فقال : السؤال قد يكون للمحاسبة ، وقد يكون للتقريع والتبكيت ، وقد يكون للاستعتاب ، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله (ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ، **هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذون لهم فيعتذرون**) .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٧٩» وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ «٨٠» فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ «٨١»

قوله تعالى ﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

أما قوله (فخرج على قومه فى زينته) فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس فى القرآن إلا هذا القدر ، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة فى كيفية تلك الزينة ، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، وقال بعضهم بل خرج فى تسعين ألفاً هكذا ، وقال آخرون بل على ثلثمائة . والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب فى الدنيا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) من هذه الأمور والأموال ، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم ، لأن الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة ، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث ، قال صاحب الكشاف : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك مالا يرتضى .

أما قوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير فى يلقاها إلى ماذا يعود ؟ فيه وجهان : (أحدهما) إلى مادل عليه قوله (آمن وعمل صالحاً) يعنى هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون (والثانى) قال الزجاج يعنى ، ولا يلقى هذه الكلمة وهى قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار .

وأما قوله (فخسفنا به وبداره الأرض) ففيه وجهان : (أحدهما) أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل إن قارون كان يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بنى اسرائيل ، وقال إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت ، قال نبرطل فلانة البغى حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بنى اسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى وهو [غير] محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال وإن كنت أنا ، قال فان بنى إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتدار كها الله تعالى ، فقالت كذبوا بل جعل لى قارون جعلا على أن أقذفك بنفسى ، فخر موسى ساجداً يبكى ، وقال يارب إن كنت رسولك فاغضب لى ، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فانها مطيعة لك ، فقال يابنى إسرائيل إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ، ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ماأفظك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم ، أما وعزتى لودعونى مرة واحدة لوجدونى قريباً مجيباً . فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة ، قال القاضى إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة فى الزجر ، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاث بى لأغثته ، فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ماهو عليه مع أنه تعالى هو الذى حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام مافعله إلا عن أمره فبعيد ، وقولهم إنه يتجلجل فى الأرض أبداً . فبعيد لأنه لابد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات ، والذى عندى فى أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين ، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ، ثم إنها فى أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .

أما قوله (وماكان من المنتصرين) فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ «٨٢» تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «٨٣»

الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر ، أى منعه منه فامتنع .

قوله تعالى ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون فى زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله .

أما قوله (ويكأن الله) فاعلم أن وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم ، فلما قالوا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ،ويضيق على من يشاء لالهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وى مفصولة من كان وأن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم وى . وذكر الفراء وجهين (أحدهما) أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله ، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثانى) وى منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى مابين يديك فقال الله وى ثم استأنف كان الله يبسط فالله تعالى إنما ذكرها تعجيباً لخلقه ، قال الواحدى وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ماقالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لايقاس عليه ، ثم قالوا (لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) وهذا تأكيد لما قبله .

أما قوله (تلك الدار الآخرة) فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، وعن على

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٨٤» إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ «٨٥» وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ «٨٦» وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «٨٧» وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٨٨»

عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ، قال صاحب الكشاف : ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله (إن فرعون علا فى الأرض) والفساد لقارون لقوله (ولا تبغ الفساد فى الأرض) ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله (والعاقبة للمتقين) كما تدبره على بن أبى طالب عليه السلام

قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ، إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، بل هى للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وفيه وجوه (أحدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شىء هو أفضل من تلك الحسنة ، ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره فى آخر النمل ، وأما قوله (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئآت إلا ما كانوا يعملون) فظاهره أن لايزادوا على ما يستحقون .

وإذا صح ذلك فى السيئات دل أن المراد فى الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب ، قال صاحب الكشاف تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، وهذا من فضله العظيم أنه لايجزى بالسيئة إلا مثلها ، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة ، وفى هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى فى ذكر الإحسان بمرة واحدة ، فما السبب ؟ (الجواب) لأن هذا المقام مقام الترغيب فى الدار الآخرة ، فكانت المبالغة فى الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب ، لأن المبالغة فى الزجر عن المعصية مبالغة فى الدعوة إلى الآخرة . وأما الآية الآخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم أولى .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف قال : لا تجزى السيئة إلا بمثلها ؟ مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات فى الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه . قال الجبائى : وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذاباً دائماً بغير جرم ، قلنا لا يجوز أن يفعله وليس فى الآية ما يدل عليه ، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى فى ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله فقال (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) قال أبو علي : الذى فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد ، وتنكير المعاد لتعظيمه ، كأنه قال إلى معاد وأى معاد ، أى ليس لغيرك من البشر مثله . وقيل المراد به مكة ، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره أنها كانت فى ذلك اليوم معاداً له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله ﷺ عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية ، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً . وقال مقاتل : إنه عليه السلام خرج من الغار وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : تشتاق إلى بلدك ومولدك ، فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يعنى إلى مكة ظاهراً عليهم وهذا أقرب ، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب ، قال أهل التحقيق : وهذا أحد مايدل على نبوته ، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ، ثم قال (قل ربي أعلم من جاء بالهدي ومن هو في ضلالٍ مبين) ووجه تعلقه بما قبله أن

الله تعالى لما وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال،(قل) للمشركين (ربي أعلم من جاء بالهدى) يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة (ومن هو في ضلال مبين) يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم ، ثم قال لرسوله (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ففي كلمة إلا وجهان (أحدهما) أنها للاستثناء ، ثم قال صاحب الكشاف : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل (وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ويمكن أيضاً إجراؤه على ظاهره ، أي وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، أي ما كنت ترجو إلا على هذا (والوجه الثاني) أن إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أي ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك) خصصك به ، ثم إنه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهراً للكفار فقال (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (وثانيها) أن قال (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) الميل إلى المشركين ، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطراً من مالهم ، أي لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله (وادع إلى ربك) أي إلى دين ربك ، وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين ، فلذلك قال(ولا تكونن من المشركين) لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم (ورابعها) قوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر) وهذا وإن كان واجباً على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم ، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك البتة فما فائدة هذا النهي ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد ، ثم بين أنه لا إله إلا هو ، أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو ، كقوله(رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) فلا يجوز اتخاذ إله سواه ، ثم قال (كل شيء هالك إلا وجهه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا في قوله (كل شيء هالك) فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم ، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزاؤه باقية ، فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه ، بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك في ذاته ، فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك ، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه .

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا : ثبت أن العالم محدث ، وكل ما كان محدثاً فان حقيقته قابلة للعدم والوجود ، وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبداً ، لأن الإمكان من لوازم الماهيـــة ، ولازم الماهية

لا يزول قط ، إلا أنا لما نظرنا فى هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض ، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض ، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ماسوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم ، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى إلا بعدقيام الدلالة على نفى ذلك القسم الثالث ، ولهم فى نفى هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما) قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها فى الكتب الكلامية (والثانى) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى فى نفى المكان والزمان والإمكان ، ولو كان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف ، لاحتمال أن يقال إنهما وإن اشتركا فى هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة ، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلى لا يفى بإثبات أن كل شىء هالك إلا وجهه ، والذى يعتمد عليه فى هذا الباب أن نقول ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته ، وإلا لاشتركا فى الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين فى الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضاً ويلزم التسلسل وهو محال ، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجباً ، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح ، وافتقاره إلى المرجح ، إما حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول ثبت أنه محدث ، وإن كان الثانى فافتقار الموجود إلى المؤثر ، إما حال حدوثه أو حال بقائه ، والثانى باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال . فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث ، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز ، فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته ، فاعلم أن هناك فرقا قوياً وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثاً كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شىء هالك إلا وجهه ، بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة فى الحال ، وعلى ماقلناه فهى هالكة فى الحال ، وعلى ماقلتموه أنها ستهلك لا إنها هالكة فى الحال ، فكان قولنا أولى وأيضاً فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا لا للوجود ولا للعدم من ذاته ، فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته ، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذى استعار ثوباً من رجل غنى ، فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيراً كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هى هى ، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبداً هالكة من حيث هى هى ، أما الذين حملوه على أنها

ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا : الهلاك فى اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشيء عن أن يكون منتفعاً به (والثانى) الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلا كها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال ، لأنها وإن تفرقت أجزاؤها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم ، وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة ، وسواء بقيت موجودة أوصارت معدومة . وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء . أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال : هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التى يكون الشيء مطلوباً لأجلها ، فاذا مات الإنسان قيل هلك لأن الصفة المطلوبة منه حياته وعقله ، وإذا تمزق الثوب قيل هلك ، لأن المقصود منه صلاحيته للبس ، فاذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التى لأجلها كانت منتفعاً بها انتفاعاً خاصاً ، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها فأما صحة الإستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هى شمس والقمر من حيث هو قمر ، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما فى هذا الموضع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء ، قالوا لأنه استثنى من قوله (كل شيء) استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ ، فوجب كونه شيئاً يؤكده ماذكرناه فى سورة الأنعام ، وهو قوله (قل أى شيء أكبر شهادة قل الله) واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله (ليس كمثله شيء) والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئاً ، جوابه : أن الكاف صلة زائدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الأول) قالوا الآية صريحة فى إثبات الوجه وذلك يقتضى الجسمية (والثانى) قوله (وإليه ترجعون) وكلمة إلى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل إلا فى الأجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه ، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة . وهو بيان ابن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ، ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أى حقيقته ، ومنهم من قال الوجه صلة ، والمراد كل شيء هالك إلا هو ، وأما كلمة إلى فالمعنى وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين ، قالوا لأن الآية تقتضى فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا ، وهذا يناقض قوله تعالى فى صفة الجنة (أكلها دائم) (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى فى صفة الجنة (أعدت للمتقين) وفى صفة النار (وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم إما أن يحمل قوله (كل شيء هالك) على الأكثر ، كقوله

﴿ سورة العنكبوت ﴾

مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس ، وهى سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ «١» أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ «٢»

(وأوتيت من كل شىء) أو يحمل قوله (أكلها دائم) على أن زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (كل شىء هالك) يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم بالهلاك على الشىء فدل على أن الشىء فى كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئاً والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الأول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للثأر ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو أنه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة (وادع إلى ربك) وكان فى الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب ، لأن النبى عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال (أحسب الناس أن يتركوا) (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة (كل شىء هالك إلا وجهه) ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال (له الحكم وإليه ترجعون) يعنى ليس كل شىء هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله . إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فإنها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة فيها . فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه ، بل حسن التكليف ليثيب

الشكور ويعذب الكفور فقال (أحسب الناس أن يتركوا) غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ، ولنقدم عليه كلاماً كلياً فى افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال يشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع فى المقصود . إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلى ، وكن لى . وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خاف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه . ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر . ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يازيد ، والغافل ينبه أولا فيقال إلا يازيد . إذا ثبت هذا فنقول إن النبى ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هى كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى إفادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولا مفهوماً فاذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه ، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه مالم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لامعنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر مايوفقنا الله له فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى (الم ذلك الكتاب) (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب) ، (المص كتاب أنزل إليك) ، (يس والقرآن) ، (ص والقرآن) (ق والقرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل الكتاب) إلا ثلاثة سور (كهيعص) ، (الم أحسب الناس) ، (الم غلبت الروم) والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أولم يكن ، فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منبه ، وأيضاً فقد وردت

سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله (سورة أنزلناها) وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) لأنا نقول جواباً عن الأول لا ريب فى أن كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن) مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثانى أن قوله (الحمد لله ، وتبارك الذى) تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهى ، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح (وسورة أنزلناها) قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى (إنا أنزلناه) فنقول هذا ليس وارداً على مشغول القلب بشىء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهى ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله (إنا أنزلناه) الهاء راجع إلى معلوم عند النبى ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه ، واعلم أن التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كما فى قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) وقوله (ياأيها النبى اتق الله ، ويا أيها النبى لم تحرم) لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الإبتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكاليف والمعانى ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهى فان قيل مثل هذا الكلام ، وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى ؟ (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال (أحسب) وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى أول الكلام لا فى أثنائه ، وأما (ألم غلبت الروم) فسيجىء فى موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى إعراب (ألم) وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : (الأول) أنها نزلت فى عمار ابن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثانى)

أنها نزلت فى أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) أنها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى التفسير قوله (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم (آمنا وهم لايفتنون) لايبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو فى قوله (أن يقولوا) فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أى تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الفوائد المعنوية وهى أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر « لا يزال العبد يتقرب إلى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاءً من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله ، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، وللسان مصدقات هى الأعضاء ، ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان ، فلا بد له من شهود فاذا استعمل الأركان فى الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ، ويقرر فى أقسام المقربين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين ، بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

﴿ فائدة ثانية ﴾ وهى أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فان مادونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً فى شغله ماضياً فى فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابداً مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة القساة ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشارة للمطيع الناهض (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون فى أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى (والذين أوتوا العلم درجات) (فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) .

وقال بضده للكسلان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني إذا قال آمنت ويتخلف

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ «٣»

بالعصيان يترك ويرضى منه ، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم (آمنا) بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفى قوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وجوه : (الأول) قول مقاتل فليرين الله (الثانى) فليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله ، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عندالامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيداً مثلا سيطيع وعمراً سيعصى ، ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شىء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات، ولله المثل الأعلى ، وهوأن المرآة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع فى ذهن أحد أن المرآة فى كونها حديداً تغيرت ، أو يقع له أنها فى تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شىء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) يعنى يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم (وليعلمن الكاذبين) يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ، وفى قوله (الذين صدقوا) بصيغة الفعل وقوله (الكاذبين) باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة ، وهى أن اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين (الذين صدقوا) بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر (الكاذبين) بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال (يوم ينفع الصادقين صدقهم) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن فى اليوم المذكور الصدق قد يرسخ فى قلب

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ «٤»

مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٥»

المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾

لما بين حسن التكليف بقوله (أحسب الناس أن يتركوا) بين أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب وإن لم يعذب فى الحال فسيعذب فى الإستقبال ولا يفوت الله شيء فى الحال ولا فى المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإمهال فلا يفضى إلى الإهمال والتعجيل فى جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الإستعجال .

ثم قال تعالى (ساء ما يحكمون) يعنى حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيء فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة .

ثم قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى ، وبين فى قوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا فى مواضع أن الأصول الثلاثة وهى الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبى المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل فى الذكر الإلهى بعضها عن بعض ، فقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) فيه إشارة إلى الأصل الأول يعنى أظنوا أنه يكفى الأصل الأول وقوله (وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى الأصل الثانى وقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) مع قوله (من كان يرجو لقاء الله) فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغه بمعنى الوصول حتى أن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ «٦»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله (من كان يرجو لقاء الله) من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر ، فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل ، أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلولم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال ، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (من كان يرجو) شرط وجزاؤه (فان أجل الله لآت) والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (وهو السميع العليم) ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول فى قوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) وسبق الفعل بقوله (وهم لا يفتنون) وبقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وبقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال (ممن كذب) وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى أن العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته (أحدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة .

ثم قال تعالى ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهما دافع ، بين أن طلب الله ذلك

من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غنى مطلقاً ليس شيء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له ، وذلك لأن من يفعل فعلا لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال (من جاهد فإنما يجاهد لنفسه) فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالإستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فاذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع فى أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فإنما) يقتضى الحصر فينبغى أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لغنى عن العالمين) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غنى عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله فى مكان لأن الداخل فى المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الإستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا فى مكان وإنه محال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو فى قادريته محتاجا إلى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غنى ، نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلان الله إذا كان غنياً عن

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ «٧»

العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلاشيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ماخلقه لعبد من عباده لاشيء عليه لاستغنائه عنه . وهذا يوجب الرجاء التام .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾

لما بين إجمالا أن من يعمل صالحاً فلنفسه ، بين مفصلا بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال (والذين آمنوا) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للايمان لأن العطف يوجب التغاير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهى ثمرة الايمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك فى أن عروقها وأغصانها منها ، والماء الذى يجرى عليها والتراب الذى حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان هو التصديق كما قال (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق واختص فى استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلا أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل فى نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهى ، فالصدق عمل صالح فى نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهى ، وعندهم الأمر والنهى يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها فى [كتب] الأصول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العمل الصالح باق لأن الصالح فى مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هى بعد صالحة أى باقية على ما ينبغى . إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما تعالى (كل شىء هالك) فبقاؤه لابد من أن يكون بشىء باق ، لكن الباقى هو وجه الله

لقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) فينبغى أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحاً ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذى أتى به المكلف مخلصاً لله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذا يقتضى أن تكون النية شرطاً فى الصالحات من الأعمال وهى قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية فى الصوم خلافاً لزفر ، وفى الوضوء خلافاً لأبى حنيفة رحمه الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى (العمل الصالح يرفعه) لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وههنا لطيفة ، وهى أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته . فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب» والتائب النادم بقلبه ؛ وكذلك قوله عليه السلام « يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم» يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتى الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر فى مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن) فتكفير السيئات فى مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن فى مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضى أموراً (الأول) المؤمن لا يخلد فى النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الأخرى ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن فى العقبى ، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله (لنكفرن عنهم سيئاتهم) يستدعى وجود السيئات حتى تكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتمونى أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٨»

إليكم ، لا يقتضى هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكلف إلا وله سيئة . أما غير الأنبياء فظاهر ، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله (ولنجزينهم أحسن) يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم . وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ماتكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقى ، وعلى الوجه (الثانى) معناه قريب من معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله (فله خير منها) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكر حال المسىء مجملا بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) إشارة إلى التعذيب مجملا . وذكر حال المحسن مجملا بقوله (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) ومفصلا بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله .

قوله تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ماوجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضاً للمكلف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الانسان إن انقاد لأحد ينبغى أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شىء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى القراءة قرئ حسناً وإحساناً وحسناً أظهرها هنا ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ «٩»

لأجل الإحسان إليهما يفضى إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى إلى الاحسان حقيقة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) وقوله (ماليس لك به علم) يعنى التقليد فى الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد فى الكفر ، فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلا ، لأن العلم بصحة قولها محال الحصول ، فاذا لم يشرك تقليداً ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى عاقبتكم ومآلكم إلى ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر .

ثم قوله تعالى (فأنبئكم) فيه لطيفة وهى أن الله تعالى يقول لا تظنوا انى غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتماداً على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم إياى فانى حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماالفائدة فى إعادة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة أخرى ؟ نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالا بقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) ولما تمم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً ومضلا فقوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) يقتضى أن يهتدى بهما وقوله (وإن جاهداك لتشرك) بيان إضلالها وقوله (إلى مرجعكم فأنبئكم) بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله (والذين آمنوا) على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة لبيان حال المهتدى ، ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال (أولا) (لنكفرن عنهم سيئاتهم) ، وقال (ثانياً) (لندخلنهم فى الصالحين) والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء (ألحقنى بالصالحين)

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ «١٠» وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ «١١»

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية . والمعمول له وهو وجه الله باق ، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل فى معنى قوله (لندخلنهم فى الصالحين) لندخلنهم فى مقام الصالحين أو فى دار الصالحين والأولى أن يقال لاحاجة إلى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق إليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الأنسان فانه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله (تعالى لندخلنهم فى الصالحين) أى فى المجردين الذين لا فساد لهم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ .

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بين القسم الثالث وقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (ومن الناس من يقول آمنا) ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التى بعده كقوله تعالى (فاذا أوذى فى الله) وقوله (جعل فتنة الناس) وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمؤمن ، ويقول إيمانى كإيمانك فقال (آمنا) يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال فى القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم ، لأنه لا يصح الإنكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحققين كان الواحد يقول (آمنا) أى أنا والمحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاذا أوذى فى الله) هو فى معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأوذوا فى سبيلى) وقال ههنا (أوذى فى الله) ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الايذاء إلى حد الاكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالايمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

﴿ المسألة الربعة ﴾ قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الانسان كالصبر على العبادات .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطنا ، بل فى باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال (ولئن جاء نصر من ربك) ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله (أوذى فى الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجىء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم فى الحقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملا على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أوذى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإن المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبيس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب ، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر ، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلمن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلمن الله الذين آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «١٢»

والكافر ، والكافر فى قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن فى قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً(١) وكان ههنا المنافق صادقاً فى قوله فانه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب فى المنافق فقال (وليعلمن المنافقين) واعتبر أمر القلب فى المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطايا كم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر فى الذل وعلى الإيذاء لأى شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الآمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أى إن اتبعتمونا حملنا خطايا كم ، قال صاحب الكشاف : هو فى معنى قول من يريد اجتماع أمرين فى الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن منى الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أى ليكن منا الحمل وليس هو فى الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) فهناك نفى الحمل ، وههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبى عليه السلام «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء» .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطايا كم وهم كذبوا فى هذا فانهم لا يحملون شيئاً .

(١) فى الأصول صادق وكاذب ولما كانا بدلا من خبر كان المنصوب فتعين نصبهما .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٣١»

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا

ثم قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ فى الذى كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة فى الكفر ، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر ، فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم ، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم م افتريتم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكرَ أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبى وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك ، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبى عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفائدة فى ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبى عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الاسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً فى الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضاً كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغى أن يغتروا فان العذاب يلحقهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض العلماء الاستثناء فى العدد تكلم بالباقى ، فاذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة ، فكأنه قال على سبعة ، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة ، فما الفائدة فى العدول عن هذه العبارة إلى غيرها ؟ فنقول قال الزمخشرى فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ «١٤» فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ «١٥»

عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريباً لا تحقيقاً ، فاذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع ، فان مراتب الأعداد هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض الأطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم ، والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته ، وإلا لما بقي ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهي إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فاذن البقاء ممكن في ذاته ، فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهي ، وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلا عن مائة أو أكثر

قوله تعالى ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فان الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الاصرار على الظلم ، فقوله (وهم ظالمون) يعني أهلكهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم .

قوله تعالى ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾

في الراجع إليه الهاء في قوله (جعلناها) وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثاني) أنها راجعة إلى

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١٦»

الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين .

ثم قال تعالى ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ لما فرغ من الاشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور ، و(الثانى) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و(الأول) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم ، والثانى أنه منصوب بمذكور وهو قوله (ولقد أرسلنا) فيكون كأنه قال وأرسلنا ابراهيم ، وعلى هذا ففى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إذ قال لقومه) ظرف أرسلنا أى أرسلنا ابراهيم إذ قال لقومه لكن قوله (لقومه اعبدوا الله) دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الارسال ، ولما كان هو مشتغلا بالدعاء إلى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله (اعبدوا الله واتقوه) اشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفى غيره فقوله (اعبدوا الله) إشارة إلى الاثبات ، وقوله (واتقوه) اشارة إلى نفى الغير لأن من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال (اعبدوا الله) إشارة إلى الاتيان بالواجبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الأول الاعتراف بالله ، وفى الثانى الامتناع من الشرك ، ثم قوله (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) يعنى عبادة الله وتقواه خير ، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتباراً ، أما عقلا فلأن الممكن لابد له من مؤثر لايكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكا وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الإلهية ، وما به الاشتراك غير مابه الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، واما اعتباراً فلأن الشرف أن يكون ملكا أو قريب ملك ، لكن الانسان لايكون ملكا للسموات والأرضين

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «١٧»

فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى (واسجد واقترب). وقال «لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ماافترضت عليهم» وقال « لايزال العبد يتقرب بالعبادة إلى » فالمعطل لاملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلا ، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة ، فإذن من يقول إن ربى لايماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدى صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أى خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات .

ثم قال تعالى ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ، وإما لكونه نافعاً فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقعاً منه أمراً فى المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه . فقال إبراهيم (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثاناً لا شرف لها .

قوله تعالى ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إشارة إلى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل ، وهذا لأن النفع ، إما فى الوجود ، وإما فى البقاء لكن ليس منهم نفع فى الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع فى البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال (فابتغوا عند الله الرزق) فقوله (الله) إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله (الرزق) إشارة إلى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشرى قال (لايملكون لكم رزقاً) نكرة فى معرض النفى أى لارزق عندهم أصلا ، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والرزق

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ «١٨»

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «١٩»

من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقاً) لعدم حصول العلم به وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به ، ثم قال (فاعبدوه) أى اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق (وإليه ترجعون) أى اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

ثم قال تعالى ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وإن تكذبوا) وفى المخاطب فى هذه الآية وجهان : (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه (إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ ، فان الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان (والثانى) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكى لأى شىء حكيت هذه الحكاية فالنبى عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب ، فقال فى أثناء حكايتهم يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول فى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ أن قوله (فقد كذب أمم) كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (أحدهما) أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم (والثانى) أن نوحا عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويجىء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما (البلاغ) وما (المبين) ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانة هى إقامة البرهان عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ .

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ، وأشار إلى الأصل الثانى وهو الرسالة بقوله (وما على

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ

الرسول إلا البلاغ المبين) شرع فى بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث . وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال (أو لم يروا كيف يبدئ الله) ؟ فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا ، فنقول العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه[1] ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد فى الأرحام ، ويخلقه من نطفة فى غاية الإتقان والإحكام ، فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية ، وقال (أولم يروا) أى ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً (كيف يبدئ الله الخلق) يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم ، فان من نحت حجارات ووضع شيئا بجنب شىء ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيئا بجنب شىء فى هذه النوبة أسهل على لأن الحجارات منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله (وهو أهون) وإليه الاشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال : أو لم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يك شيئا مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بإمكان الاعادة فان الاعادة مثله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم قال (ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فان الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحى القادر ، بقدرة كاملة ، لا يعجزه شىء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لا راد لما أراده ، يقطع بجواز الاعادة .

ثم قال تعالى ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة

---

(١) المراد بنفسه هنا نفس الانسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، تعالى الله عن الشبه والمثل والنظير .

الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٢٠»

إن الله على كل شىء قدير ﴾

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال (أو لم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال فى هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكرى ، وهذا لأن الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال : إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا فى الأرض ، أى سيروا فكركم فى الأرض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال فى الآية الأولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضى إلى الرؤية ، يقال نظرت فرأيت والمفضى إلى الشىء دون ذلك الشىء ، فقال فى الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الأرض لتحصل لكم الرؤية ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفى الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسى إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الأمر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبرز اسم الله فى الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدئ الله) وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال (ثم الله ينشئ) لأن فى الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يبدئ الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ، وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الانشاء ثانياً حيث قال (ثم الله ينشئ) مع أنه كان يكفى أن يقول : ثم ينشئ النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الاعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو فى قوله (كيف يبدىء الله الخلق) ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن

يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ «٢١» وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ «٢٢»

مذكوراً عند البدء فأظهره (وثانيهما) أن الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) وفي الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسي الحاصل لهذا الانسان من نفسه، وفي الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله (قل سيروا في الأرض) وعندهما تم الدليلان، فأكده باظهار اسمه، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثاني، فلم يقل ثم الله يعيده.

﴿المسألة الرابعة﴾ في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدئ) وههنا قال بلفظ الماضي فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً، ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك.

﴿المسألة الخامسه﴾ قال في هذه الآية (إن الله على كل شئ قدير) وقال في الآية الأولى (إن ذلك على الله يسير) وفيه فائدتان (احداهما) أن الدليل الأول هو الدليل النفسي، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام، لأنه بالنظر في نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه، فتم علمه بأن كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين (إن الله على كل شئ قدير) وقال عند الدليل الواحد (إن ذلك) وهو إعادته (على الله يسير) (الثانية) هي أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثاني أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول في حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه، فاذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول إن ذلك عليه سهل يسير، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا في الأرض لتعلموا أنه مقدور، ونفس كونه مقدوراً كاف في إمكان الاعادة.

ثم قال تعالى ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر مايكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة، وإثابة أهل الانابة فضلا ورحمة، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكياً عنه «سبقت رحمتى غضبى» فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، وكما ذكر ، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد - التهديد بقوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب) كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله (سبقت رحمتى غضبى) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصى و تفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله (يعذب من يشاء) لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه ، فنقول : هذا أبلغ فى التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى ، فانه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى ، ولنضرب له مثلا فنقول : إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه ، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع ، فلا يقدر على أيضاً لكونى مثله ، وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ، لأن الأمن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى إلى صيرورة المطيع عاصياً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ثم إليه تقلبون) مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها و تقريرها فلم أعادها ؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين ، فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات ، فان إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها (وما أنتم بمعجزين) يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الإنفلات منه ، وفى تفسير هذه الآية لطائف (إحداها) هى إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع ، وذكر الله القسمين فقال (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) يعنى بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك فى السماء أو هبطتم إلى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٣»

لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال (وما أنتم بمعجزين) ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفى الفعل لا يدل على نفى الصلاحية ، فان من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط (الثالثة) قدم الأرض على السماء ، والولى على النصير ، لأن هربهم الممكن فى الأرض ، فان كان يقع منهم هرب يكون فى الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء ، وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقى إلى غيره ، والشفاعة أجمل . ولأن ما من أحد فى الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لأجله .

ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ .

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) إشارة إلى الكفار بالله ، فان لله فى كل شىء آية دالة على وحدانيته ، فاذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال (أولئك يئسوا من رحمتى) لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة . لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة ، فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلى ، فاذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر . ثم إن فى الآية فوائد (إحداها) قوله (أولئك يئسوا) حتى يكون منبئاً عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً (وأولئك لهم عذاب أليم) لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتى ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله (أولئك) مرة واحدة كان يكفى فى إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد فى غيرهم ، فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتى وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَيهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٢٤»

بقوله (أولئك يئسوا) فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله ، لأن الإيمان به لا يصح إلا ذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقى الأمر من جانبهم . إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم (اقتلوه أو حرقوه) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف سمى قولهم (اقتلوه) جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقابله بالجواب ، وإنما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الآمر نفس المأمور ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فاذا قال أعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعنى إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان

أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون (أو) مستعملا فى موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال الله تعالى (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقالته خلوا سبيله وإن أصر خلوا فى النار مقيله .

ثم قال تعالى (فأنجاه الله من النار) اختلف العقلاء فى كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى (يا نار كونى بردا) وبعضهم قال خلق فى إبراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ماهو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنسانى له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش . مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فان صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فاذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل فى الإنسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى ، والقطنة كما هى ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف ، فان النار فى الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التى كانت فى النار ، فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهى إلى حد لا يؤذى الانسان ، ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو أن فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثانى فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة ، ألا ترى أن الإنسان

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ «٢٥»

إذا مس الجمد زماناً ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار فى إحراق يده مثل ما تؤثر فى إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا . فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغى أن يكون خارقا للعادة .

ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يعنى فى إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى إنجاء نوح وأصحاب السفينة (جعلناها آية) وقال ههنا (لآيات) بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شئ تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (آية للعالمين) وقال ههنا (لقوم يؤمنون) خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار [فإنه] لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الايمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهى أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة فى إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (جعلناها) وقال ههنا (جعلناه) لأن السفينة ما صارت آية فى نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها ، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

ثم قال تعالى ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فان بين بعضكم وبعض مودة

فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) أى مودة بين الأوثان وبين عبدتها ، وتلك المودة هى أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ،ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق . والعاقل يحمل الألم الجسمانى ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة ، والألم العقلى . إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلى العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لايكون فوقهم ولا تحتهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولا وراءهم ، ولا يكون جسما من الأجسام ، ولا شيئاً يدخل فى الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) يعنى يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ، ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتى ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون ، بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى (ومأواكم النار) ثم قال تعالى (وما لكم من ناصرين) يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم فى النار ولا ناصر لكم ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال قبل هذا (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع (وما لكم من ناصرين) والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أى للأوثان وعبدتها من ناصرين ، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله (ولا نصير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (ما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) وما ذكر الولى ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أى ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا) والشفيع لا يكون

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢٦»

له شفيع، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال هناك (مالكم من دون الله) فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً ووليا هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا (ما لكم من ناصرين) من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا، لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة (يكفر بعضكم ببعض) وعدم الناصر عام لأن التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً.

ثم قال تعالى ﴿فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم﴾

يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) إبراهيم (إنى مهاجر إلى ربى) أى إلى حيث أمرنى بالتوجه إليه (إنه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن إيذائى بعزته، وحكيم لا يأمرنى إلا بما يوافق لكمال حكمته، وفى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (فآمن له لوط) أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالته، وإما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته، وإليه أشار بقوله (فآمن له لوط) وما قال فآمن لوط.

﴿المسألة الثانية﴾ ماتعلق قوله وقال (إنى مهاجر إلى ربى) بما تقدم؟ فنقول لما بالغ إبراهيم فى الإرشاد ولم يهتد قومه، وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى (ولم يؤمنوا) وجبت المهاجرة، لأن الهادى إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا، وإذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة.

﴿المسألة الثالثة﴾ قال (مهاجر إلى ربى) ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة، فنقول قوله (مهاجر) إلى حيث أمرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله (إلى ربى) لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلانى، ثم إن واحداً منهم سافر إليه لغرض [فى] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال (مهاجر إلى ربى) يعنى توجهى إلى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «٢٧»

ثم قال تعالى ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

قدذكرنا فى تفسير قوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) أن أثر رحمة الله فى أمرين فى الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن فى الدار الآخرة قطعاً بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لاثباته الواحد ، ولكن هذا لبس بواجب الحصول فى الدنيا ، فان كثيراً مايكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكر فى أمر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا ، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد فى دعاء النبى ﷺ ، قوله «وقنا عذاب الفقر والنار» فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل ، وأما الثواب العاجل ففى قوله (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) إذا علم هذا فنقول إن ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار . ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله (ووهبنا له اسحاق ويعقوب) وفى الآية لطيفة : وهى أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم فى الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثر ماله حتى كان له من المواشى ماعلم الله عدده ، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد إن كان خاملا . حتى قال قائلهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وهذا الكلام لا يقال إلا فى مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فان كون العبد صالحاً أعلى مراتبه ، لما بينا أن الصالح هو الباقى على ماينبغى ، يقال الطعام بعد صالح ، أى هو باق على ماينبغى ، ومن بقى على ماينبغى لايكون فى عذاب ، ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ «٢٨» إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٢٩» قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ «٣٠»

لحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال هو مذكور فى قوله (وجعلنا فى ذريته النبوة) ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر . كما يقول القائل إن السلطان فى خدمته الملوك والأمراء الملك الفلانى والأمير الفلانى ولا يعدد ا[لكل] لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى جعل فى ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى بين ولديه ، فكيف صارت النبوة فى أولاد اسحاق أكثر من النبوة فى أولاد اسماعيل ؟ فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس جمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحداً بعد واحد ، ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحداً جمع فيه ماكان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد اسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسماعيل مثل ذلك المقدار .

ثم قال تعالى ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أئنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ .

الإعراب فى لوط ، والتفسير كما ذكرنا فى قوله (وإبراهيم إذ قال لقومه) وههنا مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله) وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه (لتأتون الفاحشة) فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لابد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها

ههنا ذكرها الله على سبيله الاختصار ، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله فى موضع آخر حيث قال (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم . وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فان ابراهيم لم يظهر ذلك [فى زمنه] ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم سمى ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لاتحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فانه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى إلى بقاء النوع ، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضى إلى وجود الولد ولكن لايفضى إلى بقائه ، لأن المياه إذا اشتبهت لايعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فاذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لاتستره المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضى إلى وجود الولد ولكن لايفضى إلى بقائه ، فاللواطة التى لاتفضى إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة ، لأنها مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا ، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم ، وقوله (ماسبقكم بها من أحد) يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، (والثانى) أن قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء فى البخل ، وسبق اللئام فى اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بياناً لما ذكرنا ، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى (أتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله (وتأتون فى ناديكم المنكر) يعنى ما كفا لم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الاظهار ، وقوله (فما كان جواب قومه) فى التفسير ، كقوله فى قصة إبراهيم (وما كان جواب قومه) وفى الآية مسائل :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ «٣١» قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ «٣٢»

﴿ الأولى ﴾ قال قوم إبراهيم (اقتلوه أو حرقوه) وقال قوم لوط (ائتنا بعذاب الله) وما هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني . والقدح في الدين صعب ، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ، فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فان قيل إن الله تعالى قال في موضع آخر (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) وقال ههنا (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا ، فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الارشاد مكرراً عليهم التغيير والنهي والوعيد ، فقالوا أولا ائتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله (فقال رب انصرني على القوم المفسدين) فان الله لا يحب المفسدين ، حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يعني المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم ، فانهم يضلون في الحال وفي المآل فانهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع ، فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالا ومآلا ، فعدمهم صار خيراً ، فطلب العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾

لما دعا لوط على قومه بقوله (رب انصرني) استجاب الله دعاءه ، وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعني أهل سدوم ، وفي الآية لطيفتان : (إحداهما) أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ،

لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالاهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الانذار . وقال (جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم قال (إنا مهلكوا) (الثانية) حين ذكروا البشرى ماعللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا (إن أهلها كانوا ظالمين) لأن ذا الفضل لايكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

﴿ والثانية ﴾ قال فى قوم نوح (فأخذهم الطوفان) وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال (إن أهلها كانوا ظالمين) ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضى حيث قال (فأخذهم) وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون ، وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا (إنا مهلكوا) فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه فى إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا ، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فان الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفاقاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا (إنا مهلكوا) وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعنى نعلم أن فيهم لوطاً فلننجينه وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعنى إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيراً . أما إبراهيم فلما سمع قول الملائكة (إنا مهلكوا) أظهر الإشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحاً ، وقال (إن فيها لوطاً) ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين ، وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك فى الماضى ، وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أى باق ، وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق فى قولهم (إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة (إنها

وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ «٣٣» إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٣٥»

من الغابرين) أى الماضى ذكرهم لا من الذين ننجى منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا (إنها من الغابرين) أى من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين ، وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل فى الهلاك إلا من ننجى منه فقالوا إنا ننجى لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) .

ثم إنهم جاؤا من عند ابراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى جاءه ماساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز فى تدبيرهم ، قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى مالا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولا غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الانسان ، فكان الانسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الأمر قالوا لاتخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لاتخف لايوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم (إنا منجوك وأهلك) وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى قال من قبل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم) وقال ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهى أن الواقع فى وقت المجىء هناك قول

الملائكة (إنا مهلكوا) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا ، ثم قالوا إنا مهلكوا وأيضاً فالتأنى واللبث بعد المجىء ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبرهائل يحسن منه أن لا يفاجىء به ، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم ، والمؤمن حين مايشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغى أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير ، إذا علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجىء ، فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت فى سورة هود ، وقال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) من غير أن ، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) فقوله هنالك (ولقد جاءت) لا يدل على أن قولهم (إنا أرسلنا) كان فى وقت المجىء . وقوله (ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم) دل على أن حزنه كان وقت المجىء . إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية إبراهيم (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ، ثم قالوا (لا تخف) ولا تحزن (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فحصل تأخير الانذار ، وبقوله فى حكاية لوط (ولما جاءت رسلنا) حصل بيان تعجيل الحزن ،وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم (ولما جاءت) قال فى حكاية لوط (ولما أن جاءت) لما ذكرنا من الفائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هنا (إنا منجوك وأهلك) وقال لابراهيم (لننجينه) بصيغة الفعل فهل فيه فائدة ؟ قلنا مامن حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، والذى يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم (إن فيها لوطاً) وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم ، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا (إنا منجوك) أى ذلك واقع منا كقوله تعالى (إنك ميت) لضرورة وقوعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قولهم (لا تخف ولا تحزن) لا يناسبه (إنا منجوك) لأن خوفه ماكان على نفسه ، نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن ، وهى أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لأجلنا فانا ملائكة ، ثم قالوا له : يالوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ، ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع فى أهلك فقالوا (إنا منجوك وأهلك) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القوم عذبوا بسبب ماصدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم ، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) واختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم حجارة

وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا (إنا منجوك) ثم قالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية) ولم يعللوا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الاهلاك بقولهم (بما كانوا يفسقون) وقالوا بما كانوا ، كما قالوا هناك (إن أهلها كانوا ظالمين) ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهى بين القدس والكرك وفيها مسائل :

﴿ إحداها ﴾ جعل الله الآية فى نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية) وقال (فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات) وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم ، أما إبراهيم فلأن الآية كانت فى النجاة لأن فى ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما فى نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهى ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقى آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس فى البلاد فجعل الآية الأمر الباقى وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهى أن الله تعالى آية قدرته موجودة فى الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى السفينة (وجعلناها آية) ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لأن الانجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع فى وهم جاهل أن الانجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفى زمان دون زمان ، فهى بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك للعالمين وقال ههنا (لقوم يعقلون) قلنا لأن السفينة موجودة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاه ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى طالباً للنجاة ، وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المريد، بسبب اختصاصه بمكان ، دون مكان ووجوده فى زمان بعد زمان .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ
وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٣٦» فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٣٧»

ثم قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾

لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع فى الثالثة وقال (وإلى مدين أخاهم) واختلف المفسرون فى مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل فى الأصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر فى القوم ، والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال (ولما ورد ماء مدين) ولو كان اسماً للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل فى الاضافة التغاير حقيقة ، وقوله (أخاهم) قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الله تعالى فى نوح (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قدم نوحاً فى الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك فى إبراهيم ولوط ، وههنا ذكر القوم أولا وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل فى جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولا إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبى فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟ قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفى زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضاً فى التوحيد فبدأ به وقال (اعبدوا الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله

ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله (اعبدوا الله) ؟ فنقول : هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيداً وعمرو هناك وهو أكبر أوهو سيد زيد ، فاذا قال له اخدم عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيداً ، فاذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لاتعطه زيداً ، فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب (اعبدوا الله) ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها فى عبادة غيرالله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهوعبادة الله ففهم منه التوحيد ، ثم قال (وارجوا اليوم الآخر) قال الزمخشرى معناه افعلوا ماترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا . وقوله (وارجوا اليوم الآخر) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا يدل على صحة مذهبنا ، فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم مالو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لايلزم المنعم أن يزيده ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ،فنقول قوله (وارجوا اليوم) بعد قوله (اعبدوا الله) يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

﴿ المسألة الثانيـة ﴾ قال (وارجوا اليوم الآخر) ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال (اعبدوا) ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى فى حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، وأما فى الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أى قياماً ويكون قوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) كقول القائل إجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهى فى قوله (اعبدوا الله) وقوله (ولا تعثوا) ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما حكى عن شعيب أمرونهى والأمر لايصدق ولايكذب ، فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ «٣٨» وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ «٣٩»

﴿المسألة الثانية﴾ قال ههنا وفى الأعراف (فأخذتهم الرجفة) وقال فى هود (فأخذتهم الصيحة) والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فان قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافى الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوى ، وأن يقال شرب فقوى فى صورة واحدة .

﴿المسألة الثالثة﴾ حيث قال (فأخذتهم الصيحة) قال (فى ديارهم) وحيث قال (فأخذتهم الرجفة) قال (فى دارهم) فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الإلتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهى أن الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة فى الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها . والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا فى الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا فى ديارهم .

قوله تعالى [﴿وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين﴾](١)

ثم قال تعالى (وعاداً وثمود) أى وأهلكنا عاداً وثمود لأن قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) دل على الإهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى عبادتهم لغير الله (وصدهم عن السبيل) يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبل . ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفاً عليهم أى : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

(١) جرت عادة المؤلف أن يذكر الآية بتمامها مجردة أولا ، ثم يعيد تفسيرها كلمة كلمة ، وقد خرج المصنف هنا عن هذه العادة ، فأثبتنا الآية كالمعتاد ووضعناها بين قوسين مربعين هكذا ليفهم أن هذا من صنيعنا (المصحح)

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «٤٠»

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود (وكانوا مستبصرين) أى بالرسل ، ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الأرض) إشارة إلى مايوضح قلة عقلهم فى استكبارهم ، وذلك لأن من فى الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن فى السماء أقواهم ، ثم إن من فى السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف [يستكبر] من فى الأرض . ثم قال تعالى (وماكانوا سابقين) أى ماكانوا يفوتون الله لأنا بينا فى قوله تعالى (وما انتم بمعجزين فى الأرض) أن المراد أن أقطار الأرض فى قبضة قدرة الله .

ثم قال تعالى ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج ، فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذى على منفذ الأذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس ، والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء . فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فاذا أراد الله هلاك الإنسان جعل مامنه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى (وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ماكان يظلمهم أى ماكان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته .

ثم قال تعالى ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ .

لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ، ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لايجير آوياً ولا يريح ثاوياً ، وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه :

(الأول) ان البيت ينبغى أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين . إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فان لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فان لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع ، فان من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء ، فاذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معانى الأولياء شيء (الثانى) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب ، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوى ولا الماء ولا النار ، والخباء الذى هو بيت من الشعر أو الخيمة التى هى من ثوب ان كان لا يدفع شيئاً يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر فى الغير ، فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر فى العابد ، فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فان العنكبوت لو دام فى زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغى أن يستحق الثواب ، فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

﴿المسألة الثانية﴾ مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثانى) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

﴿المسألة الثالثة﴾ كما أن هذا المثل صحح فى الأول فهو صحيح فى الآخر ، فان بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) .

﴿المسألة الرابعة﴾ قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفى أيضاً ، فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٤١» إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٤٢» وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

ثم إنه تعالى قال ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .
إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبيته يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون) .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾
قال الزمخشري : هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم . فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلا ، وهذا يفهم منه أنه جعل مانافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه مايدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم ، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى هذا لو قال قائل ماوجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت، فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري ، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي واعظامي ، فقال الله تعالى الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عـــدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾
قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالإنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فاذا قال الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ «٤٣» خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ «٤٤»

ثم قال تعالى ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يعنى حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكمى وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراً وكون المدرك عاقلا ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلابد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هذا فقوله (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها ومافيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان . ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبر ، وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

يعنى إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم ، فان خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفى الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهى أن الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى أن قال - لآيات لقوم يعقلون) فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى (ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وأما العقل فهو أن العاقل أول ما ينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم أن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الأرض ولا فى السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات ، فيجوز بعث من فى القبور وبعثة الرسول ، ويعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه ، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله : بقوله تعالى ﴿ أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

يعنى إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى إليك لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال (اتل) وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك ، فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام . وقسم يكون فيه قانون كلى نحتاج إليه الرعية فى جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال . فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت فى الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئموه ، وكتاب لا يكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضا لنفس المتكلم فان كثيراً ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ

حتى يكاد يبكى من رقته دماً ولو أورثه البكاء عمى ، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان فى تلاوته فى كل زمان فائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين (أحدهما) أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله ، فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إلى وأقم الصلاة لوجهى (الوجه الثانى) هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية خارجية وهى العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبى عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر ممكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك . فأمره بهما فقال : اتل الكتاب وأقم الصلاة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أى فيه النهى عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة فى هذا الموضع الذى قال قبله (اتل ما أوحى إليك) بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهى تنهى عنهما مادام العبد فى الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشىء منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملا للصلاة ، لأن غيرها من الأشغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم فى وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هى التى تكون مع الحضور وهى تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن المعاصى لم يزدد بها إلا بعداً » ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الأمرين مطلقاً وهى التى أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الأول) هو أن من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لا يتصور قبوله ، وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفا أن يترك خدمة الملك ويدخل فى طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له ، وحصل له منزلة المصلى يناجى ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن من تكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثانى) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج

مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدى الله واضع يمينه على شماله ، على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ، ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم ، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر . ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا فى ذلك الموضع ، فلو أراد أن يجلس فى صف النعال لا يترك . فكذلك العبد إذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقى والمنادى والمتعيش لا يبالى بما فعل من الأفعال يأكل فى دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطى ماكان يفعله ، فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى (واسجد واقترب) فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصى والمناهى ، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر ، وفى الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله . فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شىء إلا وفيه آية على الله ، ظاهرة وإنكار الظاهر ظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول) فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوز أن يكون له ولد ، ولداً كيف لا يكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأن العبد أول ما يشرع فى الصلاة يقول الله أكبر ، فبقوله الله ينفى التعطيل وبقوله أكبر ينفى التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فاذا قال بسم الله نفى التعطيل ، وإذا قال الرحمن الرحيم نفى الإشراك ، لأن الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة ، والرحيم من

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ «٤٥»

يعطى البقاء بالرزق بالرحمة ، فاذا قال الحمد لله رب العالمين ، أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله (رب العالمين) خلاف الإشراك ، فإذا قال (إياك نعبد) بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله (وإياك نستعين) فإذا قال (إهدنا الصراط) نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له ، وبقوله (المستقيم) نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفى الإشراك والتعطيل ، وههنا لطيفة وهى أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله (أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلى أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقى من الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء فى آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لا غير ، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع فى قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين يدى السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه بالإجلاس ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا ، وفى هذا الجثو لطيفة وهى أن من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لا يكون له جثو فى الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله فى حقهم (ونذر الظالمين فيها جثياً) .

ثم قال تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال (ولذكر الله أكبر) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم ، وفى قوله (ولذكر الله أكبر) مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهى أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ «٤٦» وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ «٤٧»

الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال فى الصلاة الله أكبر أى له الكبر لا لغيره .

ثم قال تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) قال بعض المفسرين المراد منه لاتجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أى إذا ظلموا زائداً على كفرهم ، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى فى حقهم (صم بكم عمى) وقال (لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) إلى غير ذلك . وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبى عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم ، بخلاف المشرك ، ثم على هذا فقوله (إلا الذين ظلموا) تبيين له حسن آخر ، وهو أن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة . فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون ، لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) فيلزمنا اتباع ما قاله لسكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضىء ، ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسياً فقال (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ، ثم قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ، واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سـلام وغيره وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين

وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ «٤٨» بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ «٤٩»

آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله (هؤلاء) صرفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا ، إذكان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الأنبياء ، فإن الله ما آتى الكتاب إلا الانبياء ، كما قال تعالى (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) وقال (وآتينا داود زبوراً) وقال (وآتانى الكتاب) وإذا حملنا الكلام على هذا لايدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله ابن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عدداً قليلا ، ويكون المراد بقوله (ومن هؤلاء) غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم فى وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف فى الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف فى فضيلة الرؤساء والملوك ، فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى ﷺ نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ، ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعنى أنكم آمنتم بكل شىء ، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم ، فان الجاحد بآية يكون كافراً .

[قوله تعالى ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾] .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ «٥٠»

ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ماتقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيها كقول القائل : الزكاة تجب فى مال الصغير ، فاذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة فى ماله ، ولا يذكر أولا الجامع بينهما ، فان قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله (وكذلك أنزلنا إليك) ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلا ، وقوله تعالى (إذن لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف ، وهو أن النبى إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فان جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل فى الإبطال وهذا كقوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله (الم ذلك الكتاب لاريب فيه) .

ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبى وخاطرى ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه فى قلبى وصدرى ، فاذا قال (فى صدور الذين أوتوا العلم) لا يكون من صدر أحد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الأمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال ههنا الظالمون ، ومن قبل قال الكافرون ، مع أن الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه فائدة ، وهى أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هناك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون فى أول الأمر بالمشركين حكما ، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أى مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٥١» قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ «٥٢»

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهى بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك لأن موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله (إنما الآيات عند الله) ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله ، ثم إن توقف الخلق فى قبوله أو طلبوا منه دليلا ، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها ؛ وهذا لأن ما هو من ضرورات الشىء إذا خلق الله الشىء لابد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبى وتكذيب النبى . ونعلم بها كونك نبياً ونؤمن بك ، فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

ثم قوله (وإنما أنا نذير مبين) معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بى ما أنا إلا نذير وليس لى عليه حكم بشىء ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ، وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب .

[فقال تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم مافى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾]

فقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى إن كان إنزال الآية شرطاً

فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله (أو لم يكفهم) عبارة تنبىء عن كون القرآن آية فوق الكفايه ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفى للمسىء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب فى حقه كثير فكذلك قوله (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثانى) هو أن قلب العصا ثعباناً كان فى مكان واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهى أن آيات النبى عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدت الكنيسة بالروم فى قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال (إن فى ذلك لرحمة) إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق فى ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبى لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكرى) إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقى الزمان .

ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعنى هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقى وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بينى وبينكم ، كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريراً وتأكيداً ، ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء . فقال (يعلم ما فى السموات والأرض) وههنا مسألة : وهى أن الله تعالى قال فى آخر الرعد (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفى هذه السورة قدمها حيث قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) ومن هؤلاء من يؤمن به أى من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم

إن شهادة الله أقوى فى إلزامهم من شهادة غير الله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب . وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

ثم إنه تعالى لما بين الطريقين فى إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لأن ماسوى الله باطل لأنه هالك بقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) وكل ماهالك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (أولئك هم الخاسرون) يقتضى الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتى بأحدهما دون الآخر ينبغى أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتى بالايمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلا بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبى من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمى حجارة ، فقال إن رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذى هو الله ليس بإله فيكون كفراً به ، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول . فلعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فانه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها ، فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامى الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «٥٣»

حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله .

ثم قوله (هم الخاسرون) كذلك بأتم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شىء ما أصلا من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها .

ثم قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ .

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لا يحصل له فى مقابلة قدر الخسران شىء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغى أن يكون حصل له فى مقابلة الدرهم مايساوى نصف درهم ، وإلا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم ، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله (وأولئك هم الخاسرون) تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحيما لا يكون غضوباً منزعجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه ، كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسئولهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أى الأجل ، لأن الآتى بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة ، وقد ذكرنا أن فى كون العذاب أو الأجل آتياً بغتة حكمة ، وهى أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ «٥٤» يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٥٥»

يفيد فائدة مستقلة ، وهى أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلا .

ثم قال تعالى ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدنى به ، فقال ههنا (يستعجلونك بالعذاب) والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فقوله (ويستعجلونك) أولا إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم ، فقال تعالى :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾
وفيه مسألتان :

﴿ الأولى ﴾ لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التى تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ولم يقل من فوق رءوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرءوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلهذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطفىء بالدوس وما فوق على الإطلاق

ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياه سبباً لعذابهم ، وهذا كثير النظير فى الاستعمال .

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ «٥٦»

ثم قال تعالى ﴿ ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ .

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) إن تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال، وبهذا علم أن الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب . حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، وإن ادع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ (ياعبادى) لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فيه لوجوه : (أحدها) أن من قال فى حقه (عبادى) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله (ياعبادى) (الثانى) هو أن الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسماً عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) والخليفة أعظم الناس مقداراً وأتم ذوى البأس اقتداراً ،ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى (فأزلهما الشيطان) ثم إن من أولاده الصالحين من سمى بعبادى فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل ، كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال هو بلسانه (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك) فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى فى حقه عبدى وعندما ناداه بقوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) واجتباه بهذا النداء ، كما قال فى حق داود (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل فى قوله (ياعبادى) إلا المؤمن (الثالث) هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى (قال ادعونى أستجب لكم) فالمؤمن دعا ربه بقوله (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) فأجابه الله تعالى بقوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول ياعبادى غير المؤمنين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان عبادى لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة فى قوله (الذين آمنوا)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ «٥٧»

مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تمييزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ قال (ياعبادى) فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الأمر بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان (إحداهما) المداومة أى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى فى المستقبل (الثانية) الإخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولا تعبد غيرى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء فى قوله (فاياى) تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك ؟ فنقول قوله (إن أرضى واسعة) إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتى فاعبدونى ، وأما الفاء فى قوله تعالى (فاعبدون) فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله (فإياى) وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال العبد مثل هذا فى قوله (إياك نعبد) وقال عقيبه (وإياك نستعين) والله تعالى وافقه فى قوله (فإياى فاعبدون) ولم يذكر الإعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله (ياعبادى) لأن المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الإعانة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فان الغرض سابق على الفعل فى الإدراك ، وذلك لأن من يبنى بيتاً للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض فى الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود ، فان الإعانة قبل العبادة .

ثم قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لابد من وقوعه (فان كل نفس ذائقة الموت) والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه ، فان إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ، وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى (لا يذوقون فيها الموت) إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فان

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ «٥٨»

النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله (كل نفس ذائقة الموت ، وكل شىء هالك إلا وجهه) فإذاً التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى (فإياى فاعبدون) أى تعلقوا بى ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت (ثم إلينا ترجعون) أى إذا تعلقتم بى فموتكم رجوع إلى وليس بموت كما قال تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء) وقال عليه السلام « المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار إلى دار » فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

ثم قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ .

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فبين أن للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجرى من تحتها الأنهار فى مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) فى مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر فى العذاب أن فوقهم عذاباً أى ناراً ، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر فى الدرك الأسفل من النار . فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

وأما قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) لا ينافى لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن فى مسامتة الأقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذاً به ، فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا (نعم أجر العاملين) لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «٥٩» وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٦٠» ﴾

بعده ، فان من قال لأجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه ، وأما إذا قال ما أتم أجرتك عندى أو نعم مالك من الآجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك (ذوقوا ما كنتم تعملون) فان قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم فى النعم وإليه الاشارة بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى الذى يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ، وأما الخلود وإن لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

ثم قال تعالى ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لاتدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشىء ، بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى فى الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه فى الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فان فاته شىء فانه يتوكل على حى باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فان قوله (ياعبادى) كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها . فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الاخوان ، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر مايعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيئاً لغد . ويأتيها كل يوم برزق رغد . وفى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كأين لغات أربع [لا] غير هذه [و] كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكى على دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كأى

يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون ، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل ، وحينئذ لايكون كأى مركباً ، فاذا كان كأى ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب وبعلبك موصولا للفرق . وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها وبين ثمت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادراً وكم يستعمل كثيراً من غير من ، يقال كم رجلا وكم من رجل ، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأى التي ليست مركبة ، وذلك لأن كأى إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل ، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق . قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها وإياكم) بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا ، فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق ، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق ، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظماً ولحماً وشحماً ، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وإرادته فهو الذى يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق ، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك ، فان كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك ، فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية يجدها غداً ، مامد إليه أحد يداً ، والانسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شيء ؟ وأيضاً حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة ، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدح فى التوكل ، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل ، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع ، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ، ومن يصلى وقلبه مع ما فى يد زيد وعمرو هو غير متوكل . وأما قوله حاجات الإنسان كثيرة ، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً ، فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج ، وبرجله كالساعى وغيره ، وبعينه كالناطور ، وبلسانه كالحادى والمنادى ، وبفهمه كالمهندس والتاجر ،

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ «٦١»

وبعلمه كالطبيب والفقيه ، وبقوة جسمه كالعتال والحمال ، والحيوان لامكاسب له ، فالرغيف الذى يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل . وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فان الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى ، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجارتدخل فى الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شاؤا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلا ، فان الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فاذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال (وهو السميع العليم) سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم .

ثم قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

نقول لما بين الله الأمر للمشرك مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله (ياعبادى الذين آمنوا) وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن ، فان السيد إذا كان له عبدان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولا المفسد ، فان لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفى الآية لطائف (إحداها) ذكر فى السموات والأرض الخلق ، وفى الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ماحصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فاذاً الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافياً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين ، فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر ما يتنفس الانسان

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٦٢»

آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات ، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب فى كل يوم وليلة مرة ، والأخرى حركتها من المغرب الى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ، ولولا الحركة التى من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لا بعد فى ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة الى إيجاد الصفات وهى الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ، ثم قال تعالى (فأنى يؤفكون) يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجماد ، لأن الجماد دون الحيوان ، والحيوان دون الانسان ، والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات .

ثم قال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾

قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذى خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولى الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً وقوله (لمن يشاء) إشارة إلى كمال الاحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئاً ، فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ «٦٣»

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ

(ان الله بكل شيء عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفى إثبات العلم ههنا لطائف (إحداها) أن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الاطعام والطعام لايكون بعد قد استوى ، أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً ، وقد استوفى الأربع ، لأن قوله (خلق السموات والأرض) إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله (يبسط الرزق لمن يشاء) إشارة الى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله (إن الله بكل شيء عليم) إشارة إلى شمول علمه ، والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حياً ، ثم إنه تعالى لما قال (الله يبسط الرزق) ذكر اعترافهم بذلك . فقال :

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب ، فالرزق من الله ، ثم قال تعالى (وقل الحمد لله) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون كلاما معترضاً فى أثناء كلام كأنه قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى أثناء هذا الكلام (الحمد) لذكر النعمة ، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاماً متصلا ، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون ، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم (فقل الحمد لله) على ظهور تناقضهم (وأكثرهم لا يعقلون) هذا التناقض أو فساد هذا التناقض .

ثم قال تعالى ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٦٤»

لو كانوا يعلمون ﴾ .

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشىء بقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفرق بين اللهو واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) أن كل شغل يفرض ، فان المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو ، فالدنيا لعب أى إقبال على الباطل ، ولهو أى إعراض عن الحق (الثانى) هو أن المشتغل بشىء يرجح ذلك الشىء على غيره لامحالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثانى لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لاتسمى آلات الملاهى فى العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهى لأنها تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة ، وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى فى سورة الأنعام (وما الحياة الدنيا) ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا (وما هذه) فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى (فأحيا به الأرض من بعد موتها) فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال (ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال (وما الحياة الدنيا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (إلا لعب ولهو) وقال ههنا (الا لهو ولعب) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس إلى الاقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هناك (وللدار الآخرة خير) وقال ههنا (وإن الدار الآخرة

فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ «٦٥» لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «٦٦»

لهى الحيوان) فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال لاحياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال فى أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً فحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشىء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال هناك (خير للذين يتقون) ولم يقل ههنا إلا لهى الحيون ، لأن الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقى عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية ، فكأنه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أطلق عليها الاسم المستعمل فى النامى المدرك .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال فى سورة الأنعام (أفلا تعقلون) وقال ههنا (لو كانوا يعلمون) وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت ههنا أن لاحياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجاهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن اللام لام كى ، أى يشركون ليكون إشراكهم كفراً بنعمة الإنجاء ، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثانى) أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد ، كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) وكما قال (اعملوا على مكانتكم إنى عامل

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ «٦٧» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ «٦٨»

فسوف تعلمون) فساد ما تعملون .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون ﴾ .

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الانسان فى البحر يكون على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما إذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عندالخوف الشديد ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الأمن العظيم وهى كونهم فى مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم ، وهى حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعنى أنكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ماحصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لاغير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لاتكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟ والأصنام التى قطعتم فى حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها فى حال الأمن ؟ .

ثم قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم على ما بين وضع الشىء فى غير موضعه ، فاذا وضع واحد شيئاً فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالماً فاذا وضعه فى موضع لايمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الامكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لايحصل وليس كل مالايحصل لايمكن ، فالله تعالى لايمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلماً يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لايمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظلماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله؟ فإذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ «٦٩»

بالالهية ، ولم يقبلوا إذا حسب منعوت بالرسالة ، والآية تحتمل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى إنى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبىء ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن (جهنم مثوى للكافرين) والمتنبىء كافر ، وأنتم كذبتمونى فجهنم مثواكم إذ هى مثوى للكافرين ، وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ثم قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنه (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى ما قال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقوله (لنهدينهم) إشارة الى الحسنى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكمى وهو أن يكون المعنى (والذين جاهدوا فينا) أى الذين نظروا فى دلائلنا (لنهدينهم سبلنا) أى لنحصل فيهم العلم بنا . ولنبين هذا فضل بيان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله يخلق فى الناظر علماً عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة . وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال (إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين) الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه فقوله (ومن أظلم) إشارة إلى الأول وقوله (والذين جاهدوا فينا) إشارة إلى الثانى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى الثالث .

والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين .

﴿ ســورة الروم ﴾

ستون آية مكية [إلا آية ١٧ فمدنية ، نزلت بعد الانشقاق]

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ «١» غُلِبَتِ ٱلرُّومُ «٢» فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ «٣»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ﴾

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما فى قوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الإله كما قال (وإلهنا وإلهكم واحد) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال (والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الأمور ، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادى ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمعادى ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى (الٓمٓ ذلك الكتاب) ، (المصٓ كتاب) ، (طهٓ ما أنزلنا عليك القرآن) ، (الٓمٓ تنزيل الكتاب) ، (حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (يسٓ والقرآن) ، (صٓ والقرآن) إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى أولها ماهو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التى لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فى أدنى الأرض) أى أرض العرب ، لأن الألف واللام

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ «٤»

للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعد قوله (غلبت الروم) لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً ، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا ، دل على أن ذلك بأمر الله ، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم ، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله (فى أدنى الأرض) لبيان شدة ضعفهم ، أى انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فى بضع سنين) قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت الوقت مع أن المعجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له فى إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبى بن خلف وغيره ، وناحبوا أبا بكر أى خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبى بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الإبل وماده فى الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعاً ، وهذا يدل على علم النبى عليه السلام بوقت الغلبة .

[قوله تعالى ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾]

ثم قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعنى إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هى إرادة نافذة ، وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن فى ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده .

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «٥» وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٦» يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ «٧» أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ

ثم قال تعالى ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء [وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لايخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

قوله] تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال (بنصر الله ينصر) وقدم الفعل على المصدر فى قوله (وأيدك بنصره) وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله ، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من أسمائه هذين الأسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة إليه .

ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعداً ووعد الله لا خلف فيه ، قوله تعالى (ولـكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وأنه لا خلف فى وعده .

ثم قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هى وإنما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى ، فإذا قال هو شغلنى فلان فيقول ما شغلك ولـكن نت اشتغلت .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم [ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق

ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ «٧»

وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

قوله] تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والإنكار بالحشر كما قال تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون) بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو [أن] أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لايخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً ، ثم يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة التى يصفى بها الشىء فينزل منها الصافى إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية ، والعبرية عربية مفسودة فى الأكثر ، يقال لموسى ميشا وللاله إيل إلى غير ذلك ، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة ، وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواقى إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة فى خلق الإنسان ، وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختاراً قادراً كاملا عالماً شاملا علمه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أراده . وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضرورى ، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ فى إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لابد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فقوله (إلا بالحق) إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية ، وقد بينا ذلك فى قوله (خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) ونعيده فإن التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان

فلا يكون فيها فساد ، لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة وإلا لكان فيها فساد . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (وأجل مسمى) يذكر بالأصل الآخر الذي أنكروه

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما فى إسعاد أو شقاء ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة ، وأما المستفيد فإنه يفهم أولا الأبين ، ثم يرتقى إلى فهم ذلك الأخفى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخراً ، فالمذكور من المفيد آخراً مفهوم عند السامع أولا ، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال (أولم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما فى قوله (سنريهم) الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولا) الآفاق فان لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لا ذهول للانسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى يعلمون الله بدلائل الأنفس فى سائر الأحوال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) بدلائل الآفاق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر ، وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو؟ فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل إمكان العدم . لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم ، فاذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً كما بين بقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا(كثيراً من الناس) وقال من قبل (ولكن أكثر الناس) وذلك لأنه من قبل لم يذكر دليلا على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك فى أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل (وإن كثيراً) وقبله (ولكن أكثرهم) ثم بعد الدليل الذى لا يمكن الذهول عنه ، والدليل الذى لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التى فوقه والأرض التى تحته ، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «٩» ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ «١٠»

فقال تعالى ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقال فى الدليلين المتقدمين (أو لم يروا) ولم يقل (أو لم يسيروا) إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا (أو لم يسيروا فينظروا) ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه إذ بها المباشرة وقوة مالية إذا بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهى بالحصون والعمائر ، فقال تعالى : كانوا أشد منهم قوة فى الجسم وأكثر منهم مالا لأنهم أثاروا الأرض أى حرثوها ، ومنه بقرة تثير الأرض ، وقيل منه سمى ثوراً ، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم ، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم ، وقوله (فما كان الله ليظلمهم) يعنى لم يظلمهم بالتكليف ، فان التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولـكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها فى موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس ، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لا لأربح عليكم ، والوضع فى [أى] موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأماهم فوضعوا أنفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لـكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته ، لـكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

ثم قال تعالى ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «١١» وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ «١٢» وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ «١٣»

كما قال (للذين أحسنوا الحسنى) وقوله تعالى (أن كذبوا) قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا و كذبوا فكذبوا يكون تفسيراً لأساؤا وفى هذه الآية لطائف (إحداها) قال فى حق الذين أحسنوا (للذين أحسنوا الحسنى) وقال فى حق من أساء (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى) إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فان الحسنى اسم الجنة والسوآى اسم النار ، فاذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شىء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أساؤا ، فالسوآى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم إليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسىء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر فى المسيء أن له السوآى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوآى للمسيء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب فى التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب فى الثواب .

ثم قال تعالى ﴿ الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ .

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان فى ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق ، يعنى من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ .

فى ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم ، والإبلاس يأس مع حيرة ، يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو إحدى الراحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هـذا اليأس هو الإبلاس ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى ، ولديه ما يفتخر به ويباهى ، فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد ، ولا يصده صاد ، إذا جاءه لا يبلعه ريقاً ، ولا يترك له الى الخلاص طريقاً ، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ «١٤» فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ «١٥» وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ «١٦»

مجنون إن هذه الشجرة التى أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادى عمن يكون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبى فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول مايريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم فى دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبى الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التى هى الأوثان دافعة عنك كل باس ، وشافعة لك عند خمود الحواس ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام فى النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فييأس حينئذ أى إياس ويبلس أشد إبلاس . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم .

ثم قال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾

ثم بين أمراً آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فكان هذه الحالة مترتبة على الإبلاس ، فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وأعاد قوله (ويوم تقوم الساعة) لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله .

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى :

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ أى فى جنة يسرون بكل مسرة ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾

يعنى لاغيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال (لا يفتر عنهم العذاب) وفى الآيتين مسائل فيها لطائف :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين ، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون ، فقدم ذلك زيادة فى إيلامهم ،

فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ «١٧» وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ «١٨» يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْيِى ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ «١٩»

﴿ المسألة الثانيه ﴾ ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيء ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع ، فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور فى القسمين ، فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على مايقوله المعتزلة ، بل هو فى الأول ثى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور ، وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأول (فى روضة) على التنكير ، وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أى كثير وعظيم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى الأول (يحبرون) بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال فى الآخر (محضرون) بصيغة الإسم ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبىء عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله (يحبرون) يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به . وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين .

ثم قال تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾

لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله (ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعظمته فى الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة و يفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال (فسبحان الله) أى سبحوا الله تسبيحاً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو التسبيح ، سمى التسبيح بسبحان وجعل علماً له . وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ، أى صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أى نزهوه عن

صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول .
وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثانى ثمرة الأول والثالث ثمرة الثانى ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه فى التحقيق ، فاذا قال نزهونى ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ماهو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل إلى الحبور فى الرياض ، والحضور على الحياض .

﴿المسألة الثانية﴾ خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والانسان مادام فى الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح ، لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال (ومن آياته منامكم بالليل) فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً فى أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبدى صرف جميع أوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التى إدعيتم بقولكم (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) على سبيل الانحصار بل هم مثلكم

فمقامهم مثل مقامكم فى أعلى عليين ، واعلم أن فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة ، أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان فى سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) ويفهم من هذا أن قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) ذكر بلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة ، وأما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلا كما قال « تنام عيناى ولا ينام قلبى » جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى فى قوله (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى أربع وعشرين ساعة مسبحاً ، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين ، وأما فى أوقاته فما تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى أول النهار وآخره ، وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون فى وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر فى وسط النهار ، وأما النبى ﷺ لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل » ليكون الأربع فى نصف الليل كما أن الأربع فى نصف النهار ، وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل ؛ لأن المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس :

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى فضيلة السبحلة والحمدلة فى المساء والصباح ، ولنذكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبى ﷺ أنه قال لبعض أصحابه « أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة » وسمعته يقول رحمه الله مسنداً « من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر

مرات الله أكبر أدخل الجنة » وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهى صفات كمال وجلال خلافها نقص ، فاذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالماً بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شئ لكونه قادراً على كل شئ فقد نزهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجرى فى ملكه إلا مايشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسماً أو فى مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزهه . لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها . فاذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متنبهاً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ، لكن لا ريب فى أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله فى أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه . وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه . وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لا يفى عمره به ، فاذا استحضر فى ذهنه النعم التى لا تعد كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدى استغرق عمره فى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق فى صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله ، فكل ما يقع فى عقله من حقيقته فينبغى أن يقول الله أكبر مما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفنى عمره ولا يفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ما أتصوره بقوة عقلى وطاقة إدراكى يكون متوغلا فى العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك

فقول القائل المستيقظ « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ «٢٠»

أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذى يكون من صميم القلب لا الذى يكون من طرف اللسان .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (وعشياً) عطف على (حين) أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله (وله الحمد فى السموات والأرض) كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قدم الإمساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله (وسبحوه بكرة وأصيلا) وذلك لأن ههنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إلى قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله (وكذلك تخرجون) والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تعلق إخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو أن عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة . وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفسرون فى قوله (يخرج الحى من الميت) فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد (يخرج الحى من الميت) أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان ، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده وإماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه .

ثم قال تعالى (ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) وفى هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميته لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميته بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله (فسبحان الله) إلى قوله (وكذلك تخرجون) ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية

باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ، ومن حيث فعله فانه ثقيل والأرواح التى بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات الذى ينبت فى الأرض ولا يبرز ولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الأشجار التى تقبل التعظيم ، ويكون ثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولاسيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعى ، ثم الانسان ، وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو فى أعلى المراتب لايكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحمد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة ، وفى الآية لطيفتان : (إحداهما) قوله (إذا) وهى للمفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الله تعالى يخلق أولا إنساناً فينبهه أنه يحيى حيواناً ونامياً وغير ذلك لا أنه خلق أولا حيواناً ، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول ، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الارادة الأولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة فى الشىء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، إما الادراك فلكثافته وجموده ، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله (تنتشرون) إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر ، وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ وهى أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال (خلقكم من تراب) نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) ماقيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثانى) أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأنا خلقنا من

نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة إلا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى فى موضع آخر (وخلق من الماء بشراً) وقال (من ماء مهين) وههنا قال من (تراب) فكيف الجمع ؟ قلنا أما على (الجواب الأول) فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم . وأما على (الثانى) فنقول ههنا قال ماهو أصل أول ، وفى ذلك الموضع قال ماهو أصل ثان لأن ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعاً وهو المنى ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت إلا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شىء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال (من الماء بشراً) وإن كان الماء فكيف قال (خلقكم من تراب) وإن كاناهما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا والماء ليس لذاتيهما ، وإنما هو بجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الانسان ثم يفنيه ويحصـل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولا ، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فان كان كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلا وإن شاء جعل ذلك أصلا ، وإن شاء جعلهما أصلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحكماء إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهى التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فان التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ فان كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه ، وأما الآيات فنقول ماذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولاهما لا غير

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٢١»

فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما فى الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

لما بين الله خلق الانسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فاذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة فى العمارة لا تنسد ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق لكم) دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى (خلق لكم ما فى الأرض) وهذا يقتضى أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبى لكن الصبى ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ماكانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من أنفسكم) بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ويدل عليه قوله (لتسكنوا إليها) يعنى أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال سكن إليه للسكون القلبى ويقال سكن عنده للسكون الجسمانى ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهى للقلوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وجعل بينكم مودة ورحمة) فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلا ولده ، فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب

وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ «٢٢»

الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين (أحدهما) كون الزوج من جنسه (والثانى) ما تفضى إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين (أحدهما) يفضى إلى الآخر فالمودة تكون أولا ثم إنها تفضى إلى الرحمة ، ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله (إن فى ذلك) يحتمل أن يقال المراد إن فى خلق الأزواج لآيات ، ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (أما الأول) فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لو سل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات (وأما الثانى) فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم مالا يجده بين ذوى الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدأ من أن يقول ذلك بقدرة الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة (والثانى) اختلاف كلامهم فان عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمه بالغة وذلك لأن الانسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق

وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ «٢٣»

اختلاف الصور وقد يكون بالسمع لخلق اختلاف الأصوات . وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى (لآيات للعالمين) لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال (للعالمين) لعموم العلم بذلك .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (منامكم بالليل والنهار) قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة : ثم قال (وابتغاؤكم) أى فيهما فان كثيراً ما يكتسب الانسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ، ويدل عليه آيات أخر . منها قوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا) وقوله (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغى أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع ، منها قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله (ولتبتغوا من فضله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لايكون إلا لحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج فى الحال أو خائف من المآل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (آيات لقوم يسمعون) وقال من قبل (لقوم يتفكرون) وقال (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فانهما يدومان بدوام الإنسان

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٢٤»

فجعلهما آيات عامة . وأما قوله (لقوله يتفكرون) فاعلم أن من الأشياء مايعلم من غير تفكر ، ومنها مايكفى فيه مجرد الفكرة ، ومنها مالا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها مايحتاج إلى بعض الناس فى تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لايقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر ، فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال (لقوم يسمعون) ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

لما ذكر العرضيات التى للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق ، وقال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التى للأنفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق ، بقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل) وذلك لأن الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقريبة . وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لايتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو يتغير فى الأحوال وذلك لايتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لايتغيران ، ثم يرى فى بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

﴿ المسأله الثالثة ﴾ كما قدم السماء على الأرض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والاحياء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كما أن فى إنزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك فى تقدم البرق والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذى لايكون تحت كن يخاف الابتلال

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ «٢٥»

فيستعد له ، والذى له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء . فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسما بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لابد له من سبب وينتهى إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك .

﴿ المسأله الخامسة ﴾ قال ههنا (لقوم يعقلون) لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

لما ذكر من العوارض التى للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها ، فان الأرض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فان الأرض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل إنها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها فى مكانها لاتخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع

الذى هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لأنها أثقل الأشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل . والذى نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه ، وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الأنفس فقوله (خلق لكم) استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض فى قوله (خلق السموات والأرض) ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفى للاقرار بالحق . (والثانى) يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بأمره) أى بقوله (قوما) أو بارادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للارادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الأمر الذى للتكليف لا فى الأمر الذى للتكوين ، فانا لا ننازعهم فى أن قوله (كن) وكونوا (ويانار كونى) موافق للارادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (ومن آياته أن تقوم) وقال قبله (ومن آياته يريكم) ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته (أن يريكم) ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدراً ، لأن المستقبل ينبىء عن التجدد ، وفى البرق لما كان ذلك من الأمور التى تتجدد فى زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر ستة دلائل ، وذكر فى أربعة منها إن فى ذلك لآيات ، ولم يذكر فى الأول وهو قوله (ومن آياته أن خلقكم من تراب) ولا فى الآخر وهو قوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) أما فى الأول فلأن قوله بعده (ومن آياته أن خلق لكم) أيضاً دليل الأنفس ، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فاذا قال (إن فى ذلك لآيات) كان عائداً اليهما ، وأما فى قيام السماء والأرض فنقول فى الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها

وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ «٢٦» وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ «٢٧»

فلما كان فى أول الأمر ظاهراً ففى آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن أحد فى ذلك ، وذكر ماهو مدلوله وهو قدرته على الاعادة ، وقال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماوجه العطف بثم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه والله أعلم إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يافلان إصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يافلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعى هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعنى أنتم تكونون فى الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذا أنتم) قد بينا أنه للمفاجأة يعنى يكون ذلك بكن فيكون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا إذا أنتم تخرجون ، وقال فى خلق الانسان أولا (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه ، فاذا هو بشر ، وأما فى الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا ثم .

ثم قال تعالى ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التى هى الأصل الآخر ، والوحدانية التى هى الأصل الأول ، أشار اليها بقوله (وله من فى السموات والأرض) يعنى لاشريك له أصلا لأن كل من فى السموات وكل من فى الأرض ، ونفس السموات والأرض له وملكه ، فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعا مماثلا ، فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر ، فقال تعالى (وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى فى نظركم الاعادة أهون من الابداء

لأن من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هو هين عليه كما قيل فى قول القائل الله أكبر أى كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق من الابداء لأن فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم عظاماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلا يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما فى الاعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن فى البدء خلق الأجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول إلهين هو مالا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولا مبقى على حقيقته .

ثم قال تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله (وله المثل الأعلى) إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى أن الله تعالى قال فى موضع آخر (هو على هين) وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذى قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال (هو على هين) يعنى لا على غيرى ، وأما ههنا المعنى الذى ذكر أنه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال (وله المثل الأعلى) وكان ذلك مثلا مضروباً لمن فى الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) يعنى هذا مثل مضروب لكم (وله المثل الأعلى) من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات ، وأما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الأعلى أى فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقيل المثل الأعلى أى الصفة العليا وهى لا إله إلا الله ، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأجزاء فى الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها .

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٢٨»

ثم قال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾

لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الواحدانية أيضاً بالمثل بعد الدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا، وفى الآية مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما، ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم، وأما المخالفة فموجودة أيضاً وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله (من أنفسكم) يعنى ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله (مما ملكت أيمانكم) يعنى عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار[ى ء] قابل للنقل والزوال، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لاخروج له من ملك الله بوجه من الوجوه، فاذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه، بل هو فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله (من شركاء فيما رزقناكم) يعنى الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم، فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله (فأنتم فيه سواء) أى هل أنتم ومماليككم فى شىء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شىء مما يملكه، لكن كل شىء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئاً أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل إليكم منه، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للمملوك مع مساواته إياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة، فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ «٢٩» فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٠»

الوجوه وإلى هذا أشار بقوله (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والمحاكيات الاقناعية لقوم يعقلون ، يعنى لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لايكون له عقل :

ثم قال تعالى ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ أى لايجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله (فمن يهدى من أضل الله) أى هؤلاء أضلهم الله فلا هادى لهم ، فينبغى أن لايحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهى أن قوله (فمن يهدى من أضل الله) مقو لما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لاشريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذى لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لايغنى عنهم شيئاً فلا ناصر لهم .

ثم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ أى إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين ، وقوله (فأقم وجهك للدين) أى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) أى ذاته بصفاته ، وقوله (حنيفاً) أى مائلا عن كل ما عداه أى أقبل على الدين ومل عن كل شيء أى لايكون فى قلبك شيء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله (ولا تكونوا من المشركين) ثم قال الله تعالى (فطرت الله) أى ألزم فطرة الله وهى التوحيد

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «٣١»

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ «٣٢»

فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم (ألست بربكم) ؟ فقالوا بلى ، وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لا يسعد ، وقيل (لا تبديل لخلق الله) أى الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطرى غير كاف . ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين إن الناقص لا يصلح لعبادة الله ، وإنما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال (لا تبديل لخلق الله) بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك .

ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم .

ثم قال تعالى ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

لما قال حنيفاً أى مائلا عن غيره قال (منيبين إليه) أى مقبلين عليه ، والخطاب فى قوله (فأقم وجهك) مع النبى والمراد جميع المؤمنين ، وقوله (واتقوه) يعنى إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة . أى كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال (ولا تكونوا من المشركين) قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان أى ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله (منيبين) أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك الظاهر وبقوله (ولا تكونوا من المشركين) أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى أى لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) يعنى لم يجتمعوا على الاسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٣٣»

للخلاص من النار ، وكل واحد بما فى نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما الدينا نافد لقوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح لما قال تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) لا بما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافد ، أما فى الدنيا فظاهر ، وأما فى الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذى لا نفاد له فالذى لا نفاد له هو فضله .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة ، فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويجد نفسه محتاجة إلى شىء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) يعنى إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان ، وبسبب الصنم الفلانى ، لا ، بل ينبغى أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فانه شرك خفى ، مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيهىء الله له لوحا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو ، فيقول تخلصت بلوح ، أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى ، وإن كان بمعنى أن الله خلصنى على يد زيد فهو أخفى ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله تعالى (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال فى القليل فإن العرف [أن] من أكل مأكولا كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال فى النفى ما ذقت فى بيته طعاماً نفياً للقليل ليلزم نفى الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة فى الآخرة إذ لهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب (ذوقوا مس سقر ، ذوقوا ما كنتم تعملون ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين فى غاية القلة

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (منه) أى من الضر فى هذا التخصيص ما ذكرناه من الفائدة وهى أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هى عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «٣٤» أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ «٣٥»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (إذا فريق منهم) وقال فى العنكبوت (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذى لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه ، والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقى فريقاً .

ثم قال [تعالى ﴿ ليكفروا بما أتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ .

قوله] تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله (فتمتعوا) وعدمه هناك فى قوله (وليتمتعوا فسوف يعلمون) فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم مخاطب .

ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) أى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار ، أى ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول ، أهم يتبعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثانى فيتعين الأول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهو يتكلم) مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف

وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ «٣٦» أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٣٧»

وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن .

ثم قال[تعالى ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ قوله] تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فاذا آتاه رضى وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) والأول كالذى يخدم مكرها مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن ، فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهى أن قوله تعالى (فرحوا بها) اشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة ، فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله ، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به ، ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبدية طعام أيضاً يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبدية .

ثم قال تعالى (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد فى الإحسان والثانى يحقق العدل . قوله (إذا هم يقنطون) إذا للمفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٣٨»

أى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغى أن لا يكون نظره على مايوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شىء من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس(١) يعبد الله إذا كان فى الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لا يذكر الله ، بقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وبين أنه ينبغى أن يكون ، فى حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر ، فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالامساك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكويا أولم يكن ، وسواء كان بعد الحول أوقبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شىء له إذا بقى فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم

(١) المدوكر المتسلس : لعله اسم لطائفة من بنى ساسان وهم المكدون والمتسولون . يعبدون الله رياء وسمعة والخوانق أو الخوانيق جمع خانقاه كلمة أعجمية وهى مكان للعبادات وأما الرباطات فهى جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون فى سبيل الله على الثغور الاسلامية للحماية على الثغور .

واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ، ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شىء مافنقول ، وإن كان الأمر كذلك لكن لانزاع فى أن إطلاق المسكين على من لا شىء له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه ، والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان فى شدة ومخمصة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان فى شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدماً على من حاجته مختصة بموضع دون موضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر الأقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهى شىء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا فى الثابت ، فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوماً واحداً أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى وذو جاه وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأى وذو الفضل ، فقال (ذا القربى) إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال (مسكيناً ذا متربة) فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فآت ذا القربى حقه) ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلاناً يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون فى التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً يدخلان ، وإلى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « بئس خطيب القوم أنت » حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى . ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ذلك خير) يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى (وافعلوا الخير ، فاستبقوا الخيرات) والثانى أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله تعالى (للذين يريدون وجه الله) إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله (وجه الله) أى يكون عطاؤه لله لا لغير ، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله ، وإنما أراد مخلوق الله .

﴿ المسألة السابعة ﴾ كيف قال (وأولئك هم المفلحون) مع أن للافلاح شرائط أخر ، وهى

وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ «٣٩»

المذكورة فى قوله (قد أفلح المؤمنون) فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح ، فقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح ، وذاك مفلح ، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى ، فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظراً إلى علمه ثم إذا حد فى الزنا على سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل ، إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب ههنا بقوله (فآت) مع النبى ﷺ وغيره تبع ، وقد قال له من قبل (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وقال (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) يفهم منه الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة (وأولئك هم المفلحون) إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبلة وبالآخرة ، فلو كان المفلح منحصراً فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله (فأقم وجهك للدين) متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة .

ثم قال تعالى ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾

ذكر هذا تحريضاً يعنى أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة تقع فى يد الرحمن فتربوا حتى تصير مثل الجبل » فينبغى أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر . وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى أولئك ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كونه حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفاً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل ، فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شىء ثواباً

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «٤٠»

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٤١»

نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصور مثله نظراً إلى الفضل . مثاله فى الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرماً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك ألفاً ، فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب .

ثم قال [تعالى ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

قوله] تعالى (الله الذى خلقكم) أى أوجدكم (ثم رزقكم) أى أبقاكم ، فان العرض مخلوق وليس يبقى (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) جمع فى هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله (ثم يحييكم) والدليل قدرته على الخلق ابتداء ، وأما التوحيد فبقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) . ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه أى سبحوه تسبيحاً أى نزهوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله (وتعالى) أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشىء قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه أى لا تصفوه بالإشراك ، وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

ثم إنه تعالى قال ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم (لفسدت السموات والأرض) كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وإلى هذا أشار بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) واختلفت الأقوال فى قوله (فى البر والبحر) فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان فى البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضى وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فان العرب تسمى المدائن بحوراً لكون مبنى عمارتها على الماء . ويمكن أن يقال

قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ «٤٢»

إن ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ، فالفاسق مشرك بالله بفعله ، غاية مافى الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فاذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدنى بسببهما ، وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم ، وقوله (لعلهم يرجعون) يعنى كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله ، لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شىء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام ، فيقول القائل لماذا لا تؤدبه بالكلام ؟ فاذا قال لا ينفع ربما يقع فى وهمه أنه لا يبعد عن نفع ، فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

ثم قال تعالى ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

لما بين حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب فى غاية الحسن وذلك لأنه فى وقت الامتنان والإحسان قال (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى آتاكم الوجود ثم البقاء. ووقت الخذلان بالطغيان قال (ظهر الفساد فى البر والبحر) أى قلل رزقكم ، ثم قال تعالى (سيروا فى الأرض) أى هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، أما سلب البقاء فبإظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولا ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن الهلاك فى الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافياً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ «٤٣» مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ «٤٤» لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ «٤٥»

ثم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ماهو مكلف به فانه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين فى التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام « إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين » وقد ذكرنا معناه ، وقوله (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون قوله (من الله) متعلقاً بقوله (يأتى) والثانى أن يكون المراد (لا مرد له من الله) أى الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون . ثم أشار إلى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً) ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به ، (والثانى) ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أولم يقل ، لكن الايمان لابد معه من العمل الصالح ، فان الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشىء منه لابد منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (فعليه) فوحد الكناية وقال (فلأنفسهم) جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبوق بالرحمة ، لازم لمن أساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (فعليه كفره) ولم يبين وقال فى المؤمن (فلأنفسهم يمهدون) تحقيقاً لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشارة ، وعند غيره أشار إليه إشارة .

ثم قال تعالى ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾ ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذى يجازيه به الله

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «٤٦»

والملك إذا كان كبيراً كريماً ، ووعد عبداً من عباده بأنى أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله (من فضله) يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ، ثم إنى لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ، ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فان عدم المحبة من الله غاية العذاب ، وأفهم ذلك بمن يكون له معشوق فانه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إنى أحب فلاناً كيف يكون سروره .

وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان إلى العبد قدم الكافر فقال (من كفر فعليه كفره) وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال (ليجزى الذين آمنوا) ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) لأن قوله (من كفر) فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله (من عمل صالحاً) لتحريض المؤمن فالنهى كالايعاد والتحريض للتقرير والايعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان إظهاراً للكرم والرحمة ، فان قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة ، فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون فى درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى (يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) قدم المؤمن على الكافر ، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر فى الذكر لأنه قال من قبل (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله (يبلس المجرمون) وقوله فى حق المؤمن (فى روضة يحبرون) لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال (وأما الذين كفروا) .

ثم قال[تعالى ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قوله] تعالى (**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات**) لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك

بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لاحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لئلا يتوهم به الظلم فقال (يرسل الرياح مبشرات) قيل بالمطر كما قال تعالى (بشراً بين يدى رحمته) أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال ، فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا ، أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان (وليذيقكم من رحمته) بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال فى القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزر قال (وليذيقكم) ، وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أى الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال (ولتبتغوا) مسنداً إلى العباد ذكر بعده (من فضله) أى لا استقلال لشىء بشىء وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال (مبشرات) باصلاح الهواء فان إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختيار من الآدمى بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى قوله تعالى (ظهر الفساد ... ليذيقهم بعض الذى عملوا) وقال ههنا (وليذيقكم من رحمته) فخاطب ههنا تشريفاً (ولأن رحمته قريب من المحسنين) فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا (من رحمته) فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان : (أحدهما) ماذكرنا أن الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضاً ، وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى . وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال (من رحمته) كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم فى الآخرة ، وأما فى حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبىء عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (لعلهم يرجعون) وقال ههنا (ولعلكم تشكرون) قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما أخر هذه الآية لأن فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات (يريكم البرق) والحادث فى الجو فى أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا (مبشرات)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ «٤٧» اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ «٤٨»

لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، وحكمه به حكم جازم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا) أى إرسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبى ﷺ وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضا بالبينات ، وكان فى قومهم كافر ومؤمن كما فى قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفى قوله تعالى (وكان حقاً) وجهان : (أحدهما) فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أى علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثانى) (وكان حقاً علينا) أى نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلماً وإنما كان عدلا حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثانى تأكيد البشارة . لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبىء عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة ، فان إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولا ، ثم عادت آخراً لا يكون النصر إلا للمنهزم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم فى بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له .

ثم قال تعالى ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ «٤٩» فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٥٠» وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ «٥١» فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ «٥٢»

قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول فى إرسالها قدرة وحكمة . أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه الودق(١) يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة ففى نفس الهبوب فيما يفضى إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفضى إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى (فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها) وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أى من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل إنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجياً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أى من قبل ماذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فان الانسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثانى يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فانه آكد من قوله إنك تموت (وهو على كل شيء قدير) تأكيد لما يفيد الاعتراف .

ثم قال [تعالى ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ، فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين

(١) فى الأصل المطبوع بالمطبعة الأميرية « يشقه البق » وهو لا معنى له فيما يظهر لى ، ولعل ما ذكرته هو الصواب .

وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ «٥٣»

وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة أيضاً لايدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأول ﴾ قال فى الآية الأولى (يرسل الرياح) على طريقة الإخبار عن الإرسال ، وقال ههنا (ولئن أرسلنا) لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهى متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رءوف بالعباد يمسكها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والأيام فى البرارى والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا فى بعض الأزمنة وفى بعض الأمكنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الريح الضارة فى أعوام ، بل الضارة فى الغالب لا تهب فى الدهور (الثانى) هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً فان ما يهب مرة واحدة لايصلح الهواء ولا ينشىء السحاب ولا يجرى السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ، أما الكيفية فهى إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح فى هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب علي مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك فى نار وأخرجتها بسرعة لاتتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لايوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد . وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ، ولا شك أن فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح .

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ «٥٤»

فراراً ، وإنباؤه إلا كفراً وإصراراً ، قال له (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم إرشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فانك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه ، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذى لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن مالا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فان المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدى الأعمى الذى دون الأصم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى (الصم إذا ولوا مدبرين) ليكون أدخل فى الامتناع ، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فانما يفهم بالإشارة ، فاذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأصم (لا تسمع الصم الدعاء) ولم يقل فى الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لا يبلغ ذلك الحد فقال إنك داع لست بملجىء إلى الإيمان والداعى لا يسمع الأصم الدعاء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (وما أنت بهادى العمى) أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أى ليس شغله ذلك فقوله (إنك لا تسمع الموتى) نفى ذلك عنه ، وقوله (وما أنت بهادى العمى) يعنى ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سميعاً وهو كبذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان ، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله ، وقوله (إن تسمع إلا من يؤمن) دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم (قالوا سمعنا وأطعنا) .

ثم قال تعالى ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ «٥٥»

لما أعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً) وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلا من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله ، فقال (خلقكم من ضعف) أى مبنا كم على الضعف كما قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أى من حالة فقره ، ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلا مولوداً ورضيعاً ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ، وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ، ثم بين بقوله (يخلق مايشاء) إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق (فيبسطه فى السماء كيف يشاء وهو العليم القدير) لم قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل (وهو العزيز الحكيم) فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة هنا . فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله (وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) لأن الاعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى (وهو العليم القدير) تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فان عملوا خيراً علمه وإن عملوا شراً علمه ، ثم إذا كان قادراً فاذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الاثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال (وهو العليم الحكيم) وإلى مثل هذا مثل هذا أشار فى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) عقيب خلق الانسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله (الخالقين) إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

فقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة . وقيل مالبثوا فى القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَـانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ «٥٦»

فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ «٥٧» وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ «٥٨»

قوله تعالى ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولـكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله (وقال الذين أوتو العلم والإيمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين ، فنقول الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها ، لـكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء فى القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله (يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الاشارة بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) يعنى كان فى كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولـكنكم كنتم لا تعلمون) يعنى طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير .

ثم قال تعالى ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أى لا يطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لأنها لا تقبل منهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من مثل) إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الـكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فان طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تـكذيب دليل لا يصعب عليه تـكذيب الدلائل ، بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٥٩» فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ «٦٠»

آخر بعد ماذكر دليلا جيداً مستقيما ظاهراً لا غبار عليه وعانده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف ، فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أو المستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وأما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لأنه يقول العناد أفاد فى الأول حيث التزم ذكر دليل آخر . فان قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قرروها فرداً فرداً ، كمن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثانى كذا ، والثالث كذا ، وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال . وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله (ولئن جئتهم) والجمع فى قوله (إن أنتم) لطيفة وهى أن الله تعالى قال (ولئن جئتهم بكل آية) جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون . ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيئاً أية فائدة فى الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فاصبر إن وعد الله حق) أى أن صدقك يبين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة إلى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فانه لو سكت لقال الكافر إنه متقلب الرأى ، لا ثبات له . والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين . وآله وصحبه أجمعين .

﴿ سورة لقمان عليه السلام ﴾

(مكية كلها إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما (ولو أن ما فى الأرض من شجرة) الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم «١» تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ «٢» هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ «٣» الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ «٤» أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٥»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) إشارة إلى كونه معجزة وقال (ولئن جئتهم بآية) إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً) .

وقوله ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾

فقوله (هدى) أى بياناً وفرقاناً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى) وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ، كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التى نزلت مع (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك إشارة إلى الكل أى آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى سورة البقرة (ذلك الكتاب) ولم يقل الحكيم ، وههنا قال (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال (هدى ورحمة) وقال هناك

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ «٦»

(هدى للمتقين) فقوله (هدى) فى مقابلة قوله (الكتاب) وقوله (ورحمة) فى مقابلة قوله (الحكيم) ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى ذات رضا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (للمتقين) وقال ههنا (للمحسنين) لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال (للمتقين) أى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال (للمحسنين) أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتى بالإيمان والمتقى هو التارك للكفر ، كما قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال (للمحسنين) لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

﴿ المسأله الثالثة ﴾ قال هناك (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وقال ههنا (الذين يقيمون الصلاة) ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقى هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتى بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزم صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالا على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) قد ذكرنا ما فى الصلاة وإقامتها مراراً وما فى الزكاة والقيام بها ، وذكرنا فى تفسير الأنفال فى أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد ، فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تتم العبودية .

ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الأول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٧»

(الثالث) هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحمضوا ونقل عن النبي ﷺ أنه قال « روحوا القلوب ساعة فساعة » رواه الديلمى عن أنس مرفوعاً ويشهد له مافى مسلم «ياحنظلة ساعة وساعة» والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة ، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فان الترويح به لاغير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله (ليضل عن سبيل الله) كان فعله أدخل فى القبح .

ثم قال تعالى (بغير علم) عائد إلى الشراء أى يشترى بغير علم ويتخذها أى (يتخذ السبيل هزواً أولئك لهم عذاب مهين) قوله (مهين) إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام ، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده ، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك فى الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه ، وإن علم أنه لا يعود إلى ماكان عليه وأمره قد انقضى ، فانه لا يكرمه . فقوله (عذاب مهين) إشارة إلى هـذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر ، فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

أى يشترى الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه ، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشترى يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشىء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأى شىء يجده ويشتريها ، وهم ماكانوا يطلبونها ، وإذا جاءتهم مجاناً ماكانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضاً مراتب (الأولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثانى) الاستكبار ، ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها ؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله ، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التى من عند الله ؟ (الثالث) قوله تعالى (كأن لم يسمعها) شغل المتكبر الذى لا يلتفت إلى إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله (كأن فى أذنيه وقراً) أدخل فى الإعراض . ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده ، أو يقال إذا كان حاله هذا (فبشره بعذاب أليم) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ «٨» خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ «٩» خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

وقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به ، فان من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : (إحداها) توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالا للراحة إلى القلب ، ولا يبين النقمة ، وإنما ينبه عليها تنبيهاً (الثالثة) قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله (مهين) وصرح فى الثواب بالخلود بقوله (خالدين فيها) ، (الرابعة) أكد ذلك بقوله (وعد الله حقاً) ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره (فبشره بعذاب) وقال ههنا بنفسه (وعد الله) ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) ولولا قوله (منه) لما عظمت البشارة ، ولو كانت (منه) مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة ، فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى (نزلا من غفور رحيم) والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو (العزيز الحكيم) كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغى ، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر .

ثم قال تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال إنها مبسوطة كصفيحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله ، فضلا من أن ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى (كل فى فلك

وَأَلْقَى فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ «١٠»

يسبحون) والفلك اسم لشيء مستدير ، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهى مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع ، وإذا علم هذا فنقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله (بغير عمد) أى ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهى لا تزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا ، وهناك وعلى هذا قالوا إن من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز إذ يقال له هو ههنا وهناك ، وليس فى مكان إذ لا يعتمد على شيء ، فاذا حصل على الأرض حصل فى مكان ، إذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله (ترونها) فيه وجهان : (أحدهما) أنه راجع إلى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) أنه راجع إلى العمد أى بغير عمد مرئية ، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وإرادته .

ثم قال تعالى ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

أى جبالا راسية ثابتة (أن تميد) أى كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد ، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع إلى موضع ، ثم قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكننا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التى لا تعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب ، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ، ثم قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء) هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده ، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات ، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة فى باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلا من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا . ثم إن

هَذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ ٱلظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ «١١» وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ «١٢»

بكراً قال قولا حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الاول طبيعى والآخر اختيارى للحيوان ، ولكن لا يشك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لااختيار له فهو بارادة الله تعالى ، فقال (وأنزلنا من السماء) (الثانى) هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان ، متكثرة فى كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى (فأنبتنا فيها من كل زوج) أى من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذى هو الشجر إما أن يكون مثمراً ، وإما أن يكون غير مثمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى (كريم) أى ذى كرم ، لأنه يأتى كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض .

ثم قال تعالى ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾

قوله تعالى (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) أى بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فانه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ماسواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب . وأما الذى تولى لا يصل إلى المقصود أصلا ، وإن دام فى السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم فى غير موضعها أو الواضعون أنفسهم فى عبادة غير الله .

ثم قال [تعالى ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد ﴾

قوله] تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم

بإشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبى عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمة وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذى يدل على ماذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وإنما يكون مبخوتاً ، ألا ترى أن من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة ، لعدم علمه به أولا ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون فى فعله ، ثم الذى يدل على ماذكرنا قوله تعالى (أن اشكر لله) فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله (أن اشكر لله) وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فان اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة ، وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة فى شيء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضى . ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غنى حميد) أى الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفى الآية مسائل ولطائف (الأولى) فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغى أن يكون قد أوتى الحكمة (والجواب) أن قوله تعالى (أن اشكر لله) أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفى الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

﴿ المسألة الثانية) قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى ، وإن كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد ، كقول القائل : من دخل دارى فهو حر ، ومن يدخل دارى فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغى أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغى أن يكرر ، والكفر ينبغى أن ينقطع فمن كفر ينبغى أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله ، بل أبداً يكون منه شيء فى العدم يريد الشاكر إدخاله فى الوجود ، كما قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) وكما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فأشار إليه بصيغة المستقبل ، تنبيهاً على أن الشكر بكماله لم يوجد . وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضى .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «١٣» وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ «١٤»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى هنا (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران ، وقال فى سورة الروم (ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله (ومن عمل صالحاً) يحقق ماذكرنا أولا . لأن المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لامرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله (ومن كفر فان الله غنى) عن حمد الحامدين ، حميد فى ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علو مرتبة الانسان بأن يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله (أن اشكر) إشارة إلى الكمال وقوله (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) إشارة إلى التكميل ، وفى هذا لطيفة وهى أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى أرشد الأجانب والأقارب فان إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة فى تعليم الأباعد فلا ، ثم إنه فى الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) فى عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع فى موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطى عمراً يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد فى يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق ، وأما الإشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلا .

ثم قال تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين أنها غير ممتنعة ، بل هى واجبة

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «١٥» يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ «١٦»

لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال (حملته أمه) يعنى لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده . وفصاله فى عامين ، أى صارت بقدرته أيضاً سبب بقائه ، فاذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة ، فان الخدمة لها صورة العبادة ، فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفى الأب ماوجد فى الأم فان الأب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله (أن اشكر لى ولوالديك) لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال (أن اشكر لى ولوالديك) ثم بين الفرق وقال (إلى المصير) يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة ، فان إلى المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى .

ثم قال تعالى ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

يعنى أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية فى العنكبوت ، وقال ههنا (واتبع سبيل من أناب إلى) ، يعنى صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبى عليه السلام بعقلك ، فانه مربى عقلك ، كما أن الوالد مربى جسمك .

ثم قال تعالى ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

لما قال (فأنبئكم بما كنتم تعملون) وقع لابنه أن مايفعل فى خفية يخفى فقال (يا بنى إنها) أى الحسنة والسيئة إن كانت فى الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلٰوةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «١٧»

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فتكن) بالفاء لإفادة الاجتماع يعنى إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية فى موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قيل الصخرة لابد من أن تكون فى السموات أو فى الأرض فما الفائدة فى ذكرها ؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا فى أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لافى الأرض ولا فى السماء (والثانى) ما قاله الزمخشرى وهو أن فيه إضماراً تقديره فتكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الأرض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام فى مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثانى فلما بينتم أن من قال هذا فى دار زيد أو فى غيرها أو فى دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة فى قوله أو فى غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا فى دار زيد أو فى دار عمرو أو فى غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشىء يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون فى ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فان انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً فى ضوء من غير حجاب فلا يخفى فى العادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر وقوله (فتكن فى صخرة) اشارة إلى الحجاب وقوله (أو فى السموات) إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله (أو فى الأرض) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشىء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشىء ويظهره لغيره فقوله (يأت بها الله) أى يظهرها الله للأشهاد وقوله (إن الله لطيف) أى نافذ القدرة (خبير) أى عالم ببواطن الأمور .

ثم قال تعالى ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت فى سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت .

ثم قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى إذا كملت أنت فى نفسك بعبادة الله فكمل

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ «١٨»

غيرك ، فان شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فان قال قائل كيف قدم فى وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر ، وقيل قدم النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف فانه أول ماقال (يابنى لا تشرك) ثم قال (يابنى أقم الصلاة) ؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف ، فان المشرك بالله لايكون نافياً لله فى الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد فى التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمره أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ، ثم قال تعالى (واصبر على ما أصابك) يعنى أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه ، وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أى من الأمور الواجبة المعزومة أى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما تقول أكلى فى النهار رغيف خبز أى مأكولى .

ثم قال تعالى ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختار فخور ﴾ .

لما أمره بأن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال (ولا تصعر خدك للناس) تكبراً (ولا تمش فى الأرض مرحا) تبختراً (إن الله لايحب كل مختال) يعنى من يكون به خيلاء وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (فخور) يعنى من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه ، وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أقم الصلاة) ثم قال (وأمر بالمعروف) وفى النهى قدم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال (ولا تصعر خدك) ثم قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) لأن فى طرف الإثبات من لا يكون كاملا لايمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال ، وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لأنه لايتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخترا فى نفسه قد لايتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر ، لأنه لو قد نفى التبختر للزم منه نفى التكبر فلا يحتاج إلى النهى عنه ، ومثاله أنه لايجوز أن يقال لاتفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ويجوز أن يقال لا تأكل

وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ «١٩»

ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول أن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحداً .

ثم قال تعالى ﴿واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لما قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال (واقصد فى مشيك) أى كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفى الآية مسائل :

﴿الأولى﴾ هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد فى المشى ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفى كلام الله من الفوائد مالا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه (الأول) هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى ، فان عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً إليه فإن عجز عن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر (الثانى) هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أصلح ضميرك فان الله خبير ، بقى الأمران فقال (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى التوسط فى الأفعال والأقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد فى الأوصاف الانسانية والأوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه .فقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إشارة إلى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشىء ولا ينهاه عن شىء . وقوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا) الذى هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم ، وقوله (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وفيه مسائل :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ «٢٠»

﴿ الأولى ﴾ لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى ، نقول أما على قولنا إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشى إليه فذاك ، وإلا فيوقفه بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن . وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو إن كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشى يؤذى آلة المشى . والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فان الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى ، وأما على قولنا الاشارة بالشىء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وماذكرتم فى أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب (الثانى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه ، بمعنى أشدها طاعة فان أفعل لا يجىء فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب إلا ماشذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول ، وأحمق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشىء فهو منكر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح ، وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ، وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

لما استدل بقوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) على الوحدانية ، وبين بحكاية لقمان أن

معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلا عن أنه على وفق الحكمة ، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلاعمد وإلقائه فى الأرض الرواسى . وذكر بعض النعم بقوله (وأنزلنا من السماء ماء) ذكر بعده عامة النعم فقال (سخر لكم ما فى السموات) أى سخر لأجلكم ما فى السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما فى الأرض لأجل عباده ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) وهى مافى الأعضاء من السلامة (وباطنة) وهى مافى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألاترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله (مافى السموات وما فى الأرض) يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) يكون إشارة إلى النعم الأنفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع كتب التفاسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولا منقولا ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولا .

ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله) يعنى لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون فى كتاب والذى يكون من إلهام ووحى ، فقال تعالى (يجادل) ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتى من لدنه علماً كما قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم) (والثانى) إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى (علمه شديد القوى) (والثالث) إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال فى هذه السورة (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى السجدة (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) فالكتاب هدى لقوم النبى عليه السلام ، والنبى هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفاً ، ولا بهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظا . ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال فى الكتاب (ولا كتاب منير) لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ «٢١» وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ «٢٢»

ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فان بعض ما يقولون فهو فى كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال (ولا كتاب منير) فان ذلك الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل فى المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك .

ثم قال [تعالى﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

قوله] تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون بكلام آبائهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم إن ههنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ، ويحتمل أن يكون حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً فى اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول ، فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) استفهاماً على سبيل التعجب فى الإنكار يعنى الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا يتبعون الشيطان . ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله (ومن يسلم وجهه إلى الله) إشارة إلى الإيمان وقوله (وهو محسن) إشارة إلى العمل الصالح فتكون الآية فى معنى قوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات وفى الآية مسائل :

﴿الأولى﴾ قال ههنا (ومن يسلم وجهه إلى الله) وقال فى سورة البقرة (بلى من أسلم وجهه لله) فعدى ههنا بإلى وهناك باللام ، قال الزمخشرى معنى قوله (أسلم لله) أى جعل نفسه لله سالماً أى خالصاً

وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٢٣» نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ «٢٤»

والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله (يسلم وجهه إلى الله) يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزاد عليه و يقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهى إليك أى توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشئ قبل الوصول وقوله (أسلمت وجهى لك) لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) فقال الله رداً عليهم (تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم) ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) أى أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلا تدخلون [النار] ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التى هى الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذى ليس له أمر إلا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله (فله أجره عند ربه) وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة . ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى (وإلى الله عاقبة الأمور) يعنى استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شئ عاقبته إليه فاذا حصل فى الحال ما إليه عاقبته فى عاقبته فى غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .

ثم قال تعالى ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ونمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال (ومن كفر فلا يحزنك) أى لا تحزن إذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب(١) المكذب على الزيادة فى التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره ، فان المرجع إلى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله (إن الله عليم بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم

(١) فى الطبعة الأميرية «بل قد يوثب» وما اثبته الأقرب إلى المعنى والأظهر إن شاء الله .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٢٥» لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ «٢٦»

فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هى المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال (نمتعهم قليلا) أى بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله (ثم نضطرهم) أى نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) .

ثم قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾

الآية متعلقة بما قبلها من جهين (أحدهما) أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد كله لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما فى السموات والأرض ، وكون الحمد كله لله يقتضى أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا (والثانى) أن الله تعالى لما سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم) أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خالق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك (فقل الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذبيك (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد أن له عطاء ومنعاً فكذلك ههنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد كله لله ، والثانى أبلغ لأن قول القائل : فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيداً ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

ثم قال تعالى ﴿لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد﴾

وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٢٧» مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ «٢٨»

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلا وشرعا ، أما عقلا فلأن مافى السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلا لأنها ممكنة ، والممكن لايقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنه أو بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعاً فلأن من يملك أرضا وحصل منها شىء ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما فى السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذاكان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله . ثم قوله تعالى (إن الله هو الغنى الحميد) فيه معان لطيفة (أحدها) أن الكل لله وهوغير محتاج إليه غيرمنتفع به وفيهامنافع فهى لكم خلقها فهوغنى لعدم حاجته حميدمشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال إنه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد فى نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات ومافيها والأرض ومافيها اذاكانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى إلا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون الحميدالمطلق إلاالغنى المطلق فهوالحميد ، وعلى هذا [يكون] الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف ، أى وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له .

ثم قال تعالى﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾

لما قال تعالى (لله ما فى السموات والأرض) وكان ذلك موهماً لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) ويكتب بها والأبحر مداد لاتفنى عجائب صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز . يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء فى حق المريض

هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة فى اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شىء فى التوراة ولم يبق شىء لم يذكره ، فقال الذى فى التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت فى واحد قال للنبى عليه السلام إنك تقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وتقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت رداً على الكفار حيث قالوا بأن مايورده محمد سينفد ، فقال إنه كلام الله وهو لا ينفد . وما ذكر من أسباب النزول ينافى ماذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التى ذكرتموها وهى متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافى هذا ، لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأنا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهى من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذى هو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذى فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف (الأولى) قال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما فى الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أن ما فى الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعنى ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله (يمده من بعده سبعة أبحر) إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعنى لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله (سبعة) ليس لانحصارها فى سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرة ولو بألف بحر ، والسبعة خصصت بالذكر من بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر فى سبعة أقاليم والزمان فى سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون اليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير (الثانى) هو أن الآحاد إلى العشرة وهى العقد الأول وما بعده يبتدىء من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الإسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فاذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التى هو العدد الأصلى تبقى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «٢٩»

السبعة القسم الأكثر ، فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فإن المعدودات فى العبادات من التسبيحات فى الانتقالات فى الصلوات ثلاثة ، والمرار فى الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاء بالقسم الأول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام « المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة أمعاء» إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم فى العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الأقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) بينا أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله فى البحر (والبحر يمده سبعة أبحر) إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى (والثانى) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد .

ثم قال تعالى (إن الله عزيز حكيم) لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى مايحقق ذلك فقال (إنه عزيز حكيم) أى كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لاتصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففى علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفد مافى علمه وقدرته .

ثم قال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر مايبطل[١] استبعادهم للمعشر وقال(ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى (إن الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

(١) فى النسخة الأميرية « يباطل » وهو تصحيف .

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) على وجه العموم ذكر منها بعض ماهو فيهما على وجه الخصوص بقوله (يولج الليل فى النهار) وقوله (وسخر الشمس والقمر) إشارة إلى مافى السموات ، وقوله بعد هذا (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) إشارة إلى مافى الأرض . ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول (وما يهلكنا إلا الدهر) والدهر هو الليالى والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالى والأيام التى تنسبون إليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ثم إن قائلا لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس(١) التى هى فوق الأرض أكثر من التى تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى إن كنتم لا تعترفون بأن هذه الأشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ إيلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد إيلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد إيلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً فى النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لا بد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال فى الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لأن الثانى يجعل الظرف مظروفاً . إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى (يولج الليل فى النهار) أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقوله (وجعل الظلمات والنور) وقوله (واختلاف الليل والنهار) ومن جنسه قوله (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشىء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول مايتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شىء ، ويترتب عليه مقتضاه

(١) فى النسخة الأميرية : تكون النفوس ، وهى لا معنى لها ولعل ما ذكرته هو الصواب .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ «٣٠»

لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعيش فى السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت[1] على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل ، فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ماتطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (يولج) بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لأن إيلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذى لا يكون عجيباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماتعلق قوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) بما تقدم ؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن مايقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألم تر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لافائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ، ولماذا تقصيرك . فقوله (ألم تر) يكون خطاباً من ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله (إن الله هو الغنى الحميد) وقوله (إن الله عزيز حكيم) وقوله (إن الله سميع بصير) وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله (مانفدت كلمات الله) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وعلى الجملة فقوله (هو الغنى) إشارة إلى كل صفة سلبية فانه إذا كان غنياً لا يكون عرضاً محتاجا إلى الجوهر فى القوام ، ولا جسما محتاجاً إلى الحيز فى الدوام ، ولا شيئاً من

(١) فى النسخة الأميريه « وما ينبت » ولعل ما ذكرته هو الأولى .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ «٣١»

الممكنات المحتاجة الى الموجد ، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت ، فان المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً اليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لا نقص فيه .

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ماينبغى أن يكون له كالصبى والمريض والأعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالإنسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام « لو دنوت أنملة لاحترقت » لقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وفوق التمام) هو الذى حصل له ماجاز له وحصل لما عداه ماجاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله (هو الحق) إشارة إلى التمام وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) أى فوق التمام وقوله (وهو العلى) أى فى صفاته وقوله (الكبير) أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسما فى مكان لأنه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل مايتصور .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله (الفلك تجرى) إشارة إلى المسبب وقوله (بنعمت الله) إشارة إلى السبب أى إلى الريح التى هى بأمر الله (ليريكم من آياته) يعنى يريكم بإجرائها بنعمته (من آياته) أى بعض آياته ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ «٣٢»

صبار شكور) صبار فى الشدة شكور فى الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» إشارة إلى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام « الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف » .

ثم قال تعالى ﴿ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور ﴾ .

لما ذكر الله أن فى ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن فى بصره ضعف لايدركه أولا ، فاذا غشيه موج ووقع فى شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصاً أى يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه ، فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله (فمنهم مقتصد) وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (موج كالظلل) وحد الموج وجمع الظلل ، وقيل فى معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة الى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت فى الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى العنكبوت (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله) ثم قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا (أمراً عظيما) وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد فى الإخلاص فبقى معه شىء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما يجحد بآياتنا) فى مقابلة قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات) يعنى يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور فى موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار ، فانه يصبر ويفوض الأمر إلى الله ، وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ «٢٣»

العهد فينقضه ، وأما أن الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فان من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكده بقوله (لا يجزى والد عن ولده) وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه ويقضى ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف ، مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهى أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة ، فان من يريد إحضار والد أحد عند وال أوقاض يهون على الإبن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فاذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله (لا يجزى والد عن ولده) فى دفع الآلام (ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) فى دفع الاهانة ، وفى قوله (لا يجزى) وقوله (ولا مولود هو جاز) (لطيفة أخرى) وهى أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ، اذا علمت هذا فنقول الإبن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد (ولا مولود هو جاز) .

ثم قال تعالى (إن وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقاً لليوم يعنى

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ «٣٤»

اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء يعنى (لا يجزى والد عن ولده) لأن الله وعد به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ووعد الله حق ، فلا يجزى والأول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعنى إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع [ذلك] اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا [بها] وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فنهاهم عن الأمرين وقال كونوا قسما ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا فى الأعين .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله (اخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) وذكر أنه كائن بقوله (إن وعد الله حق) كأن قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مراراً على البعث (أحدهما) إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) وقال تعالى (ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال (وهو الذى ينزل الغيث) وقال (ويحيي الأرض)

(وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) وقال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) إلى غير ذلك فقال ههنا (ويعلم ما فى الأرحام) إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق فى الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ، ثم قال لذلك الطالب علمه : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فانك لا تعلم معاشك ومعادك . ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكى تكون فى وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الأرض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها ، فاذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهى الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمت الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى (إن الله عليم خبير) لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله (إن الله عنده علم الساعة) ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شىء ، وليس علمه علما بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب .

﴿ سـورة السجدة ﴾

وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم
وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم «١» تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ «٢» أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ «٣»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾

لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال (الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه) وقد علم ما فى قوله (الم) وفى قوله (لا ريب فيه) من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال (من رب العالمين) وقال من قبل (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى البقرة (هدى للمتقين) وذلك لأن من يرى كتابا عند غيره ، فأول ماتصير النفس طالبة تطلب مافى الكتاب فيقول ماهذا الكتاب ؟ فإذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو؟ ولا يقال أولا : هذا الكتاب تصنيف من ؟ثم يقول فيماذا هو ؟ إذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته .

ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾

يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف قال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) مع أن النذر سبقوه (الجواب) من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول ، أما المنقول فهو أن قريشاً كانت أمة أمية لم يأتيهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد ، فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ « ٤ »

أنبياء بنى إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع ؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم ، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبى أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم ، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتنذر قوماً ما أتاهم) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ماعداه فقوله (لتنذر قوماً ماأتاهم) يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذيرفلايكون الكتاب منزلا إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا إليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لايوجب نفى ماعداه (والثانى) أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره فى أن التخصيص إن كان له سبب غير نفى ماعداه لايوجب نفى ماعداه ، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى ، ألا ترى أنه تعالى قال (وأنذر عشيرتك الأقربين) ولم يفهم منه أنه لاينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى ، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك (الثالث) هو أن على ما ذكرنا لايرد ماذكره أصلا ، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء ، وبهذا يتبين حسن مااخترناه ، وقوله (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجياً أنت اهتداءهم .

ثم قال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ .

لما ذكر الرسالة بين ماعلى الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل ، فقال (الله الذى

خلق السموات والأرض) الله مبتدأ وخـبره الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولـكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات مابينهما وإلى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء على ستة أحوال . وإنما ذكر الايام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل مايقول القائل لغيره : إن يوماً ولدت فيه كان يوماً مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته .

ثم قال تعالى (ثم استوى على العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هـذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض إلى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والأول أسلم والى الحـكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لايـكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لايعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ،وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لـكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واجب ، ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة (إن الله عنده علم الساعة) فـكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، وصفة الاستواء ممالايجب العلم بهافمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطىء فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية مايلزمه أنه لايعلم ، والثانى يكادأن يقع فى أن يكون جاهلا مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والـكذب ولا يشك أحد فى أن السكوت خير من الـكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحـكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لايأتى على جميع ماأتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً مانرى أن الإنسان يورد الإشـكالات على المصنف المتقدم ثم يجىء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا وإذا كان حال الـكتب الحادثة التى تـكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالـكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل أنى علمت كل سر فى هذا الـكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الـكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك ، فـكيف من يدعى أنه علم كل ما فى كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان الى

وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن مالا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن فى القرآن مالا يعلم ، وهذا أقرب الى ذلك الذى لايعلم ، للتشابه البالغ الذى فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض مايعلمه قطعاً أنه ليس بمراد ، وهذا لأن قائلا إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لايريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وانما المراد منحصر فى الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ماىوجب نقصاً فى ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى) خطر ومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والأول جهل محض والثانى يجوز أن يكون جهلا والأول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفراً ، والثانى وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلا وبدعة وكفراً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيداً الذى هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، ومما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسى فى العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض فى غاية العظمة ، عبر بما ينبىء فى العرف عن العظمة ، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى (إنا خلقنا ، وإنا زينا ، ونحن أقرب ، ونحن نزلنا) أيظن أو يشك مسلم فى أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا ، غير أن العظيم فى العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم فى العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه فى مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمنى وأنعم على مراراً ، ويحكى عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفنى ولا كنت فعلت معه ما يجازينى

بهذا ، فنقول ثم للحكاية لا للمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا . أما النقل فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه . وأما الاستعمال فقول القائل :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فانه أعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والأرض (والوجه الثالث) قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه فى مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأى فى مكان وهو الخروج ، لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه فى مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان ، فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أو لا يجوز ، فإذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان ، فجواز كونه فى مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشيء على نفسه وهو محال ، ثم الذى يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى (وإن الله لهو الغنى) وهذا يقتضى أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه فى استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان ، فجاز عليه أن لا يكون فى مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى (وهو معكم) ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت فى متمكنين يفهم منهما اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله فى مكان ونحن متمكنون ، فقوله (إن الله معنا) وقوله (وهو معكم) كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى ، أى بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لأشرف فى الهلاك ولأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شيء منها ولا أكل

حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا نقول فى استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولو كان فى مكان لأحاط به المكان وحينئذ فإما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثانى بالاتفاق لأن القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالإجماع ، وان كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الأبصار . وأما إذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار . أما إذا لم ير فظاهر . وأما إذا رؤى فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه . وانما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه فى مكان ، كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون فى مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فيصير فلسفياً يقول بقدم سماء من السموات (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضى إلى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فإما أن يكون فى الأزل ساكناً أو متحركا لأنهما فرعا الحصول فى مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الأزل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

ثم قال تعالى ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والأرض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا باذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى (أفلا تتذكرون) ماعلمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ «٥»

ثم قال تعالى ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾.

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ، وقوله تعالى (ثم يعرج إليه) معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر . وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه : (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة (ثانيها) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة) يعنى (يدبر الأمر) فى زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه ، وكم تكون سنة منه ، وكم يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر ، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون فى الخمسين أكثر ونبين فائدتها فى موضعها إن شاء الله تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر فى هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وأشار إلى دوامه بلفظ يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره . واعلم أن ظاهر قوله (يدبر الأمر) فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ، ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل . فإن الملك إذا كان آمراً ناهياً يطاع فى أمره ونهيه ، ولكن يكون

ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «٦» الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ «٧» ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ «٧»

غافلا لا يكون مهيباً عظيما كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لاتخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله (خلق السموات) وعالم الأرواح بقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال (عالم الغيب) يعلم ما فى الأرواح (والشهادة) يعلم ما فى الأجسام أونقول قال (عالم الغيب) إشارة إلى مالم يكن بعد (والشهادة) إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما) وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله (الذى أحسن كل شىء) يعنى أحسن كل شىء مما ذكره وبين أن الذى بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ماينبغى صلابة الأرض للنبات والنبات وسلاسة[1] الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشىء هناك يقبل الاحتراق وقوله (وبدأ خلق الإنسان من طين) قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين .

قوله تعالى ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثانى هو أن أصله من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هى من ماء مهين ، فان قال قائل التفسير الثانى غير صحيح لأن قوله (بدأ خلق الإنسان) ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لا بل التفسير الثانى أقرب إلى الترتيب اللفظى فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء فى خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم

(١) فى الطبعة الأميرية : وسلالة الهواء ، وهى فيما أظن محرفة عما أثبته لأن السلاسة للهواء أنسب .

ثُمَّ سَوَّيهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ «٩»

يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر) ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله (ثم جعل نسله ثم سواه) أى كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً، وقوله تعالى (ونفخ فيه من روحه) إضافة الروح إلى نفسه كاضافة البيت إليه للتشريف، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله (ونفخ فيه من روحه) أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وفيه مسائل:

﴿الأولى﴾ قال وجعل لكم مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحى فلما قال (ونفخ فيه من روحه) خاطبه من بعده وقال جعل لكم، فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهى كون الإنسان طيناً ثم ماء مهيناً ثم خلقاً مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض.

﴿المسألة الثانية﴾ الترتيب فى السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة، وذلك لأن الإنسان يسمع أولا من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً، فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية.

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الاسم، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ «١٠»

واحد فإن الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين ، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى مايريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة ، فذكر القوة فى الأذن وفى العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته ،فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الأبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته ، فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الأبصار والأفئدة الاسم الذى هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ماهو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب فى تأخير الأبصار مع أنها فى الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض إنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ لما قال (قليلا ما تشكرون) بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، فى كلامه القديم ، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله (تنزيل الكتاب) إلى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وذكر الوحدانية بقوله (الله الذى خلق) إلى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفيه مسائل :

قُلْ يَتَوَفَّيكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ «١١»

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو للعطف على ماسبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم إياه فى الحشر ، وقالوا بلفظ الماضى ، وذلك لأن تكذيبهم إياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه ، وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آبائهم فقال وقالوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى صرح بذكر قولهم فى الرسالة حيث قال (أم يقولون) وفى الحشر حيث قال (وقال أئذا) ولم يصرح بذكر قولهم فى الواحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين فى جميع الأحوال على انكار الحشر والرسول ، وأما الواحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ، ألا ترى أن الله تعالى قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه فى الظاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الواحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول فى الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال (ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وكذلك خلق السموات كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى)

وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) إضراب عن الأول يعنى ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فانهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب .

فقال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله (ثم إلى ربكم ترجعون) وقوله (الذى وكل بكم) إشارة إلى أنه لايغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لايؤخركم إذ لاشغل له إلا هذا وقوله (يتوفاكم ملك الموت) ينبىء عن بقاء الأرواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله

وَلَوْ تَرَى إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ «١٢»

المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم ، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته ، والحكماء يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به ، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فإن أرادوا ماذكرنا فقد وافقونا وإلا فيغير النظر فى ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غير حق ، فان قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ماعدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لابعد فيه ، وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً ، فقوله (قل يتوفاكم ملك الموت) أى الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها .

ثم قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم) يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً ، وقوله (ترى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ، ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصا ، وقوله (عند ربهم) لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب ، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة .

ثم قال تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا) يعنى يقولون أو قائلين (ربنا أبصرنا) وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وقوله (ربنا أبصرنا وسمعنا) أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ، وقولهم (إنا موقنون) معناه إنا فى الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ، ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل ، وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا (وما كنا مشركين) فقالوا إن هذا الذى جرى علينا ماجرى إلا بسبب ترك العمل الصالح . وأما الإيمان فانا موقنون وماأشركنا .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّـةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ «١٣»

ثم قال تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولـكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جواباً عن قولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وبيانه هو أنه تعالى قال إنى لو أرجعتكم إلى الايمـان لهديتكم فى الدنيا ولمـا لم أهدكم تبين أنى ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله (ولو شئنا لآتينا) صريح فى أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الايمـان من الكافر وما شاء منه إلا الـكفر ، ثم قال تعالى(ولـكن حق القول منى لأملأن جهنم) أى وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس(لأملأن جهنم منك وممن تبعك)هذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلا خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحـكمة لابحيث تحمله تلك الحـكمة على الفعل ؟ وإذا علم أن فعله لايخلو عن الحـكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لاتدرك على سبيل التفصيل لـكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون فى العالم وفساد فحـكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان ، إذا علم هذا فخلق الله عالمـا فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالمـا فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلى الذى هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لـكنه من القسم الأول الذى خيره غالب . فانك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولـكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لايكون فيـه شر أصلا من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لا يمـكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية مافى الباب أن الـكفر يحبط خيره ولا ينفعه : إنمـا يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجـد كافر لا يسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره ، وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الـكثير لأجل الشر القليل لا يناسب الحـكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لـكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك و كذلك

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «١٤»

الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فإذا انظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذى يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى فى جوابهم (إنى أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير ، ثم بين لهم خيره بالتعليم ، كما قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة . وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب ، فقوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها) إشارة إلى الشر ، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله (وعلم آدم الأسماء) فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر ، لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول ، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة ، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة ، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير ، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير فى القضاء والشر فى القدر ، فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ، وقوله (من الجنة والناس) لأنه تعالى قال لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) وهذا إشارة إلى أن النار لمن فى العالم السفلى ، والذين فى العالم العلوى مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة ، وهذا يقتضى أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح . وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيداً وهو الظاهر (والثانى) أن يكون حالا ، أى مجموعين ، فان قيل كيف جعل جميع الإنس والجن بما يملأ بهم النار ؟ نقول هذا لبيان الجنس ، أى جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناً للملائكة ، ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس ، فان قيل فهذا يقتضى أن تكون جهنم ضيقة تمتلىء ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله أعلم . ولما بين الله تعالى بقوله (ولو شئنا لآتينا) أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم .

قوله تعالى ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ «١٥» تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ «١٦»

وفى تفسير الآية مسائل :

﴿ المسأله الأولى ﴾ قوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء) لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا ، أى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله (ألست بربكم قالوا بلى) أو بما فى الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله (نسيتم) أى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا فى المعلوم أولا إذا جهل آخراً نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون إشارة إلى اليوم ، أى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، إى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون إشارة إلى العذاب ، أى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسى قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر مايلزم من تركه إياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)

﴿ ثم قال تعالى إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإنما ينساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجداً له ، يعنى انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لايستكبرون ، يعنى وكان قلبه خاشعاً لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عباده فهو المؤمن حقاً .

ثم قال تعالى﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعنى بالليل قليلا مايهجعون وقوله (يدعون ربهم) أى يصلون ، فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافى الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٧»

لأنه قال بعده (ومما رزقناهم ينفقون) وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وقوله (خوفاً وطمعاً) يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا ، أى خائفين طامعين كقولك جاءنى زوراً أى زائرين ، وكأن فى الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى (إذا ذكروا بها خروا) فانه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع . وفى الآية الثانية إشارة الى المرتبتين الأخيرتين وهى العبادة خوفاً كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً فى بره ، ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم .

ثم قال تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾

يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال إن هذا لا يدخل فى عينى ، يعنى عينى تطلع إلى غيره، فاذا لم يبق تطلع للعين إلى شىء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهى أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فلله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلا لا أطلب عليه جزاء ، فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شىء لأنى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذى أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتى بحسنة فيقول الله إنى أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازيه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى إلى المهدى عوضاً فرآه المهدى الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ «١٨» أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٩» وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ «٢٠»

عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب ، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضاً يقول المهدى هذا عوض ما أهديت اليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكاليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما يعبده فى الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها.

ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى (نزلا) إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطى الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله (بما كانوا يعملون) يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها) إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الايمان أثر . أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله فى حق المؤمنين (لهم) بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٢١»

له استرداده بحكم قوله وكذلك فى قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان فى علمه أنه يخرجه منها قال (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولم يقل لكما الجنة وفى الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال (لكم الجنة) و(لهم جنات) وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا) إشارة إلى معنى حكمى ، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الانسان إذا وضع يده فى ماء بارد يتألم من البرد ، فاذا صبر زماناً طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم فى كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم فى الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثيراً ، ثم إنهم فى الآخرة كما فى الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ليس مقتصراً على تكذيبهم الذى كان فى الدنيا بل (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتم به من قبل ، أما فى الدنيا بقولكم لا عذاب فى الآخرة ، وأما فى الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه .

ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ ولنذيقنهم من العــذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا . فان عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فان العذاب الشديد فى الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب فى غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد ، وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) فى مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر فى مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة فى مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل فى عذاب الدنيا أمران : (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضاً أمران (أحدهما) أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب فى عذاب الدنيا هو الذى يصلح

للتخويف به ، فان العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال فى عذاب الدنيا (العذاب الأدنى) ليحترز العاقل عنه ولو قال (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ماكان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل مايحصل بوصفه بالكبر ، وبالجملة فقد اختار الله تعالى فى العذابين الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لعلهم يرجعون) لعل هذه الترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى (إنا نسيناكم) يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت إليه أصلا ، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ، ونزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان اتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان فى موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك فى صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلا نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، ويصحح قولنا قوله تعالى فى حق إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى (وارجوا اليوم الآخر) مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول فى كل صورة قال الله تعالى (لعلهم) فان نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلا بما يكون غاية ما فى الباب أن الرجاء فى أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق فى حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز فى حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجى فى حقه على ما ذكرنا من المعنى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ «٢٢» وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ «٢٣» وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ «٢٤»

ثم قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ، ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾

قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما قال تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) أى دليلك الله لا تحتاج يانير الباطن إلى دليل على الله ، ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فالأول الذى لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذى إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته ، فان الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) .

ثم قال تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) أى لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر .

ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى ﷺ ووجود من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٢٥» أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ «٢٦»

بالمجمع عليه ، وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبى عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت ، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهى أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا) ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾

قوله (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون) كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقاً وسبيل الحق واحد ، فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغى أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فان المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما فى الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا أن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ «٢٧» وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٢٨» قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ «٢٩»

من نذير من قبلك) ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم) وقوله (يمشون فى مساكنهم) زيادة إبانة ، أى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشىء ويفهمه .

ثم قال تعالى ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾

قوله تعالى (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الارض الجزر) لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات . ثم قال تعالى (فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الأنعام على الأنفس فى الأكل لوجوه (أحدها) أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه . وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان (الثالث) إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب . والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة . ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فانها كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتنذر قوماً) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وقوله (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) وفى آخر السورة ذكره بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا نسوق) وذكر الحشر فى أولها بقوله (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله (ويقولون متى هذا الفتح) .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ «٣٠»

قوله تعالى ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ أى لا يقبل إيمانهم فى تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أى لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم . قال تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال . وقوله (وانتظر إنهم منتظرون) يحتمل وجوهاً (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبى ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا (فأتنا بما تعدنا ، وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .

﴿ سورة الأحزاب ﴾

(سبعون وثلاث آيات وهى مدنية بإجماع)

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى إتق الله ﴾ . فى تفسير الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الفرق بين النداء والمنادى بقوله يارجل ويا أيها الرجل ، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً وينبىء عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى (أما الثانى) فمذكور (وأما الأول) فلأن قوله (يا أى) جعل المنادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادى فاذا خص واحداً كان فى ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور إذا علم هذا فنقول (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبى لأن قوله (النبى) ينافى الغفلة لأن النبى عليه السلام خبير فلا يكو غافلا فيجب حمله على خطر الخطب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأمر بالشىء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبى عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ، ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم ، أى دم على ما أنت عليه (والثانى) وهو معقول لطيف ، وهو أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثانى ، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام فى الدنيا . وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمى فى الدنيا تارة مع الله ، وأخرى مقبل على مالا بد منه ، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كأنى منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثانى) هو أن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ماهو فيه تركا للافضل ، فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله (اتق الله) على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة السلام بقوله

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا «١»

«من استوى يوماه فهو مغبون» ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه بزيادة العلم حيث قال (وقل رب زدنى علماً) وأيضاً إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئاً ، إذا علم هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم بحكم (إنما أنا بشر مثلكم) كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له ، فى (يا أيها النبى) أنت ما بقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى ، مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لا يقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه ، فكذلك النبى عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيداً أو عمراً خف عمراً فان زيداً لا يقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمراً بالخوف من عمرو فانه يخافه وإنما يكون ذلك نهياً عن الخوف من زيد فى ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيداً .

ثم قوله تعالى ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ يقرر قولنا أى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لا يطيع أحداً غير الله ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن ذكر الغير لا حاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبى عليه الصلاة والسلام الاتباع ، ولا يتوقع أن يصير النبى عليه السلام مطيعاً له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعا (والثانى) هو أنه تعالى لما قال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبى عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأمر أمر إيجاب معتقداً على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغى تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم ، وقوله (حكيما) إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال إذا قال الله شيئاً وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبى عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهاً معقولا . فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا «٢» وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا «٣» مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ «٤»

تعالى إنه حكيم ولا تكون المصلحة إلا فى قول الحكيم ، فاذا أمرك الله بشىء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه .

وقوله تعالى ﴿ واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بماتعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ .

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ، ثم قال تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيراً) لما قال إنه عليم بما فى قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم . ثم قال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعاً ينفع ولا يضر معه شىء وإن ضر لا ينفع معه شىء .

ثم قال تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ماجعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين ، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) فكان ذلك أمراً له بتقوى لايكون فوقها تقوى ومن يتقى ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل فى قلبه شىء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لايكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخرة غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى أنه يتقى الله حق تقاته ، ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام أنه لاينبغى أن يتقى أحداً ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يعنى مثل تلك التقوى لاينبغى أن تدخل فى

قلبك ثم لما ذكر النبى عليه الصلاة و السلام بتلك الحالة ذكر مايدفع عنه السوء . فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى أنكم إذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى أماً بإجماع الكل ، أما فى الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء ، وأما فى الجاهلية فلأنه كان طلاقاً حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد ، فاذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة أماً كذلك قول القائل للدعى أنت ابنى لا يوجب كونه ابناً فلا تصير زوجته زوجة الإبن فلم يكن لأحد أن يقول فى ذلك شيئاً فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمراً مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحداً .

ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شىء كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب ، لأن الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه ، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز من التخلق بأخلاقها ، فقول القائل : هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لا غير ، واللطيفة هى أن الله تعالى ههنا قال (ذلكم قولكم بأفواهكم) وقال فى قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم) يعنى نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضاً فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم .

ثم قال تعالى (والله يقول الحق) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغى أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولداً وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام الفراش ونقول إنه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال ، وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم ، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله (وهو يهدى السبيل) يؤكد قوله (والله يقول الحق) يعنى يجب اتباعه لكونه حقاً ولكونه هادياً وقوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق) فيه لطيفة وهو أن الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ، ثم إن الكلام الذى بالقلب قد

ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً «٥»

يكون حقاً وقد يكون باطلا ، لأن من يقول شيئاً عن اعتقاد قد يكون مطابقاً فيكون حقاً ، وقد لا يكون فيكون باطلا ، فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقاً وقد يكون باطلا لأنه يتبع الوجود ، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون ، فإذن قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التى بأفواهكم ، فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسناً يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم .

ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير .

ثم بين الهداية وقال ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما ﴾

قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منوياً كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ثم تمم الإرشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ، ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يابنى بطريق الشفقة ، وقول القائل لغيره ياأبى بطريق التعظيم ، فإنه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو فى اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد إلى إثبات النسب سواء ، وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ماسبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاماً شافياً فى المغفرة والرحمة فى مواضع ، ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى أن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال إنه غفر له ، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه ، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء فى خيره أو عوضاً عما صدر منه آنفاً من الإحسان لا يقال رحمه ، إذا علم هذا

النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا «٦»

فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه سترعيبه ثم رآه مفلساً عاجزاً فرحمه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه.

ثم قال تعالى ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلا لو قال هب أن الأدعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابناً إذا كان لدعيه شئ حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفاً فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جواباً عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب؛ دفع حاجة الأجانب ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشى النسب ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس، والأول عرفا دون الثانى وكذلك شرعا فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجانب والثانى دون الثالث أيضاً وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطى به إحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقى بدنه، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد أن يقول له لم فعلت فضلا عن أن يقول بئسما فعلت، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذى هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا، فمن يعكس الأمر يقال له لم فعلت، وإذا تبين هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه فى برد مفرط قاصداً به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذى رأسه الذى لا نبات لشعره إلا منه، فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس

دفعاً للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبي الذى منه يتعلم كيفية العبادة فى الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس ، فتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئاً حرم على الأمة التعرض إليه فى الحكمة الواضحة .

ثم قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) تقريراً آخر ، وذلك لأن زوجة النبي ﷺ ما جعلها الله تعالى فى حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام ، فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره ، فلو قال قائل كيف قال (وأزواجه أمهاتهم) وقال من قبل (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أماً بوجه ، ولذلك قال تعالى فى موضع آخر (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة . كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد ، وإن تبين أن التى حلفت دون البلوغ أو بكر ببينة لا يحكم لها بالولد ، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزانى لا يجعل أباً لولد الزنا . إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمى قول يفهم لاعن حقيقة ولايترتب عليه حقيقة . وأما قول الشارع [فهو] حق والذى يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ، ألا ترى أن الأم ما صارت أماً إلا بخلق الله الولد فى رحمها ، ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الأم غيرها ، فاذا كان هو الذى يجعل الأم الحقيقية أماً فله أن يسمى امرأة أماً ويعطيها حكم الأمومة ، والمعقول فى جعل أزواجه أمهاتنا ، هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الإبن ، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها ، فان تزوج الإبن بمن كانت تحت الأب يفضى ذلك إلى قطع الرحم والعقوق ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء ، فإن الأب يربى فى الدنيا فحسب ، والنبي عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء ، فإن قال قائل : فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى ، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم . فنقول لحكمة ، وهى أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام ، فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ، ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولذلك فان المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ، ويجب عليه صرفه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أزواجه لهم حكم زوجات

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا «٧»

الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإن كان الكل يحرمن فى الأم الحقيقية والرضاعية .

ثم قال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) إشارة إلى الميراث ، وقوله (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم) معروفاً إشارة إلى الوصية ، يعنى إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم ، فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره ، وهو أن غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصير له مال الغير ، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته ، والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته ، كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع إليهم ، حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى أن النبى ﷺ إذا أراد شيئاً يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعنى بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبى لاتوارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو أن الله تعالى ذكر دليلا على أن النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، ثم إذا أراد أحد براً مع صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى إلا إلى من أريده ، فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ماأراده ثم مايفضل منه يكون لغيره وقوله «كان ذلك فى الكتاب مسطوراً» فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالإتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أكده بوجه آخر وقال (وإذ أخذنا من النبيين) كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل :

لِيَسْئَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا «٨» يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا «٩» إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما ، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ، ونوحاً لأنه كان أصلا ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن فى زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى كثير من المواضع يقول الله (عيسى بن مريم ، والمسيح بن مريم) إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به ، وقوله (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الإرسال كما قال تعالى (ولنسألن المرسلين) وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق ، فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة ، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) هو الإخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام «كلكم راع وكلكم مسئول» وكما أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد .

ثم قال تعالى ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ .

يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ، لأن الصادق محاسب والكافر معذب ، وهذا كما قال على عليه السلام « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله (يا أيها النبى اتق الله) .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

بِاللَّهِ الظُّنُونَا «١٠»

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾ .

تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن فى واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق ، كان الأمر فى غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى أن لايخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم ، وقوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة ، وقوله (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء ، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غيرالله فان قوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون ، فان كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله (والله بصير بما تعملون) فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره (فانه بكل شىء بصير) وقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، وقيل (من فوقكم) أى من جانب الشرق (ومن أسفل منكم) من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الأبصار أى مالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته (وبلغت القلوب الحناجر) كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقاص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى (حتى إذا بلغت الروح الحلقوم) وقوله (وتظنون بالله الظنونا) الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام « ظنوا بالله خيراً » ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وقوله (إن يتبعون إلا الظن) فان قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة فى جمع الظنون؟ فنقول لاشك فى أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال ضربته سياطاً وأدبته مراراً فكأنه قال ظننتم ظناً بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى أن الله تعالى لو قال : تظنون ظناً ، جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال : ظنوناً ، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا «١١» وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا «١٢» وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا «١٣»

وقد يكذب بعضها إذا كانت فى أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر ، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر أو حجر . وقد يكون أحدهم مصيباً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله (الظنونا) أفاد أن فيهم من أخطأ الظن ، ولو قال تظنون بالله ظناً ما كان يفيد هذا .

ثم قال تعالى ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾ .

أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق ، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء ، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله (وزلزلوا) أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى ، وهم المؤمنون حقاً

ثم قال تعالى ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ .

فسر الظنون وبينها ، فظن المنافقون أن ماقال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله (وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لامقام لكم) أى لاوجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها (ويثرب) اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد ، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله (وما هى بعورة) وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا «١٤» وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا «١٥» قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا «١٦» قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا «١٧»

ثم قال تعالى ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلا لغرض ، فاذا فاته الغرض لا يفعله ،كمن يبذل المال لـكى لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضاً ، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة ، وقوله (ولو دخلت عليهم) احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت ، وقوله (وما تلبثوا بها) يحتمل أن يكون المراد الفتنة (إلا يسيراً)فانها تزول وتـكون العاقبة للمتقين ، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ماتلبثوا بالمدينه إلا يسيراً فان المؤمنين يخرجونهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا ﴾ .

بياناً لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذراً وندماً ، وذكروا أن القتال لا يزال لهم قدماً ثم هددهم بقوله (وكان عهد الله مسئولا) وقوله (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) إشارة إلى أن الأمور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار ، وما قدره الله كائن فمن أمر بشىء إذا خالفه يبقى فى ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخالفة عاجلا ، ثم قال تعالى (وإذاً لا تمتعون إلا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه فى يومكم مع أنه غير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون إلا قليلا : فالعاقل لا يرغب فى شىء قليل مع أنه يفوت عليه شيئاً كثيراً ، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلا .

ثم قال تعالى ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا «١٨» أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا «١٩»

بياناً لما تقدم من قوله (لن ينفعكم الفرار) وقوله (ولا يجدون لهم من دون الله) تقرير لقوله (من ذا الذى يعصمكم) أى ليس لكم ولى يشفع لمحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء إذا أتاكم .

ثم قال تعالى ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم ﴾ .

أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلمن ، وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) (لا يأتون البأس) بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى (أشحة عليكم) أى بخلاء حيث لا ينفقون فى سبيل الله شيئاً (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم ، وقوله (أشحة عليكم) أى بأنفسهم وأبدانهم .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا «٢٠» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا «٢١»

فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لابدل له فيتوقف فيه، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه إخراج المال فى القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك، وأما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام، وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم، وقوله تعالى (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) أى غلبوكم بالألسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب، وقوله (أشحة على الخير) قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير فى الحالتين كثيرو الشر فى الوقتين فى الأول يبخلون، وفى الآخر كذلك.

ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظاً فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) إشارة إلى ما يكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) وذلك لأن الإحباط إعدام وإهدار، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم بتفريق أجزائه، فان من أحرق شيئاً يبقى منه رماد، وذلك لأن الرماد إن فرقته الريح يبقى منه ذرات، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد مايشاء منها، وأما العمل فهو فى العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره، فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم.

ثم قال تعالى ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾

أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع أنهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لايقاتلون كما قال تعالى

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا «٢٢» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا «٢٣» لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا «٢٤» وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا «٢٥»

(ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) .

ثم قال تعالى ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو أنهم قالوا هذا ماوعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا (وصدق الله ورسوله) فى مقابلة قولهم (ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وقولهم (وصدق الله ورسوله) ليس إشارة إلى ماوقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هى إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا (هذا ماوعدنا الله) وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله (وما زادهم إلا إيماناً) بوقوعه وتسليما عند وجوده .

ثم قال تعالى ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ، ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولى الأدبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله (إن شاء) ذلك فيمنعهم من الإيمان

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا «٢٦»

أو يتوب عليهم إن أراد . وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله (وكان الله غفوراً) حيث ستر ذنوبهم و(رحيما) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول (ويعذب المنافقين) مع أنه كان غفوراً رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) أى مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يحوجهم إلى قتال (وكان الله قوياً) غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم.

ثم قال تعالى ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾

أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى فريقاً تقتلون وهم الرجال ، وتأسرون فريقاً وهم الصبيان والنسوان ، فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقاً تقتلون وتأخيره حيث قال (وتأسرون فريقاً) فائدة ؟ قلت قد أجبنا أن ما من شىء من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر ، والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى ، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله (فريقاً تقتلون) فعل ومفعول والأصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل ، أما أنها جملة فعلية فلأنها لو كانت أسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول ، وههنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق فى قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى شَيْءٍ قَدِيرًا «٢٧» يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا «٢٨» وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا «٢٩»

الأصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يجئ بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون ، أولا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى ، وكذلك الكلام فى قوله (وأنزل الذين ظاهروهم) وقوله (وقذف) فان قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال ، ولكن لما كان الفرح فى إنزالهم أكثر ، قدم الإنزال على قذف الرعب والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديراً ﴾ .

فيه ترتيب على ما كان ، فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله (وأرضاً لم تطئوها) قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديراً)هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم(وأرضاً لم تطئوها) هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله «الصلاة وما ملكت أيمانكم » ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله (يا أيها النبى اتق الله) ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن فى النفقة ،وفى الآية مسائل فقهية منها أن التخيير

هل كان واجباً على النبي عليه السلام أم لا ؟ فنقول التخيير قولا كان واجباً من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة ، لأن الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة ، وأما التخيير معنى فمبنى على أن الأمر للوجوب أم لا ؟ والظاهر أنه للوجوب ، ومنها أن واحدة منهن لواختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقاً والظاهر أنه لا يصير فراقاً وإنما تبين المختارة نفسها بإبانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين إلا بإبانة من جهه النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا ؟ الظاهر نظراً إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب ، لأن الخلف فى الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا ، فانه لا يلزمه شرعاً الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا ، والظاهر أنها لا تحرم ، وإلا لا يكون التخيير ممكناً لها من التمتع بزينة الدنيا ، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا ؟ الظاهر الحرمة نظراً إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلا ، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب ، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا ، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبهن غاية الإلتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ، ومنها قوله عليه السلام (أسرحكن سراحاً جميلا) إشارة إلى ماذكرنا ، فان السراح الجميل مع التأذى القوى لا يجتمع فى العادة ، فعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه ، ومنها قوله (وإن كنتن تردن الله) إعلاماً لهن بأن فى اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هى الدين وقوله (أعد للمحسنات منكن) أى لمن عمل صالحاً منكن ، وقوله (تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فيه معنى الإيمان ، وقوله (للمحسنات) لبيان الإحسان حتى تكون الآية فى المعنى ، كقوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وقوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والأجر العظيم الكبير فى الذات الحسن فى الصفات الباقى فى الأوقات ، وذلك لأن العظيم فى الأجسام لا يطلق إلا على الزائد فى الطول وفى العرض وفى العمق ، حتى لو كان زائداً فى الطول يقال له طويل ، ولو كان زائداً فى العرض يقال له عريض ، وكذلك العميق ، فاذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم ، فيقال جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً فى الجهات ، وإن كان مرتفعاً فحسب يقال جبل عال ، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا فى ذاته قليل وفى صفاته غير خال عن جهة قبيح ، لما فى مأكوله من الضرر والثقل ، وكذلك فى مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم ، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم .

يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا «٣٠» وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا «٣١»

ثم قال تعالى ﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾

لما خيرهن النبى ﷺ واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبى عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التى هى أصعب على الزوج من كل ما تأتى به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (إحداهما) أن زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما فى الزنا من المفاسد وزوجة النبى تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه ، وعلى هذا بنات النبى عليه السلام كذلك ، ولأن امرأة لو كانت تحت النبى ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبى عليه السلام ، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبى وأولى ، والنبى أولى من النفس التى هى أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبى مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (ثانيتهما) أن هذا إشارة إلى شرفهن ، لأن الحرة عذابها ضعف عذاب الأمة إظهاراً لشرفها ، ونسبة النبى إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم ، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن أمهات المؤمنين ، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة ، وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته ، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبى عليه السلام كالأمة بالنسبة إلى الحرة ، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث إن ذلك ممكن الوقوع فى أول النظر ، ولا يقع فى بعض الصور جزماً ، وفى بعض يقع جزماً من مات فقد استراح ، وفى البعض يتردد السامع فى الأمرين ، فقوله تعالى (من يأت منكن بفاحشة) عندنا من القبيل الأول ، فان الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة ، وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيراً) أى ليس كونكن تحت النبى عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وإخوانهم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾

قوله تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً) بياناً لزيادة ثوابهن ، كما بين

يَانِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا «٣٢»

زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى (يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة وهى أن عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال (يضاعف) إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لا يذكر نفسه ، وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقاً كريماً) وصف رزق الآخرة بكونه كريماً ، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس ، التاجر يسترزق من السوقة ، والمعاملين والصناع من المستعملين ، والملوك من الرعية والرعية منهم ، فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه ، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار . وأما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه ، فلأجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم إلا الرزاق ، وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق .

قوله تعالى ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ﴾

ثم قال تعالى (يانساء النبى لستن كأحد من النساء) لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء ، فقال (لستن كأحد) ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس ، يعنى ليس فيه مجرد كونه إنساناً ، بل وصف أخص موجود فيه ، وهو كونه عالماً أو عاملا أو نسيباً أو حسيباً ، فان الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم ، فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيداً أو عمراً ، فكذلك قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين ، وكما أن محمداً عليه السلام ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام « لست كأحدكم » كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة .

ثم قوله تعالى (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق . ثم قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفاً) أى ذكر الله ، وما تحتجن إليه

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا «٣٣»

من الكلام والله تعالى لما قال (فلا تخضعن بالقول) ذكر بعده (وقلن) إشارة إلى أن ذلك ليس أمراً بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لاغيره .

ثم قال تعالى ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله ﴾ .

قوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) من القرار وإسقاط أحد حرفى التضعيف كما قال تعالى (فظلتم تفكهون) وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن ، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى (الجاهلية الأولى) فيه وجهان : (أحدهما) أن المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الأخرى من كان بعده (وثانيهما) أن هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل : أين الأكاسرة الجبابرة الأولى .

ثم قال تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى (لا تخضعن ، ولا تبرجن) بل فيه وفى الأوامر (فأقمن الصلاة) التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر (وآتين الزكاة) التى هى تشبه بالكريم الرحيم (وأطعن الله) أى ليس التكليف منحصراً فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل مانهى الله عنه فانتهين عنه .

ثم قال تعالى ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ .

يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به . وإنما نفعه لكن وأمره تعالى إياكن لمصلحتكن ، وقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) فيه لطيفة وهى أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت الأقوال فى أهل البيت ، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبى عليه السلام وملازمته للنبى .

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا «٣٤» إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

ثم قال تعالى ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أى القرآن (والحكمة) أى كلمات النبى عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة ، وما ذكر الله فى هذه الآية فقال (واذكرن ما يتلى) ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها ، والمحرمات بأسرها فينتهين عنها .

[وقوله] ﴿ إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ إشارة إلى أنه خبير بالبواطن ، لطيف فعلمه يصل إلى كل شىء ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة .

ثم قال تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الأولى) الاسلام والانقياد لأمر الله (والثانية) الإيمان بما يرد به أمر الله ، فان المكلف أولا يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام ، فاذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم إعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو (المرتبة الثالثة) المذكورة بقوله ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة ، والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ، ثم قال تعالى ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ أى الباذلين الأموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم إياها . ثم قال تعالى ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله . ثم قال تعالى ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية .

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا «٣٥» وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا «٣٦» وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ

ثم قال تعالى ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ يعنى هم فى جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله ، واعلم أن الله تعالى فى أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا ، وفى قوله بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال من قبل (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهى النية .

ثم قال تعالى ﴿ أعد الله لهم مغفرة ﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿ وأجراً عظيما ﴾ ذكرناه فيما تقدم .

ثم قال تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾

قيل بأن الآية نزلت فى زينب حيث أراد النبى ﷺ تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبى عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به ، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبى ﷺ لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شئ يمكنه النبى عليه السلام من ذلك ، ويترك النبى عليه السلام حق نفسه لحظ غيره ، فقال فى هذه الآية لا ينبغى أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما فى الزوجات ، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبى هو الحق ومن خالفهما فى شىء فقد ضل ضلالا مبيناً . لأن الله هو المقصد والنبى هو الهادى الموصل ، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادى فهو ضال قطعاً .

ثم قال تعالى ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى

وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا «٣٧» مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾

وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والإعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى أمسك أى لاتطلقها (واتق الله) قيل فى الطلاق ، وقيل فى الشكوى من زينب ، فان زيداً قال فيها إنها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفى فى نفسك ماالله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الإبن (والله أحق أن تخشاه) ليس إشارة إلى أن النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحداً معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً ، فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله) .

ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها) أى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لأن الزوجة مادامت فى نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج إليها ، فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان فى العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره ، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا موافق لما فى الشرع لأن التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال (فلما قضى) وكذلك قوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى إذا طلقوهن وانقضت عدتهن ، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أى مقضياً ماقضاه كائن .

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان مبيناً لشرع مشتمل على فائدة كان خالياً من المفاسد فقال:

﴿ ماكان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا «٣٨» الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا «٣٩»

قدراً مقدوراً ﴾ يعنى كان شرع من تقدمه كذلك ، كان يتزوج الأنبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كل شىء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر ، فالقضاء ماكان مقصوداً فى الأصل والقدر مايكون تابعاً له ، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه فى العرف أن يقول فى جواب من يقول لم جئت إلى هذه القرية ؟ إنى ماجئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت فى طريقى وإن كان قد جاءها ودخلها , إذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما فى العالم من الضرر بقدر ، فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهى ويغضب ، ليكون اجتهاده فى تغليب العقل والدين عليهما مثاباً عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك فى البعض إلى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصوداً منه القتل والزنا وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففى قوله تعالى أولا (وكان أمر الله مفعولا) وقوله ثانياً (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) لطيفة وهى أنه تعالى لما قال (زوجناكها) قال (وكان أمر الله مفعولا) أى تزويجنا زينب إياك كان مقصوداً متبوعا مقضياً مراعى ، ولما قال (سنة الله فى الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى كان ذلك حكما تبعياً ، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقاً بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو ، فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار فى أفعاله أو يقع شىء لا باختياره ، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أى وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل . فنقول ماكان فى مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء ، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ، ثم بين الذين خلوا بقوله :

﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾

يعنى كانوا هم أيضاً مثلك رسلا ، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحداً إلا الله) فصار كقوله (فبهداهم اقتده) وقوله (وكفى بالله حسيباً) أى محاسباً

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا «٤٠» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا «٤٠»

فلا تخش غيره أو محسوباً فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله فى حسابك .

ثم قال تعالى ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

لما بين الله ما فى تزوج النبى عليه السلام بزينب من الفوائد بين أنه كان خالياً من وجوه المفاسد ، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصراً فى التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى إن زيداً لم يكن ابناً له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد ، فان قائل النبى كان أبا أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء) والصبى داخل فيه ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل فى الاستعمال يدخل فى مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبى عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل (والثانى) هو أنه تعالى قال (من رجالكم) ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أباً عقبه بما يدل على ثبوت ما هو فى حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالأب للأمة فى الشفقة من جانبه ، وفى التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والأب ليس كذلك ، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لأن النبى الذى يكون بعده نبى إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتى بعده ، وأما من لا نبى بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى ، إذ هو كوالد لولده الذى ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شىء عليما) يعنى علمه بكل شىء دخل فيه أن لا نبى بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث إن قول النبى صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن إذا امتنع هو عنه يبقى فى بعض النفوس نفرة ، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقى فى النفوس شىء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه فى بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبى ﷺ وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) والله تعالى يأمر

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا «٤٢» هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا «٤٣» تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) كما قال لنبيه (يا أيها النبى اتق الله) .

(ثم ههنا لطيفة) وهى أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر ، أما النبى لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال (اتق الله) فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله (ذكراً كثيراً) قد ذكرنا أن الله فى كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا .

وقوله تعالى ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى إذا ذكرتموه فينبغى أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا إشارة إلى المداومة وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام « لو أن أولكم وآخركم » ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة فى العموم .

ثم قال تعالى ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ يعنى هو يصلى عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعى رضى الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير فى غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان فى العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العنايه جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجميع المؤمنين واشارة إلى أن قوله (يصلى عليكم) غير مختص بالسامعين وقت الوحى ،

ثم قال تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ لما بين الله عنايته فى الأولى بين عنايته فى الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فان من لقى غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة وقوله (يوم يلقونه) أى يوم القيامة وذلك لأن الإنسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه ، وأما فى الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء .

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا «٤٤» يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا «٤٥» وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا «٤٦»

ثم قال تعالى ﴿ وأعدلهم أجراً كريماً ﴾ لو قائل قائل الإعداد إنما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة إلى الشيء عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الإعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فاذا أراد إكرامه يهيء له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه مايرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريماً والكريم قدذكرناه فى الرزق أى أعدله أجراً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر . وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة ، كما قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقال (وكان بالمؤمنين رحيما) والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شفيقاً بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الاكرام.

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبي عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها (يا أيها النبى اتق الله) اشارة إلى ماينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله (يا أيها النبى إنا أرسلناك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى (شاهداً) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وعلى هذا فالنبى بعث شاهداً أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيداً أى مؤدياً لما تحمله (ثانيها) أنه شاهد أن لا إله إلا الله ، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبى شاهداً على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعياً فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعياً لها لأن المدعى من يقول شيئاً على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهداً له فى مجازاة كونه شاهداً لله فقال تعالى (والله يشهد أنك لرسوله) (وثالثها) أنه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله (ومبشراً ونذيراً وداعياً) فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبي عليه السلام أرسل شاهداً بقول لا إله إلا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف

ذلك يرهب بالإنذار ثم لا يكتفى بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (وسراجاً منيراً) أى مبرهناً على ما يقول مظهراً له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى (بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وفيه لطائف (إحداها) قوله تعالى (وداعياً إلى الله بإذنه) حيث لم يقل وشاهداً باذنه ومبشراً وعند الدعاء قال وداعياً باذنه ، وذلك لأن من يقول عن ملك إنه ملك الدنيا لاغيره لايحتاج فيه إلى إذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك فى ذلك ، وأما إذا قال تعالوا إلى سماطه ، واحضروا على خوانه يحتاج فيه إلى إذنه فقال تعالى (وداعياً إلى الله باذنه) ووجه آخر وهو أن النبى يقول إنى أدعو إلى الله والولى يدعو إلى الله ، والأول لا إذن له فيه من أحد ، والثانى مأذون من جهة النبى عليه السلام كما قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعوا إلى على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبداً سمع مقالتى فأداها كما سمعها » والنبى عليه السلام هو المأذون من الله فى الدعاء إليه من غير واسطة .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قال فى حق النبى عليه السلام سراجا ولم يقل إنه شمس مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائد منها ، أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شىء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الأول يبقى الذى أخذ منه ، وكذلك إن غاب والنبى عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابى أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وفى الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى أن النبى عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه ، وكذلك الصحابى إذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبى عليه السلام وفعله ، فأنوار المجتهدين كلهم من النبى عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبى عليه السلام أيضاً سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار ، وليس كذلك فان مع نص النبى عليه السلام لا يعمل بقول الصحابى فيؤخذ من النبى النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجاً وهذا يوجب ضعفاً فى حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه وفى تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك ، وسراجا منيراً عطفاً على محل الكاف أى وأرسلنا سراجاً منيراً وعلى قولنا إنه عطف على مبشراً ونذيراً يكون معناه وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفاً لأن النبى عليه السلام لم يكن سراجاً حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسداً أى شجاعاً فقوله سراجاً أى هادياً مبيناً كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا «٤٧» وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا «٤٨» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا «٤٩»

وقوله تعالى ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه ، وأما البشارة فانها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة لولا الأمر . وقوله تعالى ﴿ بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ هو مثل قوله (وأعد لهم أجراً عظيما) فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف إذا كان مع ذلك كبارة أخرى .

وقوله تعالى ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ إشارة إلى الإنذار يعني خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أي دعه إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار ، ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أي الله كاف عبده ، قال بعض المعتزلة لايجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف ، وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) يتبين إذا نظرت فى الأمور التى لأجلها لايكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قوياً قادراً على العمل كالملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ، ومنها أن لا يكون عالماً بما فيه التوكيل ، ومنها أن لايكون غنياً ، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج فيكفى وكيلا .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه ، لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدباً ذكر للمؤمنين مايناسبه ، فكما بدأ الله فى تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر مايتعلق بجانب الله بقوله (ياأيها النبي اتق الله) وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد (ياأيها النبي قل لأزواجك) وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً)

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ

كذلك بدأ فى إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) ثم كما ثلث فى تأديب النبى بجانب الأمة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) وبقوله (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى مايتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر ؟ فنقول هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ، ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لامودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الأقلام ولا تكفى لها الأوراق ، وهذا مثل قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) لو قال لاتضربهما أو لاتشتمهما ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم ، أما إذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالإحسان مع من لامودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه .

وقوله (إذا نكحتم المؤمنات) التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصيناً لدينه ، وقوله (ثم طلقتموهن) يمكن التمسك به فى أن تعليق الطلاق بالنكاح ، لا يصح لأن التطليق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم ، وهى للتراخى وقوله (فما لكم عليهن من عدة) بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى ، وقوله (تعتدونها) أى تستوفون أنتم عددها (فمتعوهن) قيل بأنه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة ، وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً ، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشىء ، وقوله تعالى (وسرحوهن سراحا جميلا) الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك

اللَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً «٥٠»

مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرت معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما ﴾.

ذكر للنبى عليه السلام ماهو الأولى فإن الزوجة التى أوتيت مهرها أطيب قلباً من التى لم تؤت ، والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه أطهر من التى اشتراها الرجل لأنها لا يدرى كيف حالها ، ومن هاجرت من أقارب النبى عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ، ومن الناس من قال بأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولا ، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبى عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له ، والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب فى المرة الأولى ، إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا ، وقال ويؤكد هذا قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى) يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها ، وقوله تعالى (إن أراد النبى أن يستنكحها) إشارة إلى أن هبتها نفسها لا بد معها من قبول وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال الشافعى رضى الله عنه معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك ، وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبداً ، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) معناه أن ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم . وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك فى السرارى ، وقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أى تكون فى فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك ، وقوله

تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا «٥١»

لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَقِيبًا «٥٢»

تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب جميعاً ويرحم العبيد .

ثم قال تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ .

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم ، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وإن لم يك نبياً فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق ، فكيف زوجات النبى عليه السلام بالنسبة إليه ، فإذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات ، والإرجاء التأخير والإيواء الضم (ومن ابتغيت ممن عزلت) يعنى إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك فى شىء من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجباً مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال المراد (ترجى من تشاء) أى تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم فى الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن ، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

يعنى إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم (تقر أعينهن) لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك ، فليلة تكون عند إحداهن تقول ماجاءنى لهوى قلبه إنما جاءنى لأمر الله وإيجابه عليه (ويرضين بما آتيتهن) من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شىء حتى لا يرضين.

ثم قال تعالى ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾ .

أى إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم ، فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل .

ثم قال تعالى ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن

إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ .

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ماجازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله (ولا أن تبدل بهن) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يحل لك النساء من بعد) قال المفسرون من بعدهن والأولى أن يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا أن تبدل بهن) يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزاً لجاز أن يطلق الكل ، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أولا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي ، وكيف وهو يقول «النكاح سنتى» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتى ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله (ولا أن تبدل بهن) منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته ، وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسألتين (إحداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن النساء قال الزمخشرى قوله (ولو أعجبك) فى معنى الحال ، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله (من أزواج) لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام ، يعنى لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها ، وهذه المسألة حكمية وهى أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء فى أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ، ففى أول الأمر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغاً لقلبه وتوسيعاً لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ، ثم لما استأنس بالوحى وبمن على لسانه الوحى نسخ ذلك ، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين ، وإما أنه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا ، فلم يبق له التفات إلى غير الله ، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلف العلماء فى أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا ؟ فقال الشافعى نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبى إلا وأحل له النساء ، وعلى هذا فالناسخ قوله (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك) إلى أن قال (وبنات عمك) وقال (وامرأة مؤمنة) على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبراً .

ثم قال تعالى (إلا ماملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل بالمملوكة ، ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وإمكان المخاصمة ، ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعاً من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد .

ثم قال تعالى (وكان الله على كل شىء رقيباً)أى حافظاً عالماً بكل شىء قادراً عليه ، لأن الحفظ لا يحصل إلا بهما .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾

لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً) بياناً لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم إن حال الأمة مع النبى على وجهين (أحدهما) فى حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبين ذلك بقوله (لا تدخلوا بيوت النبى) (وثانيهما) فى الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقوله (إلى طعام غير ناظرين إناه) أى لا تدخلوا بيوت النبى إلى طعام إلا أن يؤذن لكم .

ثم قال تعالى ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا أطعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من

بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما «٥٣»

وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾

لما بين من حال النبى أنه داع إلى الله بقوله (وداعياً إلى الله) قال ههنا لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعنى كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله (غير ناظرين) منصوب على الحال ، والعامل فيه على ما قاله الزمخشرى لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبى إلا مأذونين غير ناظرين ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام) إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم ، فلا يكون منعاً من الدخول فى غير وقت الطعام بغير الإذن ، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز ، نقول المراد هو الثانى ليعم النهى عن الدخول ، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذى إلى طعام ، نقول : قال الزمخشرى الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول فى وقته بغير إذن ، والأولى أن يقال المراد هو الثانى لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل وقوله (إلى طعام) من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ماعداه ، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله إلى غير طعامه بإذنه ، فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام ، فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقضيه فى حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام ، فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض أقرب إلى الفعل فيصير من باب (ولا تقل لهما أف) وقوله (غير ناظرين) يعنى أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) فيه لطيفة وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا لا بالدعاء ولا بالدعاء ، فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا ، وإناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله (إلا أن يؤذن) يفيد الجواز وقوله (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) يفيد الوجوب فقوله (ولكن إذا دعيتم) ليس تأكيداً بل هو يفيد فائدة جديدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يشترط فى الإذن التصريح به ، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال (إلا أن يؤذن) من غير بيان فاعل ، فالآذن إن كان الله أو النبى أو العقل المؤيد بالدليل

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا «٥٤»

جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى (أو صديقكم) وحد الصداقة لما ذكرنا ، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع فى بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أوهى محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك ، جاز الدخول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فاذا طعمتم فانتشروا) كأن بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبي عليه السلام فى عرس زينب ، والنبي عليه السلام لم يقل له شيئاً ، فوردت الآية جامعة لآداب ، منها المنع من إطالة المكث فى بيوت الناس ، وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده ، وقوله (ولا مستأنسين لحديث) قال الزمخشرى هو عطف على (غير ناظرين) مجرور ، ويحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على المعنى ، فان معنى قوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) لا تدخلوها هاجمين ، فعطف عليه (ولا مستأنسين) ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدباً وكون النبي حليما بقوله (إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق) إشارة إلى أن ذلك حق وأدب ، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبي عليه السلام ، ثم ذكر الله أدباً آخر وهو قوله (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام ، وكان فى ذلك تعذر الوصول إلى الماعون ، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب ، وقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يعنى العين روزنة القلب ، فاذا لم تر العين لا يشتهى القلب . أما إن رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر ، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه ، وقوله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله ، قال لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة ، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لايغير معناه سبب النزول ، فان المراد أن إيذاء الرسول حرام ، والتعرض لنسائه فى حياته إيذاء فلا يجوز ، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقاً . ثم أكد بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إيذاء الرسول .

ثم قال تعالى ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما ﴾ .

يعنى إن كنتم لا تؤذونه فى الحال وتعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده ، فالله عليم بذات الصدور .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله ﴿لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال ، فلم لم يستثن الرجال عن الجناح ، ولم يقل لاجناح على آبائهن ؟ فنقول قوله تعالى (فاسألوهن من وراء حجاب) أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ، ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء (وفيه لطيفة) وهى أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب ، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى ، وعند الاستثناء قال تعالى (لاجناح عليهن) عند رفع الحجاب عنهن ، فالرجال أولى بذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر ، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر . إنما الكلام فى بنى الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الأخوات ، لأن بنى الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات أبنائهم ، وبنى الأخوة آباؤهم محارم أيضاً ، ففى بنى الأخوات مفسدة ما وهى أن الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال ، فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (أحدهما) أن ذلك علم من بنى الإخوة وبنى الأخوات ، لأن من علم أن بنى الأخ للعمات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم ، وكذلك الحال فى أمر الخال (ثانيهما) أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم ، وكذلك الحال فى ابن الخال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (ولا نسائهن) مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات فى وجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ (ولا ما ملكت أيمانهن) هذا بعد الكل ، فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة ، ومن الأئمة من قال المراد من كان دون البلوغ .

وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا «٥٥» إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا «٥٦»

ثم قوله تعالى ﴿ واتقين الله ﴾ عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله ﴿ إن الله كان على كل شىء شهيداً ﴾ فى غاية الحسن فى هذا الموضع ، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته ، وذلك لأن حالته منحصرة فى اثنتين حالة خلوته ، وذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله (لا تدخلوا بيوت النبى) وحالة يكون فى ملأ . والملأ إما الملأ الأعلى ، وإما الملأ الأدنى ، أما فى الملأ الأعلى فهو محترم ، فان الله وملائكته يصلون عليه . وأما فى الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الصلاة الدعاء يقال فى اللغة صلى عليه ، أى دعا له ، وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فانه لايدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث . فقال الشافعى رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان ، وقد تقدم فى تفسير قوله (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) والذى نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله ، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال (يصلون) وفيه تعظيم النبى عليه الصلاة والسلام ، وهذا لأن إفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف ، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضاً يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان ، إذا علمت هذا ، فقال فى حق النبى عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه فى الصلاة على النبى عليه السلام كالأصل وفى الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا دليل على مذهب الشافعى لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبى عليه السلام ولا تجب فى غير التشهد فتجب فى التشهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يارسول الله ؟ فقال «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا «٥٧»

كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول الصلاة عليه ليس لحاجته إليها و إلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه ، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ، ولهذا قال عليه السلام « من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً »

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يترك الله النبى عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله (وسلموا تسليما) أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبى فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبى) .

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ فصل الأشياء بتبيين بعض أضدادها ، فبين حال مؤذى النبى ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره . ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم [بين] أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ، ولا سيما إذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده ، وقوله (فى الدنيا والآخرة) إشارة إلى بعد لا رجاء للقرب معه ، لأن المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة ، فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب وخسر ، لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه فى الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله (وأعد لهم عذاباً مهيناً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله ، لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه ، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه ، لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب ، لأنا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول ، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذى النبى عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير إشراك ، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر ، فقد آذى النبى عليه السلام غير أن الله

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا «٥٨»

تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكد العذاب بكونه مهيناً لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه فى موضع مميز ، أو أمر بضربه رجلا كبيراً يدل على أن الأمر هين ، وإن أمر بضربه على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبىء عن شدة الأمر ، فمن آذى الله ورسوله من المخلدين فى النار فيعذب عذاباً مهيناً ، وقوله (أعد لهم) للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيداً وغلا ، فان الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثانى .

ثم قال تعالى ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ .

لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه ، فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه ، لا ينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول ، كما أن إيذائى إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين فى الصداقة ، وقوله (بغير ما اكتسبوا) احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد ، فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ، ومن جلد على الزنا أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ، ويمكن أن يقال لم يؤذ أصلا لأن ذلك إصلاح حال المضروب ، وقوله (فقد احتملوا بهتانا) البهتان هو الزور وهو لا يكون إلا فى القول والإيذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمناً بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتاناً ، فنقول : المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول . وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن ، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن ، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج فى وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول ، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم ، وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج اليه فيؤذيه بالقول ، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل ، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه ما يصل اليه فيتأذى ، والوجه الثانى فى

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٥٩» لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا «٦٠»

الجواب هو أن نقول قوله بعدذلك (وإثماً مبيناً) مستدرك فكأنه قال احتمل بهتاناً إن كان بالقول وإثما مبينا كيفما كان الإيذاء، وكيفما كان فان الله خص الإيذاء القولى بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب، فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والآذان سبيله.

ثم قال تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن، أمر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه. ولما كان الايذاء القولى مختصاً بالذكر اختص بالذكر ماهو سبب الايذاء القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه، وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم، فأمر الله الحرائر بالتجلبب.

وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال المراد يعرفن أنهن لا يزنين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن. وقوله (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحماً عليكم.

وقوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا).

لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله، والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين، ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة: وهم المؤذون الله، والمؤذون الرسول، والمؤذون المؤمنين، ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة: (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سراً (والثانى) الذى

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا «٦١» سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا «٦٢» يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا «٦٣»

فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء ، وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم ولنخرجنهم من المدينة ، ثم لايجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم ، فاذا أغريناك لا يجاورونك ، (والأول) كقول القائل يخرج فلان ويقرأ إشارة إلى أمرين (والثانى) كقوله يخرج فلان ويدخل السوق ففى الأول يقرأ وإن لم يخرج وفى الثانى لا يدخل إلا إذا خرج . والاستثناء فيه لطيفة وهى أن الله تعالى وعد النبى عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته ، ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لأخلى المدينة عنهم فى ألطف آن [بقوله] كن فيكون ، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبى لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال (ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج .

ثم قال تعالى ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ .

أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ، ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون .

ثم قال تعالى ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام ، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ .

ثم قال تعالى ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت القيامة (قل إنما علمها عند الله) لا يتبين لكم ، فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت .

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا «٦٤» خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا «٦٥» يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا «٦٦» وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا «٦٧» رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا «٦٨»

ثم قال تعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ إشارة إلى التخويف ، وذلك لأن قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلانى ينبىء عن إبطاء الأمر ، ألا ترى أن من يطالب مديوناً بحقه فان استمهله شهراً أو شهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجىء فلان ، ويمكن أن يكون مجىء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا (وما يدريك لعل الساعه تكون قريباً) يعنى هى فى علم الله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً ﴾ يعنى كما أنهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله (وأعد لهم سعيراً) كما قال تعالى (لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدلهم عذاباً مهيناً خالدين فيها أبداً) مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم وقوله ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ، ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع.

ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الإنسان يدفع عن وجهه الضربة إتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطىء رأسه كى لا يصيب وجهه ، وفى الآخرة (تقلب وجوههم فى النار) فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة ، لحصول علمهم بأن الخلاص ليس إلا للمطيع . ثم يقولون (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا «٦٩»

فبدلنا الخير بالشر ، فلاجرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ، ثم إنهم يطلبون بعض التشفى بتعذيب المضلين ويقولون (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) أى بسبب ضلالهم وإضلالهم وفى قوله تعالى (ضعفين والعنهم لعناً كثيراً) معنى لطيف وهو أن الدعاء لايكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ماليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم (ضعفين) وزيادة اللعن بقولهم (لعناً كبيراً) .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾ لما بين الله تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر ، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هو دونه وهو لايورث كفراً ، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالفىء لبعض وغير ذلك فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وحديث إيذاء موسى مختلف فيه ، قال بعضهم هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب فى بدنه ، وقال بعضهم [إن] قارون قررمع امرأة فاحشة حتى تقول عند بنى إسرائيل إن موسى زنى بى فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله فى قلبها أنها صدقت ولم تقل مالقنت وبالجملة الايذاء المذكور فى القرآن كاف وهو أنهم قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) إلى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أى لاتقولوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولا تسألوا مالم يؤذن لكم فيه «وإذا أمركم الرسول بشىء فأتوا منه ما استطعتم» وقوله (فبرأه الله مما قالوا) على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذى رموه به ، وعلى ما ذكرنا (فبرأه الله مما قالوا) أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض اياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم . وقوله ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أى ذا وجاهة ومعرفة ، والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفاً بالخير، وكل أحد وإن كان عند الله معروفاً لكن المعرفة المجردة لا تكفى فى الوجاهة ، فإن من عرف غيره لكونه خادماً له وأجيراً عنده لا يقال هو وجيه عند فلان ، وإنما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا «٧٠» يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا «٧١» إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا «٧٢»

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدهم إلى ماينبغى أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديداً ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً فى الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

ثم قال تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ فطاعة الله هى طاعة الرسول ، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه يفعله الواحد اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يدا وقوله (فقد فاز فوزاً عظيما) جعله عظيما من وجهين (أحدهما) أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطاً ثم نجا منه لا يقال فاز فوزاً عظيما ، لأن العذاب الذى نجا منه لو وقع ماكان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً (والثانى) أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدى .

ثم قال تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولا ﴾

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب ، بين أن التكليف الذى وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال (إنا عرضنا الأمانة) أى التكليف وهو الأمر بخلاف مافى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه ؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الأمانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لأن من قصر فيه

فعليه الغرامة ، ومن وفرفله الكرامة. ومنهم من قال هو قول لا إله إلا الله وهو بعيد فان السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ، ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك ، والرجل والفرج واللسان ، ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم .

﴿ المسأله الثانية ﴾ فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى السموات والأرض) وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها ، (والثانى) المراد أهلوها ، ففيه إضمار تقديره : إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فأبين أن يحملنها) لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) من وجهين (أحدهما) أن هناك السجود كان فرضاً ، وههنا الأمانة كانت عرضاً (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكباراً وههنا استصغاراً استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله (وأشفقن منها) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما سبب الإشفاق ؟ نقول الأمانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالأوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار ، فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها ، فى الأول لأمانه من هلاكها ، وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان شهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع ، والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين إذ الغرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كإيداع الحيوانات التى تحتاج إلى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها ، فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج إلى تربية وتنمية .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الأشياء ؟ فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ، ولهذا قال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولا) . (والثانى) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن ، والانسان نظر إلى جانب المكلف ، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها ، وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله تعالى (إنه كان ظلوما جهولا) فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثها) إنه كان ظلوماً جهولا ، أى كان من شأنه الظلم والجهل

يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أى من شأنه ذلك ، فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقى بعضهم على ماكان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال فى حق المؤمنين عامة (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (رابعها) (إنه كان ظلوماً جهولا) فى ظن الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء) وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل ، قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية ، فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفاً يكون مكلفاً لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفاً لما أن المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفاً وفى الآية لطائف (الأولى) الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز ، بقى أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤتمن ، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان ، فالمؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ماكان لآدم من الفوز . ولهذا قال تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى (فتاب عليه) والكافر صار آخذاً للأمانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة فى يده شىء بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن مافات بغير تقصير ، والكافر إذا أصاب الأمانة فى يده شىء ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره ، لأنه يضمن مافات وإن لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال ، وأما السموات فلقوله تعالى (وخلقنا فوقكم سبعاً شداداً) والأرض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها ، ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن ، لأنهن وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن ، وحملها الإنسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) ولكن وعده بالاعانة على حفظ الأمانة بقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر ؟ نقول قال الله تعالى «أنا أعين من يستعين بى ويتوكل على » والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الأمانة (اللطيفة الثالثة) قوله

لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٧٣»

تعالى فأبين (أن يحملنها) وقوله تعالى (وحملها الإنسان) إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف مالو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ، ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لايستحق أجرة فقال تعالى (وحملها) إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أى على مجرد حمل الأمانة ، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها ، غاية ما فى الباب أن الكافر لم يأت بشىء زائد على الحمل فينبغى أن يستحق الأجر على الحمل فنقول الفعل إذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الأجرة ، ألا ترى أنه لو قال احمل هذا إلى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها إلى الضيعة التى على الجنوب لايستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التى عملها بسببه .

ثم قال تعالى ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

أى حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك ، فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم عطف المشرك على المنافق ، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا ؟ نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال (ويتوب الله) ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله فى الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفوراً رحيما) أى كان غفوراً للظلوم ورحيما على الجهول ، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذى هو الشرك كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الوعد فقوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسىء بقوله ما علمت .

(وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولا ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى الأمى وآله .

﴿ سورة سبأ ﴾

مكية وقيل فيها آية مدنية وهى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الآية)
وهى أربع وقيل خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ «١»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان فى الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مايدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الأول (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه (هو الذى خلقكم من طين) إشارة إلى الايجاد الأول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما) إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات فى المشتهيات وأدى إلى التقاتل والتفانى ، ثم قال فى هذه السورة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) وقال فى الملائكة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عنهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) اشارة إلى النعمة العاجلة وقوله (مالك يوم الدين) إشارة إلى النعمة

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ «٢»

الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ، ثم فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما فى السموات وما فى الأرض لنفسه بقوله (له ما فى السموات ومافى الأرض) ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جواباً عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلا ، فان الإنسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به أصلا أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلاناً ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك ما فى السموات ومافى الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله (له ما فى السموات ومافى الأرض) يوجب شكراً أتم مما يوجبه قوله تعالى (خلق لكم مافى الأرض) وذلك لأن ما فى السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو ، يوجب ذلك شكراً لا يوجبه كون ذلك لنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التى فى الآخرة ، فلم ذكر الله السموات والأرض ؟ فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى مافى السموات ومافى الأرض ، ثم قال (وله الحمد فى الآخرة) ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال (وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخبر، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى فى الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذى يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله (حكيم) أى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير أى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء .

ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله ﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾

ما يلج فى الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وماينزل من السماء

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ «٣» لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٤»

من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله (والعمل الصالح يرفعه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ما يلج فى الأرض على ماينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانياً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند السموات فقال (وما يعرج فيها) ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (وهو الرحيم الغفور) رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء ، غفور عند ماتعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانياً عند العروج .

ثم بين أن هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ ثم رد عليهم وقال ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾

أخبر بإتيانها وأكده باليمين ، قال الزمخشرى رحمه الله : لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به ، لكن المسألة الأصولية لاتثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وبيان كونه دليلا هو أن المسىء قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة ويموت فيها ، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان

الأمر على خلاف الحكمة ، والذى أقوله أنا هو أن الدليل المذكور فى قوله (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) أظهر ، وذلك لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة ، وعلى هذا فقوله تعالى (فى السموات ولا فى الأرض) فيه لطيفة وهى أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها فى الأرض والأرواح فى السماء فقوله (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات) إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله (ولا فى الأرض) إشارة إلى علمه بالأجسام ، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد فى المعاد . وقوله (ولا أصغر من ذلك) إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب ، وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر ؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر ، لكونها محل النسيان ، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه ، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم ، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهى قال أخبرنى والدى عن جدى عن محيى السنة عن عبد الواحد المليجى عن أحمد بن عبد الله النعيمى عن محمد بن يوسف الفربرى عن محمد بن اسماعيل البخارى « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا ، فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه إنعاماً ويطعمه طعاماً ، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذى كرم أومكرم ، أو لأنه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا ، فانه مالم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله (ليجزى الذين آمنوا) ، (وثانيهما) أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشىء آخر لأن قوله (أولئك لهم) جملة تامة إسمية ، وقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) جملة فعلية مستقلة ، وهذا أبلغ فى البشارة من قول القائل . ليجزى الذين آمنوا رزقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى ليجزى للتعليل ، معناه الآخرة للجزاء ، فان قال قائل : فما وجه المناسبة ؟فنقول : الله تعالى أراد أن لاينقطع ثوابه فجعل للمكلف داراً باقية ليكون ثوابه واصلا إليه دائماً أبداً ، وجعل قبلها داراً فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ «٥»

فيه فى الآخرة إذا نسبه إلى ماقبلها وإذا نظر إليه فى نفسه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة واحدة هى للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ، ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين ، وقوله (والذين سعوا فى آياتنا) أى بالابطال ، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا فى مقابلة ماتقدم لأن قوله تعالى (آمنوا) معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم فى الإبطال مع أن المذكور مطلق السعى ؟ فنقول فهم من قوله تعالى (معاجزين) وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعى فى التقرير والتبليغ لا يكون الساعى معاجزاً لأن القرآن وآيات الله معجزة فى نفسها لا حاجة لها إلى أحد ، وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات ، فيحتاج إلى السعى العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به ، وقيل بأن المراد من قوله (معاجزين) أى ظانين أنهم يفوتون الله ، وعلى هذا يكون كون الساعى ساعياً بالباطل فى غاية الظهور ، ولهم عذاب فى مقابلة لهم رزق ، وفى الآية لطائف (الأولى) قال ههنا (لهم عذاب) ولم يقل يجزيهم الله ، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشىء آخر ، وقوله (أولئك لهم مغفرة) إخبار عن مستحقهم المعد لهم ، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظراً إلى قوله (ليجزى) وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال (ورزق كريم) وههنا لم يقل إلا لهم عذاب من رجز أليم ، والجواب تقدم فى مثله (الثالثة) قال هناك (لهم مغفرة ورزق كريم) ولم يقله بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا (لهم عذاب من رجز أليم) بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب ، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة ، وفى الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى ، والجر نظراً إلى اللفظ ، فان قيل فلم تنحصر الأقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمناً ليس له عمل صالح أو كافر متوقف ، فنقول إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم ، وإن لم يكن فى الكرامة مثل رزق الذى عمل صالحاً

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ «٦» وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ «٧»

وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التى للمكذبين المعاندين .

ثم قال تعالى ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتى علماً لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق ، وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق إلا ذلك ، وأما قول المكذب فباطل ، بخلاف ما إذا تنازع خصمان ، والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقاً فى المعنى ، وقوله تعالى (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) يحتمل أن يكون بياناً لكونه هو الحق فانه هاد إلى هذا الصراط ، ويحتمل أن يكون بياناً لفائدة أخرى ، وهى أنه مع كونه حقاً هادياً والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول إلى الله ، وقوله (العزيز الحميد) يفيد رغبة ورهبة ، فانه إذا كان عزيزاً يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب ، وإذا كان حميداً يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً ، فإن قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع أنك أبداً تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول كونه عزيزاً تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجى أيضاً ، وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾ .

وجه الترتيب : هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله (قل بلى وربى لتأتينكم) وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات ، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله (قل بلى وربى لتأتينكم) فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل إليك الحق وهو يهدى ، وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب (هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد؟) وهذا كقول القائل فى الاستبعاد ، جاء رجل يقول إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات .

أَفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ «٨» أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ

ثم قال تعالى ﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعنى هو من كلام من قال (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال (هل ندلكم) كأن السامع لما سمع قول القائل (هل ندلكم على رجل) قال له : أهو يفترى على الله كذباً ؟ إن كان يعتقد خلافه ، أم به جنة [أى] جنون ؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفى هذه الطيفة) وهى أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر ، بل قال مفتر أو مجنون ، احترازاً من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر ، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفترياً وكاذباً فى بعض المواضع ، ألا ترى أن من يقول جاء زيد ، فاذا تبين أنه لم يجىء وقيل له كذبت ، يقول ما كذبت ، وإنما سمعت من فلان أنه جاء ، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن ، فهم احترزوا عن تبين كذبهم ، فكل عاقل ينبغى أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب) فى مقابلة قولهم (أفترى على الله كذباً) وقوله (والضلال البعيد) فى مقابلة قولهم (به جنة) وكلاهما مناسب . أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية ، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب . وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه فى الإيذاء ، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب ، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ، ثم وصف ضلالهم بالبعد ، لأن من يسمى المهتدى ضالا يكون هو الضال ، فمن يسمى الهادى ضالا يكون أضل ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد .

ثم قال تعالى ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازياً على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديداً . أما الدليل فقوله (من السماء والأرض) فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مراراً ، وكما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة ، وقد ذكرناه مراراً ، وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ «٩» وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ «١٠»

وأما التهديد فبقوله (إن نشأ نخسف بهم الأرض) يعنى نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف .

ثم قال تعالى ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ أى لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبين ما أتاه الله على أنابته فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (منا) إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقريره هو أن قوله (ولقد آتينا داود منا فضلا) مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتى الملك زيداً خلعة ، فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ، ومثل هذا قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) فان رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال (يبشرهم ربهم برحمة منه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (ياجبال أوبى معه) قال الزمخشرى (ياجبال) بدل من قوله (فضلا) معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال ، أو من آتينا ومعناه قلنا ياجبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع ، وقيل بأن معناه سيرى معه ، وفى قوله (يسبحن) قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرىء (والطير) بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يكن الموافق له فى التأويب منحصراً فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور (١) تستبعد منهما الموافقة ، فاذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وألنا له الحديد) عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى قوله ياجبال تقديره قلنا (ياجبال) أوبى وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفاً على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير ، فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به ، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل

(١) فى الأصل : للنقور بالقاف المثناة والصواب النفور بالفاء الفوقية الموحدة ، والنفور ضد الجمود .

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١١» وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ «١٢»

إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التى هى من أمره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل ، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما .

ثم قال تعالى ﴿ أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير ﴾ قيل إن أن ههنا للتفسير فهى مفسرة ، بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير (ألنا) وتحقيقه لأن يعمل ، يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه : ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد ، قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله (وقدر فى السرد) أى الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الأيام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله (إنى بما تعملون بصير) وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل لملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيباً آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) .

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (ولسليمان الريح) بالرفع وبالنصب وجه الرفع (ولسليمان الريح) مسخرة أو سخرت (لسليمان الريح) ووجه النصب (ولسليمان) سخرنا (الريح) وللرفع وجه آخر

وهو أن يقال معناه (ولسليمان الريح) كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفاً لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لايجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذكرنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا (وألنا له الحديد) كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة لا هذه الرياح ، فانها المنافع عامة فى أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعض الناس : المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شىء (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهى كالريح وقوله (غدوها شهر) ثلاثون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج فى أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله فى حق داود (وألنا له الحديد) وقوله فى حق سليمان (وأسلنا له عين القطر) أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أى أناساً أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و]عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أقول قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) وقوله (ولسليمان الريح عاصفة) لو قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى قال فى الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال) وفى هذه السورة قال (ياجبال أوبى معه) وقال فى الريح هناك وههنا (ولسليمان) تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب ، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو أن على قولنا (أوبى معه) سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعاً ، والريح لاتتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها ، فلم يقل الريح مع سليمان ، بل سليمان كان مع الريح (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس (ومن الجن) أى سخرنا له من الجن ، وهذا ينبىء عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر .

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثه أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان ، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه ، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمى والآدمى أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أى الجبال مع داود على ما قلنا (أوبى) أى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضاً ، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ «١٣»

لا يجتمعان مع الإنسان ؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن ، فان الإنسان يتقى مواضع الجن ، والجن يطلب أبداً اصطياد الانسان والإنسان يطلب إصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه ، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وههنا لطيفة) وهى أن الآدمى ينبغى أن يتقى الجن ويجتنبه والاجتماع به يقضى إلى المفسدة ولهذا قال تعالى (أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى (من يعمل بين يديه باذن ربه) إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهى أن الله تعالى قال ههنا (باذن ربه) بلفظ الرب وقال (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ولم يقل عن أمر ربه ، وذلك لأن الرب لفظ ينبىء عن الرحمة ، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال (ربه) وعندما كانت الاشارة إلى تعذيبهم قال (عن أمرنا) بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى (نذقه من عذاب السعير) فيه وجهان : (أحدهما) أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه (وثانيهما) أن السعير هو ما يكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب

ثم قال تعالى ﴿ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى (إذ تسوروا المحراب) والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ، ثم لما ذكر البناء الذى هو المسكن بين ما يكون فى المسكن من ماعون الأكل فقال (وجفان كالجواب) جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس (وقدور راسيات) ثابتات لا تنقل لكبرها ، وإنما يغرف منها فى تلك الجفان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون فى الأبنية وقدم (الجفان) فى الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ، فنقول : لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال (راسيات) أى غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع فى النفس أن الطعام الذى يكون فيها فى أى شىء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب ، وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة ، واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح فكان فى زمانه العظمة بالإطعام والإنعام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لما قال عقيب قوله تعالى (أن اعمل سابغات) اعملوا صالحاً ، قال عقيب ما يعمله الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى ماذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغى أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكراً ، وفيه إشارة إلى عدم الإلتفات إلى هذه الأشياء ، وقلة الاشتغال بها كما فى قوله (وقدر فى السرد) أى اجعله بقدر الحاجة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصاب شكراً يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعاً وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدراً كقول القائل شكرت الله شكراً ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعوداً ، وذلك لأن العمل شكر فقوله (اعملوا) يقوم مقام قوله (اشكروا) (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيداً كما قال تعالى (واعملوا صالحاً) لأن الشكر صالح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده ، وذلك لأنه لما قال (اعملوا آل داود شكراً) فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغى لا يمكن ، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر ، فدائماً تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر ، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم فى ذلك حرج ، فان عبادى قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل فى قوله (عبادى) مع الإضافة إلى نفسه ، وعبادى بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد فى القرآن إلا فى حق الناجين ، كقوله تعالى (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فان قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله (قليل) يدل على أن فى عباده من هو شاكر لأنعمه ، نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أو نقول الشاكر التام ليس إلا من رضى الله عنه ، وقال له ياعبدى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمى بأسرها ، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها .

ثم قال تعالى ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ «١٤» لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ «١٥»

فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهاً للخلق على أن الموت لابد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه، وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ كان سليمان عليه السلام يقف فى عبادة الله ليلة كاملة ويوماً(١) تاماً وفى بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكى عليها واقفا بين يدى ربه، ثم فى بعض الأوقات كان واقفاً على عادته فى عبادته إذ توفى، فظن جنوده أنه فى العبادة وبقى كذلك أياماً وتمادى شهوراً، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله.

وقوله تعالى ﴿ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾ كانت الجن تعلم مالا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلا فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا فى الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حى. وقوله (مالبثوا فى العذاب المهين) دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير، لأن المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين.

ثم قال تعالى ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه، بحكاية أهل سبأ، وفى سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله (آية) أى من فضل ربهم، ثم بينها بذكر بدله بقوله (جنتان عن يمين وشمال) قال الزمخشرى أية آية فى جنتين، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة، قوله (كلوا من رزق ربكم) إشارة إلى تكميل النعم عليهم

---

(١) قوله «ويوماً» الواو فيه بمعنى أو، وبذلك تتصور الزيادة على اليوم أو الليلة إذ ليس للانسان بعد اليوم التام والليلة الكاملة وقت آخر ويزيده.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ «١٦» ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ «١٧»

حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض ، وقوله (واشكروا له) بيان أيضاً لكمال النعمة ، فان الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة ، ثم لما بين حالهم فى مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة فى المآل فى الدنيا ، فقال (بلدة طيبة) أى طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم ، وقال (ورب غفور) أى لا عقاب عليه ولا عذاب فى الآخرة ، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية .

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إبانة الآية كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال (إنا من المجرمين منتقمون) وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم ، وفى العرم وجوه (أحدها) أنه الجرذ الذى سبب خراب السكر ، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبواباً ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض . فنقب الجرذ السكر ، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة (ثالثها) اسم للوادى الذى خرج منه الماء وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) بين به دوام الخراب ، وذلك لأن البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار ، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة ، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا فى بعض الأوقات ، يكون عليه شىء كالعفص أو أصغر منه فى طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه قليل لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى) أى لا نجازى بذلك الجزاء (إلا الكفور) قال بعضهم : المجازاة تقال فى النقمة والجزاء

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ «١٨» فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ «١٩»

فى النعمة لكن قوله تعالى (ذلك جزيناهم) يدل على أن الجزاء يستعمل فى النقمة ، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهى فى أكثر الأمر تكون بين اثنين ، يؤخذ من كل واحد جزاء فى حق الآخر ، وفى النعمة لاتكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدىء بالنعم .

ثم قال تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة : وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور «١٩» ﴾ .

أى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة . وقرى ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى ، فان قال قائل : هذا من النعم والله تعالى قد شرع فى بيان تبديل نعمهم بقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة ؟ فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل . ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله (ربنا باعد بين أسفارنا) وقد فعل ذلك ، ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر ، وقوله (وقدرنا فيها السير) الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لاتتجاوز ، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار ، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ماأمكن فى العرف تجاوزها ، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جاداً حتى يقطعها ، وقوله (سيروا فيها ليالى وأياماً) أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله (آمنين) إشارة إلى كثرة العمارة ، فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون فى مثل هذه الأماكن ، وقيل بأن معنى قوله (ليالى وأياماً) تسيرون فيه إن شئتم ليالى وإن شئتم أياماً لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا ، لئلا يعلم العدو بسيرهم ، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو ، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ، وقوله تعالى (قالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى إشارة إلى أنه لا يقدر عليه . ويمكن أن يقال : (قالوا ربنا بعد) بلسان الحال ، أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢٠» وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ «٢١»

بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم ، وقوله (وظلموا أنفسهم) يكون بيانا لذلك ، وقوله (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا ، يقال : تفرقوا أيدى سبا ، وقوله (ومزقناهم كل ممزق) بيان لجعلهم أحاديث ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين .

ثم قال تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ أى ظنه أنه يغويهم كما قال (فبعزتك لأغوينهم) وقوله (فاتبعوه) بيان لذلك أى أغواهم ، فاتبعوه (إلا فريقا من المؤمنين) قال تعالى فى حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويمكن أن يقال (صدق عليهم ظنه) فى أنه خير منه كما قال تعالى عنه (أنا خير منه) ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه ، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذى يدل على أن إبليس خير من الكافر ، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عناداً كفر ، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد ، وهم كفروا بأمر هو الإشراك ، ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء ، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوى الكل ، بدليل أنه تعالى قال عنه (إلا عبادك منهم المخلصين) فما ظن أنه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء ، وأما فى قوله (أنا خير منه) اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ، ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الأول ، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج ، لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى ، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض .

ثم قال تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه ، فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الأمر فعلم الله فى الأزل أن العالم سيوجد ، فاذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم ، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرآة المصقولة فيها الصفاء

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ «٢٢» وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ «٢٣»

فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته ، والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها ، إنما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله (إلا لنعلم) أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو .

وقوله (وما كان له عليهم من سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجىء وإنما هو آية ، وعلامة خلقها الله لتبيين ماهو فى علمه السابق ، وقوله (وربك على كل شىء حفيظ) يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة ، إذ الجاهل بالشىء لا يمكنه حفظه ولا العاجز .

ثم قال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ .

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً بقوله (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) .

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خالق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات فى حكمهم ، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله إلههم ، فقال الله تعالى فى إبطال قولهم (إنهم لا يملكون فى السموات شيئاً) كما اعترفتم ، قال ولا فى الأرض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له ، فقال فى إبطال قولهم (وما لهم فيهما من شرك) أى الأرض كالسماء لله لا لغيره ، ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من

الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب ، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه ، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال فى العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ماضرب فلان فلاناً ، وإنما الملك أمر بضربه فضرب ، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى فى إبطال قولهم -(وماله منهم من ظهير) مافوض إلى شىء شيئاً ، بل هو على كل شىء حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التى هى صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى فى إبطال قولهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن فى الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى أزيل الفزع عنهم ، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب ، وفى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) وجوه (أحدها) الفزع الذى عند الوحى فان الله عندما يوحى يفزع من فى السموات ، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله ؟ فيقول قال الحق أى الوحى (وثانيها) الفزع الذى من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام (فزع من فى السموات) من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة ، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل (الحق) أى الوحى (وثالثها) هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ، ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى : إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين قوله تعالى (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (قل) لأنه بينه بالوحى لأن قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله ، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال (قل) فزع من فى السموات ، ثم أزيل عنه الفزع ، وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع ، ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق ، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى (قالوا ماذا) هو الملائكة السائلون من جبريل ، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل فى قوله (الحق) على القولين الأولين هم الملائكة ، وعلى الثالث هم المشركون .

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقاً مطلقاً لا يرتفع بالباطل الذى هو العدم والكلام الذى يكون صدقاً يسمى حقاً ، لأن الكلام له متعلق فى الخارج بواسطة أنه متعلق بما فى الذهن ، والذى فى الذهن متعلق بما فى الخارج ، فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما فى ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما فى الخارج لكن للصدق متعلق يكون فى الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون فى الخارج ، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق فى الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التى تكون صادرة

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٢٤»

عن معاند كاذب ، وإما أن يكون له متعلق فى الذهن على خلاف ما فى الخارج فيكون إعتقاداً باطلا جهلا أو ظناً لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل ، وكلام الله لا بطلان له فى أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند (ولا يأتيه الباطل) كما يكون كلام الظان ، وقوله تعالى (وهو العلى الكبير) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) أن (الحق) إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم ، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله (وهو العلى الكبير) إشارة إلى أنه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته ، وهذا يبطل القول بكونه جسما وفى حيز، لأن كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الاشارة لأن الاشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو ، وإذا وقعت الاشارة إليه فقد تناهت الاشارة عنده ، وفى كل موقع تقف الاشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير علياً بالاضافة لا مطلقاً وهو على مطلقاً ولو كان جسما لكان له مقدار ، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيراً بالنسبة إلى غيره لا مطلقاً وهو كبير مطلقاً .

ثم قال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ قد ذكرنا مراراً أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهاً ، وإنما يطلبون به شيئاً ، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم) على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وقال بعد إتمام بيان ذلك (قل من يرزقكم من السموات والأرض) إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه ، فاذاً إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضراً أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع .

ثم قال تعالى ﴿ قل الله ﴾ يعنى إن لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال (قالوا الحق) وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون فى الضر كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه) وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال (قل الله) أى هم فى حالة الراحة غافلون عن الله .

ثم قال تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ وفيه مسائل :

قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ «٢٥» قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ «٢٦»

﴿المسألة الأولى﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية فى العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذى تقوله خطأ وأنت فيه مخطىء يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع فى الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك فى أنه مخطىء والتمادى فى الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم فى النظر ويترك التعصب وذلك لايوجب نقصاً فى المنزلة لأنه أوهم بأنه فى قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لايشك فى أنه هو الهادى وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون .

﴿المسألة الثانية﴾ فى قوله (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لأن المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلى ، والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى .

﴿المسألة الثالثة﴾ وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض ، فميز البعض عن البعض بالوصف .

﴿المسألة الرابعة﴾ قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله (إنا) وهو مقدم فى الذكر .

ثم قال تعالى ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أضاف الإجرام إلى النفس وقال فى حقهم (ولا نسأل عما تعملون) ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله (لا تسألون) (ولا نسأل) زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فاذا احترز نجا ، ولو كان البرىء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر .

ثم قال تعالى ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكر ، فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب ، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله (يفتح) قيل معناه يحكم ، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة . ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله (وهو الفتاح العليم) إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه .

قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢٧» وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٢٨» وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٢٩» قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ «٣٠»

ثم قال تعالى ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله (قل من يرزقكم من السموات والأرض) بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم) أى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له .

ثم قال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ لما بين مسألة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة) وفيه وجهان (أحدها) كافة أى إرسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة أى أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه (بشيراً) أى تحثهم بالوعد (ونذيراً) تزجرهم بالوعيد (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ قد ذكرنا فى سورة الأعراف أن قوله (لا تستأخرون) يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ماوجهه ؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لااستعجال فيه كما لا أمهال ، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب ، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفى قوله تعالى (لكم ميعاد يوم) قراءات (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوماً قال الزمخشرى ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد أعنى يوماً وذلك يفيد التعظيم والتهويل ، ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوماً

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ «٣١»

كما يقول القائل : أنا جائيك يوماً وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كا نه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوماً وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يوماً (الثالثة) الإضافة لكم ميعاديوم كما فى قول القائل سحق ثوب للتبيين وإسناد الفعل إليهم بقوله (لا تستأخرون عنه) بدلا عن قوله (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن) وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله (ولا بالذى بين يديه) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ، ويحتمل أن يقال إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذى بين يديه أى ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل ، وعلى هذا فالذين كفروا المرادمنهم العموم ، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر ، فإن قيل ؛ أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر ، فنقول إذا لم يصدق واحد ما فى الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشىء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه فى غيره فيكون إيمانه لا بما فيه . مثاله : أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه ، فانه كان عالما به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه .

وقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾

لما وقع اليأس من إيمانهم فى هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأييد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطؤا فى أمر يقول بعضهم كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك ، وجواب لو محذوف ، تقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجباً ، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) إشارة إلى أن

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ «٣٢» وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا

كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا ما جاءنا رسول ، ولا أن يقولوا قصر الرسول ، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ ،

رداً لما قالوا إن كفرنا كان لمانع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى المانع ينبغى أن يكون راجحاً على المقتضى حتى يعمل عمله ، والذى جاء به هو الهدى ، والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع ، ثم بين أن كفرهم كان إجراما من حيث إن المعذور لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما .

ثم قال تعالى ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ .

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعاً وصارفاً اعترف المستضعفون به وقالوا (بل مكر الليل والنهار) منعنا ، ثم قالوا لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى والمانع القوى ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد فى المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف إليه . وقوله (إذ تأمروننا أن نكفر بالله) أى ننكره (ونجعل له أنداداً) هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهاً ، وقوله فى الأول (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل ، وقوله فى الآيتين المتأخرتين (وقال الذين استكبروا ، وقال الذين استضعفوا) بصيغة الماضى مع أن السؤال والتراجع فى القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لابد وأن يقع ، فإن الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٣٣»

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ «٣٤» وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «٣٥» قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٦»

ثم قال تعالى ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

معناه أنهم يتراجعون القول فى الأول ، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة ، وقيل معنى الإسرار الإظهار أى أظهروا الندامة ، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا إلى الله بقولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول ، وقوله (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافياً بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال فى أعناقهم ، وقوله (يجزون إلا ما كانوا يعملون) إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلا .

ثم قال تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ .

تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبياناً لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعا ، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا (إنا بما أرسلتم به كافرون) لأن الأغنياء المترفين هم الأصل فى ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا (نحن أكثر أموالا وأولاداً) أى بسبب لزومنا لديننا ، وقوله (وما نحن بمعذبين) أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم ، وأما آجلا فلا نعذب إما إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقادا لحسن حالهم فى الآخرة أيضاً قياساً [على حسن حالهم فى الدنيا] .

ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ «٣٧» وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ «٣٨» قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ «٣٩»

يعنى أن الرزق فى الدنيا لاتدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ،

ثم بين فساد استدلالهم بقوله ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحاً ، فان المال لايقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله (فأولئك لهم جزاء الضعف) أى الحسنة فان الضعف لايكون إلا فى الحسنة وفى السيئة لايكون إلا المثل ،

ثم زاد وقال (وهم فى الغرفات آمنون) إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة لايكون آمنا .

ثم بين حال المسىء بقوله ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾ وقد ذكرنا تفسيره ، وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) إشارة إلى الدوام أيضاً كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وكما قال تعالى (وما هم عنها بغائبين) .

ثم قال تعالى مرة أخرى ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافى نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد ، قطعاً لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم ،

فان كثيراً من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الأتقياء ممتعون وفيه مسائل :

﴿الأولى﴾ ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فان الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فان الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، ومآله إلى الوبال . وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خير ، فان ما فى يد الإنسان فى معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله (والله خير الرازقين) وخيرية الرازق فى أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما (الأول) فلأنه عالم وقادر (والثانى) فلأنه غنى واسع (والثالث) فلأنه كريم ، وقد ذكر ذلك بقوله (يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكرنا هو المراد ، أى يرزقه حلالا لا يحاسبه عليه (والرابع) فلأنه على كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضى ثواباً .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفاً» وذلك لأن الله تعالى ملك على وهو غنى ملى ، فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك فى البحر وعلى ضمانه ، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال(١) إلى الهلاك ، فان لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل ملىء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فان أموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن الملىء وهو الله العلى وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فإن الإنسان لابد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفى يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

(١) فى النسخة الأميرية إلى « الاهمال » ولكن ما كتبناه أولى وأنسب لسياق الكلام .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ «٤٠» قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ «٤١»

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (خير الرازقين) ينبيء عن كثرة فى الرازقين ولا رازق إلا الله ، فما الجواب عنه ؟ فنقول عنه جوابان (أحدهما) أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك فى قوله تعالى (وهو أحسن الخالقين) (وثانيهما) هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ، مثال الأول العلم ، فان الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة ، وكذلك العلم بكون النار حارة ، غاية مافى الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث ، مثال الثانى الرازق والخالق ، فان العبد إذا أعطى غيره شيئاً فان الله هو المعطى ، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمى معطياً ، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان ، مثال الثالث الأزلى والله وغيرهما ، وقد يقال فى أشياء فى الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

ثم قال تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ لما بين أن حال النبى ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين مايكون من عاقبة حالهم فقال (ويوم نحشرهم جميعاً) يعنى المكذبين بك وبمن تقدمك ، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة ، فان غاية ما ترتقى إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب ، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم ! إهانة لهم ، فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت معبودنا ومعبود كل خلق ، وقولهم (أنت ولينا من دونهم) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة ؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التى يكون فيها سواد عظيم ، لأنه لا يترأس هناك فيرضى بالضياع والبلاد الصغيرة ، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس ، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ، ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان ، وهو

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ «٤٢»

يقول هؤلاء أتباعى وأشياعى ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضى باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا (أنت ولينا من دونهم) يعنى كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أى كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هى الطاعة وقوله تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين ، فما وجه قوله (أكثرهم بهم مؤمنون) فانه ينبىء أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطن فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا (أكثرهم بهم مؤمنون) عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه إلا لله ، كما قال تعالى (إنه عليم بذات الصدور) .

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الاولى ﴾ الخطاب بقوله (بعضكم) مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأنه قال بعده (ونقول للذين ظلموا ذوقوا) فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله (بعضكم لبعض) أى الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أنتم قلتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، وعلى هذا فقوله (ونقول للذين ظلموا) إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم فى الظلم ، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافياً لكنه ، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة ، فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَاهَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ «٤٣»

عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (نفعاً) مفيد للحسرة ، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لأجله عبادتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ههنا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) وقال فى السجدة (عذاب النار الذى كنتم به) جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل ، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ماراوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) أى العذاب المؤبد الذى أنكرتموه بقولكم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أى قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلارجل يريد أن يصدكم عماكان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلاإفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

إظهاراً لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا (سبحانك أنت ولينا) أى لاأهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أى لاأهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبى عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فان لله فى كل شىء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعنى يعارضون البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) وهو يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد أن القول بالوحدانية (إفك مفترى) ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول فى حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى فى حقهم (أإفكا آلهة دون الله تريدون) وكما قالوا هم للرسول (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) (وثانيها) أن يكون المراد (ما هذا إلا إفك) أى القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا

وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ «٤٤» وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ «٤٥» قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ «٤٦»

إلا سحر مبين) إشارة إلى القرآن وعلى الثانى يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى (وقال الذين كفروا) بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .

ثم قال تعالى ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾ .

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعنى يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم (إفك مفترى) من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال المفسرون معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندى [أنه] يحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يقال المراد (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى ، وبيانه أشفى ، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل ، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان المؤتى فى الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإيتاء فى الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى .

ثم قال تعالى ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾

ذكر الأصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ماسبق منه تقريرها بالدلائل فقوله (أن تقوموا لله) إشارة إلى التوحيد وقوله (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم) إشارة إلى الرسالة وقوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى اليوم الآخر وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إنما أعظكم بواحدة) يقتضى أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرساله والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله (إنما أعظكم بواحدة) ؟ فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع فى الآخرة قدره فالنبى ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيء لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبى ﷺ ما قال إنى لا آمركم فى جميع عمرى إلا بشئ واحد ، وإنما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى (ثم تتفكروا) فإن التفكر أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بواحدة) قال المفسرون أنها على أنها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أن العدل نفى الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل فى تفسير قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أن المراد هل جزاء الايمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مثنى وفرادى) إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل فى قوله (مثنى) وإذا كان وحده دخل فى قوله (فرادى) فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ثم تتفكروا) يعنى اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فانه يحتاج إلى تفكر ، وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا ، فانه قال (أن تقوموا لله ثم تتفكروا) ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال (ما بصاحبكم من جنة) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ما بصاحبكم من جنة) يفيد كونه رسولا وإن كان لا يلزم فى كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا ، وذلك لأن النبى عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبى ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات ، فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فاذا قال ما هو بجنون لم

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٤٧» قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ «٤٨»﴾

يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله فى قوة لسانه وبيانه(١) فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده إن هو إلا نذير ، يعنى إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير .

﴿المسألة السادسة﴾ قوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده .

ثم قال تعالى ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد﴾ لما ذكر أنه مابه جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبى إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنوناً ، فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا ، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجراً فى الدنيا فهو يفعله للآخرة ، والكاذب فى الآخرة معذب لامثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبى صادق وقوله (وهو على كل شهيد) تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة . بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إنى مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إنى رسولك فاذا قال إنه رسولى إليكم لا يبقى فيه شك كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسل إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

ثم قال تعالى ﴿قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب﴾ وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين ، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبى ﷺ بقوله (إن هو إلا نذير لكم) وأكده بقوله (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال (قل إن ربى يقذف بالحق) أى فى القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطى مايشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى (علام الغيوب) إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً

(١) فى النسخة طبعة بولاق : فى قوة لسانه وباله ولما كان غير واضحة المعنى فقد اثبتناها هكذا لأن اللازم لقوة اللسان قوة البيان .

قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ «٤٩»

كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد فى غيره لا يكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً ، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع فى المحاذاة فقال (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب مايفعله فهو يفعل مايريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب (الوجه الثانى) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما كما قال فى سورة الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال (قل إن ربى يقذف بالحق) أى على باطلكم ، وقوله (علام الغيوب) على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة ، وأما الحشر فعلى وقوعه لابرهان غير إخبار الله تعالى عنه ، وعن أحواله وأهواله ، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة ، فلما قال (يقذف بالحق) أى على الباطل ، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال (علام الغيوب) أى ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لاخلف فيه فان الله علام الغيوب ، والآية تحتمل تفسيراً آخر وهو أن يقال (ربى يقذف بالحق) أى ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أى الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء فى قوله (وقضى بينهم بالحق) وفى قوله (فاحكم بين الناس بالحق) والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ماقذف فى قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم مافى قلوبهم ومافى قلوبكم .

ثم قال تعالى ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ .

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) أنه القرآن (الثانى) أنه بيان التوحيد والحشر وكل ماظهر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ، ويحتمل أن يكون المراد من (جاء الحق) ظهر الحق لأن كل ماجاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق ، وقد بينا أن الحق هو الموجود ، ولما كان ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر ، كان حقاً لاينتفى ، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لايثبت ، وهذا المعنى يفهم من قوله (وما يبدىء الباطل) أى الباطل لايفيد شيئاً فى الأولى ولا فى الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلا ، والحق المأتى به لاعدم له أصلا ، وقيل المراد لايبدىء الشيطان ولا يعيد ، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى (قل إن ربى يقذف بالحق) لما كان فيه معنى قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ «٥٠» وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ «٥١»

فأبطله ودمغه ، فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخراً ، وإنما المراد من قوله (فيدمغه) أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى فى موضع آخر (وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) يعنى ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل ، فقوله (وما يبدىء الباطل) أى لا يثبت فى الأول شيئاً خلاف الحق (ولا يعيد) أى لا يعيد فى الآخرة شيئاً خلاف الحق .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب ﴾ .

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم (من اهتدى فلنفسه) وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم ، وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم ، وإنما هو بالوحى المبين ، وقوله (إنه سميع) أى يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى .

ثم قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾

لما قال (سميع) قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت ، وإنما يستعجل من يخاف الفوت . وقوله (ولو ترى) جوابه محذوف أى ترى عجباً (وأخذوا من مكان قريب) لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ .

أى بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان ، قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة ، فان قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة ، ولهذا سماها الله الساعة وقال (لعل الساعة قريب) نقول الماضى كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت ، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب . وقيل عن بعد ، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ما مضى من الدنيا .

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل . والإشارة فى قوله

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ «٥٤» وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ «٥٤»

(آمنا به) وقوله ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ إلى شيء واحد ، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى ، وقوله ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ، فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب ، أى يقول مالا يعلمه ، وقوله ﴿ من مكان بعيد ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة ، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء ، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح اليه ، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا ، كقول قائلهم (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فان مالا يجب عقلا لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق ، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد ، فان قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد ؟ نقول الجواب عنه من وجهه (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده (الثانى) أن الحكاية يوم القيامة ، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم فى الآخرة يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿ وحيل بينهم و بين مايشتهون ﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا ، فان قيل : كيف يصح قولك مايشتهون من العود مع أنه تعالى قال ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ وما حيل بينهم وبين العود ؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم ، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل ، وقوله (مريب) يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب ، وسنذكره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه أجمعين.

﴿ تم الجزء الخامس والعشرون ، ويليه السادس والعشرون وأوله سورة فاطر ﴾

وقد راجعه على النسخة الأميرية الأستاذ محمد اسماعيل الصاوى بالإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف

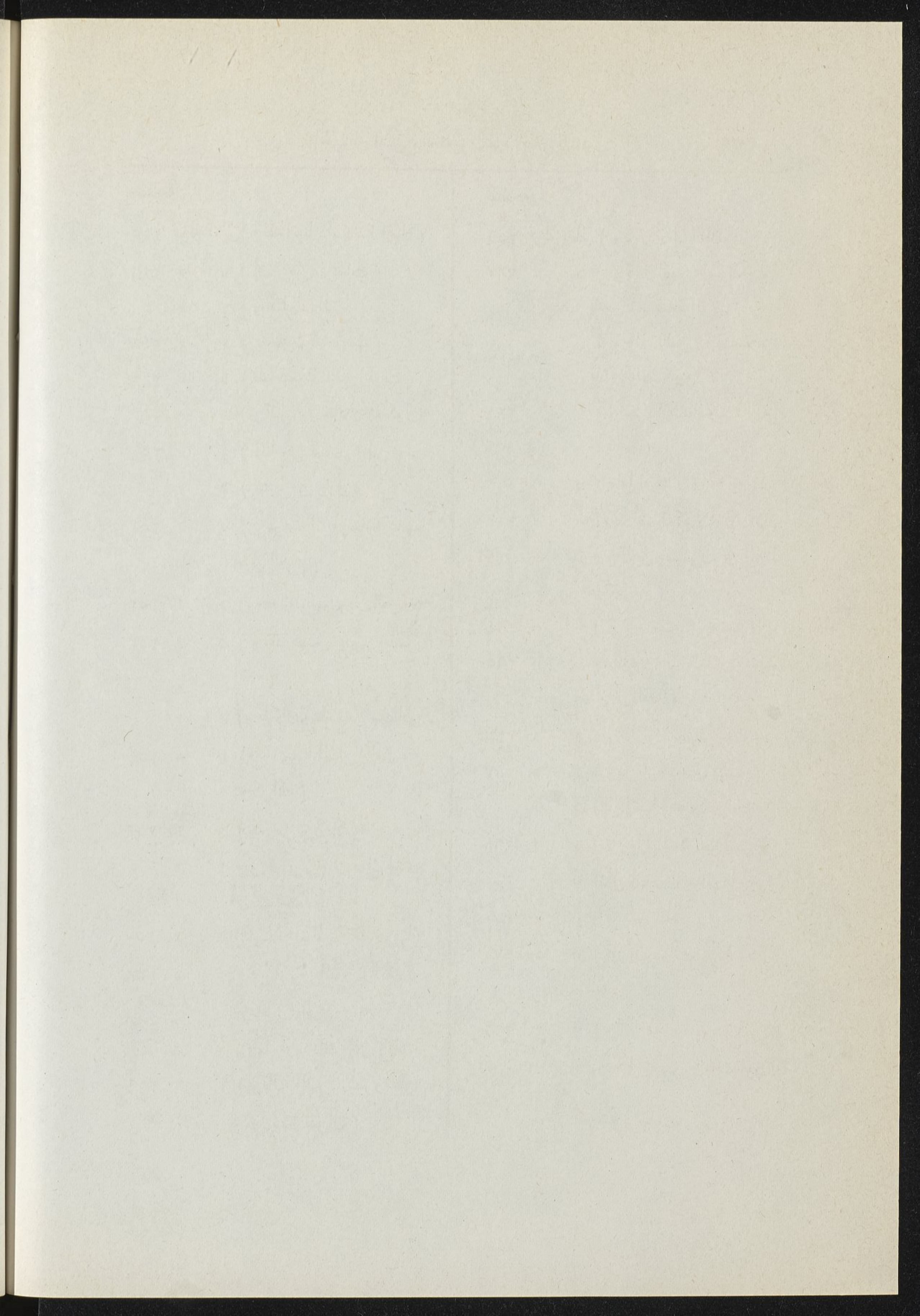
فهرست

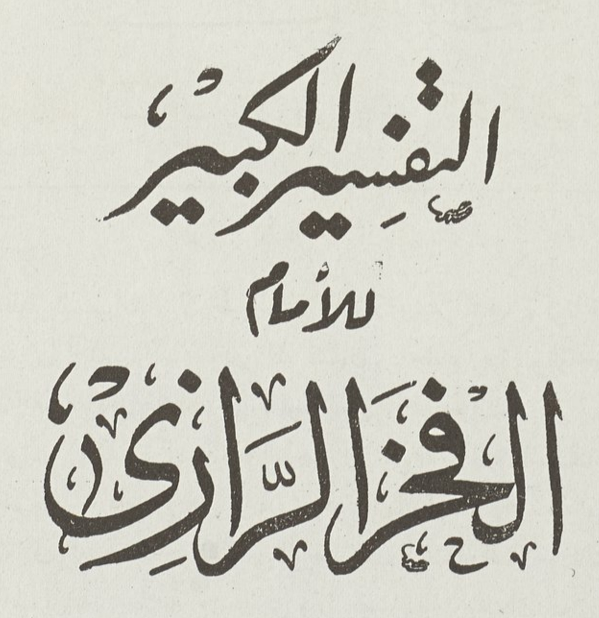
الجزء الخامس والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرست ﴾





الجزء السادس والعشرون

﴿ سورة فاطر ﴾

(أربعون وخمس آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة فى أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا) وقوله فى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإبقاء، فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضى ذلك إلى التقاتل والتفانى، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفى قوله فى سورة سبأ (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثانى بالحشر، واستدللنا عليه بقوله (يعلم مايلج فى الأرض) من الأجسام (وما يخرج منها وما ينزل من السماء) من الأرواح (وما يعرج فيها) وقوله عن الكافرين (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى وربى) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء فى الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وعلى هذا فقوله تعالى (فاطر السموات) يحتمل وجهين (الأول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثانى) (فاطر السموات والأرض) أى شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فإن فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت. كما قال تعالى عنهم (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم

أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ « ١ » مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ

مبشرين ، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

وقوله تعالى ﴿ أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ أقل ما يكون لذى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة ، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء ، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله (علمه شديد القوى) وقال تعالى فى حقهم (فالمدبرات أمراً) فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة ، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذى عليه إطباق المفسرين .

وقوله تعالى ﴿يزيد فى الخلق ما يشاء﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ، ومنهم من قال الصوت الحسن ، ومنهم من قال كل وصف محمود ، والأولى أن يعمم ، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء .

وقوله تعالى ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ يقرر قوله (يزيد فى الخلق ما يشاء) .

ثم قال تعالى ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر ، وقال ما يفتح الله للناس ، يعنى إن رحم فلا مانع له ، وإن لم يرحم فلا باعث له عليها ، وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة فى الذكر ، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية فى الأول فقال (مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما ، ولكن قال تعالى (لها) ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى وصلة إلى من رحمته ، وقال عند الإمساك (وما يمسك فلا مرسل له) بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة ، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله (من بعده) أى من بعد الله ، فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له إلا الله فنزل له مرسلا ، وعند الإمساك

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ «٢» يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ «٣» وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ «٤» يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ «٥»

الإمساك قال لا ممسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

ثم قال تعالى ﴿ وهو العزيز ﴾ أى كامل القدرة ﴿ الحكيم ﴾ أى كامل العلم .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال (اذكروا نعمة الله) وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

فقال تعالى ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد فى الابتداء .

وقال تعالى ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بين أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شىء قدير نافذ الإرادة فى كل شىء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

ثم قال تعالى ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ثم لما بين الأصل (الأول) وهو التوحيد ذكر الأصل (الثانى) وهو الرسالة فقال تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب فى العذاب . والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ثم بين الأصل (الثالث) وهو الحشر .

فقال تعالى ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾

إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ «٦» ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ «٧»

أى الشيطان وقد ذكرنا مافيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شىء ، وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشىء وهون عليه مفاسده ، وبين له منافع ، يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوى الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى (لا تغرنكم الحياة الدنيا) إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغر ولا يغتر .

ثم قال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ لما قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولا تسمعوا قوله ، وقوله (فاتخذوه عدوا) أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

ثم قال تعالى ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله فى أمره طريقان : (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) أن يذهب عداوته بإرضائه ، فلما قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدواً) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فانه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان ، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله . فقال :

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ فالمعادى للشيطان وإن كان فى الحال فى عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعاً للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا إلى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة .

وقال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ،

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ «٨» وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ «٩»

وبين فيه أن الإيمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبده مؤمن فى النار ، والعمل الصالح فى مقابلته الأجر الكبير .

ثم قال تعالى ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

يعنى ليس من عمل سيئاً كالذى عمل صالحاً ، كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسىء الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل ، فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها ، والذى له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسناً غير ، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم أنه مسىء فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسىء الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لا يعلم يصر على الذنوب والمسىء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم . والمسىء الذى يرى الإساءة إحسانا له صفتا ذم الإساءة والجهل ، ثم بين أن الكل بمشيئة الله ، وقال (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية فى الحقيقة والإساءة والإحسان ، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم ، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله .

ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم نفسك حسرات ﴾ كما قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) .

ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال ، وإن كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون .

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ «١٠»

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفى حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب ، وقد لا ينشىء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى (والله الذى أرسل) بلفظ الماضى وقال (فتثير سحاباً) بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الارسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زماناً ولا جزءاً من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شىء فهو قدر الارسال فى الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ، ولما أسند فعل الاثارة إلى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال (تثير) أى على هيئتها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أرسل) إسناداً للفعل إلى الغائب وقال (سقناه) بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك فى قوله (فأحيينا) وذلك لأنه فى الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الارسال ، ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الأرض ففى الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفى الثانى كان تذكيراً بالنعمة فان كما[ل](١) نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله (سقناه وأحيينا) بصيغة الماضى يؤيد ماذكرناه من الفرق بين قوله (أرسل) وبين قوله (تثير) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه التشبيه بقوله (كذلك النشور) فيه وجوه (أحدها) أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء (وثالثها) كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شىء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله (جاعل الملائكة رسلا) ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله (والله الذى أرسل الرياح) .

ثم قال تعالى ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾

(١) فى الأصل الأميري « فان كما نعمة » ، ولا معنى لها وقد زدت اللام ليستقيم الكلام .

لما بين برهان الايمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التى كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا فى طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهى عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة فى الحقيقة ، فهى كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى هذه الآية (فلله العزة جميعاً) وقال فى آية أخرى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقوله (جميعاً) يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله (فلله العزة) أى فى الحقيقة وبالذات وقوله (ولرسوله) أى بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطه النبى ﷺ ألا ترى قوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه فى وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذى عمله لوجهه والذليل من يدفع الذى عمله فى وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بها بل عليها ذلة ، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو ! .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) وجوه (أحدها) كلمة لا إله إلا الله هى الطيبة (وثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الأربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) وفى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة إلى الكلم الطيب أى العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب ورد فى الخبر « لا يقبل الله قولا بلا عمل » (وثانيهما) هى عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ، وهذا يؤيده قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم

وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ «١١»

بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، (ووجه آخر) القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبى ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وما فى القلب لا يظهر إلا باللسان وما فى اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الأمر لا يتكلم فى نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل ، فالقول أشرف .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزمخشرى المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال (الذين يعملون السيئات) وفى قوله (الذين يعملون السيئات) يحتمل ماذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله (والعمل الصالح يرفعه) إشارة إلى بقائه وارتقائه (ومكر أولئك) أى العمل السىء (هو يبور) إشارة إلى فنائه .

ثم قال تعالى ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «٢١»

فى دلائل الأنفس ، وقد ذكرنا تفسيره مراراً وذكرنا ما قيل من أن قوله (من تراب) إشارة إلى خلق آدم (ثم من نطفة) إشارة إلى خلق أولاده . وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل (خلقكم) خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء ، والغذاء بالآخرة ينتهى إلى الماء والتراب ، فهو من تراب صار نطفة .

وقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع) إشارة إلى كمال العلم ، فان ما فى الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لا يعلم حاله أحد ، كيف والأم الحاملة لا تعلم منه شيئاً ، فلما ذكر بقوله (خلقكم من تراب) كمال قدرته بين بقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لا قدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق شىء منها العبادة ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير ، والأول أشبه فإن اليسير استعماله فى الفعل أليق ،

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لا يشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج . ثم على هذا ، فقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات فى خير ونفع إذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ، ولا نفع فى الكفر والكافر ، وهذا على نسق قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقوله (كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء ، فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ «١٣»

أجاج ، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة ، فان اللحم الطرى يوجد فيهما ، والحلية تؤخذ منهما ، ومن يوجد فى المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لايكون إلا قادراً مختاراً . وقوله (وما يستوى البحران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة لا يقال فى ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح ، وإنما يقال له ملح ، وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحاً ، ويؤاخذ قائله به . وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له إلا مالح ، وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك ، لأن المالح شىء فيه ملح ظاهر فى الذوق ، والماء الملح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر فى الذوق ، بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك ، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فانه جعله ماء جاوره ملح ، وأهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماء ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة ، والأجاج المر ، وقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشق ، وقوله (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يدل على ماذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته .

ثم قال تعالى ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ .

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً ، وذكرنا أن قوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق الأرض وتحتها ، فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس فى بعض البلاد المائلة فى الآفاق ، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ «١٤»

تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى سبب الاختلاف وإن كان ماذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك .

ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه ، فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ماينافى صفة الإلهية ، وهو قوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ، (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة (والثانى) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فاذا لم يملك قطميراً ماخلق قليلا ولا كثيراً .

ثم قال تعالى ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

إبطالا لما كانوا يقولون إن فى عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب ، يسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ماكان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى المحس به ، ثم إنه تعالى قال (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى باشراككم بالله شيئاً ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) أى

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «١٥»

الإشراك وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن المخبر عنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد ، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولا ينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) .

ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى (أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى) فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التعريف فى الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر فى الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو فى ظن المتكلم أن السامع لا علم له به ، ثم أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم أو قام أى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به ، فان كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لا تفهيماً يحسن تعريف الخبر غاية الحسن ، كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا ، حيث عرف كون الله رباً ، وكون محمد نبياً ، وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلى الله) إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقراً إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، ثم قال (والله هو الغنى) أى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (الحميد) لما زاد فى الخبر الأول وهو قوله (أنتم الفقراء) زيادة وهو قوله (إلى الله) إشارة لوجوب حصر العبادة فى عبادته زاد فى وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم إليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر ، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هو غنى على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركـكم غير مقضى الحاجات بل قضى فى الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتم يقضى فى الآخرة حوائجكم فهو حميد .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ «١٦» وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ «١٧» وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

ثم قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بياناً لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال (إن يشأ يذهبكم) أى ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشئ المحتاج إليه ، فان المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره ،وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها ،ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله (ويأت بخلق جديد) يعنى إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل .

ثم قال تعالى ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى الإذهاب والإتيان وههنا مسألة : وهى أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة فى القائم بنفسه حيث قال فى حق نفسه (وكان الله قوياً عزيزاً) وقال فى هذه السورة (إن الله عزيز غفور) واستعمله فى القائم بغيره حيث قال (وما ذلك على الله بعزيز) وقال (عزيز عليه ما عنتم) فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فنقول العزيز هو الغالب فى اللغة يقال من عز بز أى من غلب سلب ، فالله عزيز أى غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله (وما ذلك على الله بعزيز) أى لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله (عزيز عليه ماعنتم) أى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

وقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى ﴾ متعلق بما قبله ، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر مايدعوهم إلى النظر فيه فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبى ﷺ لو كان كاذباً فى دعائه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز ، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول (أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وازرة) أى نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزرة أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى ، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة فى أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى ، قد يجتمع معها أن

إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ «١٨»

لاتزر وزراً أصلا كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزراً رأساً فقوله (ولا تزر وازرة) بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف .

ثم قال تعالى (وإن تدع مثقلة) إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً ولا بعد السؤال ، فان المحتاج قد يصبر و تقضى حاجته من غير سؤاله ، فاذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (مثقلة) زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولا (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيظن أن أحداً لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على حمله ، كما أن القوى إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لاتحمل عنه ، وأما إذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال (مثقلة) يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زاد فى ذلك بقوله (ولو كان ذا قربى) أى المدعو لو كان ذا قربى لايحمله وفى الأول كان يمكن أن يقال لايحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل ، أو الأجنبى الذى يرى أجنبياً تحت حمل لايحمل عنه فقال (ولو كان ذا قربى) أى يحصل جميع المعانى الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة ، لو كان المسئول قريباً فاذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل .

ثم قال تعالى ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ماأتيت به ، ولم يفدهم ، فلا تنذر إنذاراً مفيداً إلا الذين تمتلىء قلوبهم خشية و تتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله (الذين آمنوا) إشارة إلى عمل القلب (وعملوا الصالحات) إشارة إلى عمل الظواهر فقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) فى ذلك المعنى ، ثم لما بين (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) بين أن الحسنة تنفع المحسنين .

فقال ﴿ ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ﴾ أى فتزكيته لنفسه .

ثم قال تعالى ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى المتزكى إن لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير إلى الله يظهر عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء ، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة إذ المصير إلى الله .

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ «١٩» وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ «٢٠» وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ «٢١» وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ

ثم قال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ .

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والأعمى ، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفى تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات ؟ فنقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن فى ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور ، فالمؤمن بإيمانه فى ظل وراحة والكافر بكفره فى حر وتعب ، ثم قال تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) مثلا آخر فى حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير فى إدراك ما . والكافر غير مدرك إدراكا نافعاً فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا (وما يستوى الأعمى والبصير) وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) كأنه جعل هذا مقابلا لذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر كلمة النفى بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات ، ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة ، فالظلمة تنافى النور وتضاده والعمى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حياً محلا للحياة فيصير ميتاً محلا للموت ولكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان فى إدراك أشياء ، ولا كذلك الحى والميت ، كيف والميت يخالف الحى فى الحقيقة لا فى الوصف على ما تبين فى الحكمة الإلهية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الأشرف فى مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره فى مثلين وهو البصر والنور ، وفى مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخى أواخر الآى ، وهو ضعيف لأن تواخى الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى . وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول الكفار قبل النبى ﷺ كانوا فى ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبى ﷺ وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان فى زمان محمد ﷺ ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله فى الإلهيات سبقت رحمتى غضبى ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال (وما يستوى الأحياء) أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين ، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فان قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع فى أحدهما والواحد فى الآخر ، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت نعم بفضل الله وهدايته ، أما فى الأعمى والبصير والظل والحرور ، فلأنه قابل الجنس بالجنس ، ولم يذكر الأفراد لأن فى العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوى فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب فى موضع والأعمى الذى هو تربية ذلك المكان ، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه ، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوى به البليد البصير ، فالتفاوت بينهما فى الجنسين مقطوع به فان جنس البصير خير من جنس الأعمى ، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوى فى الإدراك حياً من الأحياء ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد ، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين ، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوى النور ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (وجعل الظلمات والنور) السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير . مثاله الشمس

إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ «٢٣» إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ «٢٤» وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ «٢٥»

إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذى يمسك الشعاع ، فان البيت الذى فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان فى مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثانى مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذى لا كوة له فانه لا يضىء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أى أمر كان من الأمور الثلاثة .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين (الأول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبى والوحى النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبى لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبى (والثانى) أن يكون المراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله ، فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من فى القبور ، فما عليك من حسابهم من شىء .

ثم قال تعالى ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بياناً للتسلية .

ثم قال تعالى ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ لما قال (إن أنت إلا نذير) بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير باذن الله وإرساله .

ثم قال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ تقريراً لأمرين (أحدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملا لتأذى القوم (وثانيهما) إلزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ماادعاه الرسل ويقرره .

وقوله تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾

يعنى أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم مافعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير)

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ «٢٦» أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

والكل آتيناها محمداً ، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين ، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب . واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات ، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعا ناسخاً ، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية ، ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر ، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب .

ثم قال تعالى ﴿ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ .

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام ، وقوله (فكيف كان نكير) سؤال للتقرير فانهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال .

ثم قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ .

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان (الأول) أن انزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فانه يقول له في الموضع الفلاني ، فان لم يره ، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعد ما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات ، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم ، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد ، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا

وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ «٢٧» وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ

ويكرر معه ماذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج إلى كلام أجنبى عن الأول ، بل يأتى بما يقارب به لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الأولى) قال أنزل وقال أخرجنا ، وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول : قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل) فإن كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله ، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال (إن الله أنزل) علم الله بدليل ، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين ، فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الإخراج أتم نعمة من الإنزال ، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب .

(اللطيفة الثانية) قال تعالى ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾

كأن قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع . ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره ، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بارادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض ، والجدد جمع جدة وهى الخطة أو الطريقة ، فان قيل الواو فى (ومن الجبال) ما تقديرها ؟ نقول هى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان ، وفى الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة ، رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال ، قال الزمخشرى : أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال فى موضع آخر (وفى الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر فى الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال مختلفاً كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال فى بعض نواحى الأرض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال جدد بيض ، أى مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ «٢٨»

ألوانها دلائل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مختلف ألوانهـا ، الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أى بيض مختلف ألوانها ، وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانهـا بعد البيض والحمر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب ، لأن الأسود لمـا ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود ، يقال أسود غربيب والمؤكد لا يجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرابيب سود ؟ نقول قال الزمخشرى : غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سواد غرابيب ، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالا آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليـه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الانسـان فقال (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها فى حياتها والأنعام منفعتها فى الأكل منها ، أو لأن الدابة فى العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها فى أنفسها دلائل ، كذلك فى اختلافها دلائل . وأما قوله (مختلف ألوانه) فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير أعلى وأولى .

ثم قال تعالى ﴿ إنمـا يخشى الله من عباده العلمـاء إن الله عزيز غفور ﴾

الخشية بقدر معرفة المخشى ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه . وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم . فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك فى علمه ، فان من يراه يقول : لو علم لعمل . ثم قال تعالى (إن الله عزيز غفور) ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لمـا دون ذلك يوجب الرجاء البالغ . وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم ويبجل .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ «٢٩» لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ «٣٠» وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ

ثم قال تعالى ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه . وقوله (يتلون كتاب الله) إشارة إلى الذكر .

وقوله تعالى ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدنى .

وقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى العمل المالى ، وفى الآيتين حكمة بالغة ، فقوله إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب ، وقوله (إن الذين يتلون) إشارة إلى عمل اللسان . وقوله (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم) إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأنا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده فى حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدى مرضت فما عدتنى ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدى فلان وما زرته ولو زرته لوجدتنى عنده ، يعنى التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

وقوله تعالى ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما تهيأ ، فان تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله (سراً) أى صدقة (وعلانية) أى زكاة . فان الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

وقوله تعالى ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أى ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشىء من الأشياء غير وجه الله ، فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .

وقوله تعالى ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أى ما يتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أى يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء فى تفسير الزيادة ﴿ إنه غفور ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شكور ﴾ عند إعطاء الزيادة .

ثم قال تعالى ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله (والله الذى أرسل

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

الرياح ، وقوله (والله خلقكم) وقوله (ألم تر أن الله أنزل) ذكر الأصل الثانى وهو الرسالة ، فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) تقريراً لما بين من الأجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (من الكتاب) يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الإرشاد والتبيين الذى أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هو الحق) آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين (أحدهما) أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر فى غاية الظهور لأن الخبر فى الأكثر يكون نكرة ، لأن الإخبار فى الغالب يكون إعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فاذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الاخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لاخلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحياً لأن النبى ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان مافى كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال إن هذا الوحى مصدق لما تقدم لأن الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى إنزال التوراة والإنجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن مامضى أيضاً مصدق له لأن الوحى إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ماتقدم مصدقا للقرآن لأن القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى ، وأما ماتقدم فلابد معه من معجزة تصدقه .

إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ «٣١» ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحى من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر ، فلا يكون باطلا فى وحيه لا فى الباطن ولا فى الظاهر (وثانيهما) أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل .

ثم قال تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها) أخبر بدخولهم الجنة وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ، ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والمعنى على هذا : إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولأن قوله (من عبادنا) دل على أن العباد أكابر مكرمون بالاضافة إليه ، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله فى كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلماً ، وعلى الوجه الأول الظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا (فمنهم ظالم) وهو المسىء (ومنهم مقتصد) وهو الذى خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً (ومنهم سابق بالخيرات) وهو الذى أخلص العمل لله وجرده عن السيئات ، فان قال قائل كيف قال فى حق من ذكر فى حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر فى كثير من المواضع ، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه فى غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ويصحح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ظالمنا مغفور له » وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأما الكافر فيضع قلبه الذى به اعتبار الجسد فى غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق ، وأما قلب المؤمن فمطمئن بالإيمان لا يضعه فى غير التفكر فى آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله ، وفى المراتب الثلاث أقوال كثيرة (أحدها) **الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذى**

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ «٣٢»

تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (ورابعها) الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالى العالم ، والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار ، والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى أخذ القرآن ولم يعمل ، به والمقتصد الذى عمل به ، والسابق الذى أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشىء فى غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد فى ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس ، ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوهاً (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله (باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ، (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال (ثم أورثنا الكتاب) أى جنس الكتاب ، كما قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخى وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً (ثم أورثناهم الكتاب) ، (ثانيها) كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين ، بل المعنى إن الذى أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتباً ، ومنهم أى من قومك

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ «٣٣»

ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً (وثالثها) قوله (جنات عدن يدخلونها) الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا ، نقول الداخلون هم السابقون ، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده ، ويدل عليه قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) وقوله (أذهب عنا الحزن) .

ثم قال ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفى الداخلين وجوه (أحدها) الأقسام الثلاثة وهى على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثانى) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله (يحلون) فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا (الله خلق السموات) وقول القائل : زيد بنى الجدار فان الله موجود قبل كل شيء ، ثم له فعل هو الخلق ، ثم حصل به المفعول وهو السموات ، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه ، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار ، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة ، فما الفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء فى يدخلونها ، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى أى المداخل يكون ، فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار ، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار ، فان بين المدخلين بوناً بعيداً (الثانى) قوله (يحلون فيها) إشارة إلى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال (يدخلونها) وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله (من أساور) بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهى جمع سوار ، وقوله (ولباسهم فيها حرير) ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ «٣٤» الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِه

يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى (الرابع) ذكر الأساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) وذلك لأن التحلى بمعنيين (أحدهما) إظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الأشغال لأن التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلى إما باللآلىء والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلىء يدل على أن المتحلى لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة ، والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا صرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدى وأكثر الأعمال باليد فانها للبطش ، فاذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلى .

ثم قال تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

فى الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغى وبقائه دائماً فان شيئاً منه لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته ، وقوله (إن ربنا لغفور شكور) ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله (الأول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادى قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم (غفور) ، (الرابع) قولهم (شكور) والغفور إشارة إلى ما غفر لهم فى الآخرة بما وجد لهم من الحمد فى الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم فى الآخرة من الحمد .

ثم قال تعالى ﴿ الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ أى دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا (الذى أحلنا دار المقامة) أى الإقامة والمفعول ربما يجىء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل ، وقال تعالى (مدخل صدق) وقال تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول فى الحقيقة ، فانه هو الذى فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفى قوله (دار المقامة) إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ «٣٥» وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ «٣٦»

العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق . وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقولهم (من فضله) أى بحكم وعده لا بايجاب من عنده .

وقوله تعالى ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ . اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل إذا بين أنه (لا يمسهم فيها نصب) علم أنه (لا يمسهم فيها لغوب) ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ، ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفى الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قال الله فى غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أما كنها على قسمين : (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والأراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التى فى الأسفار من من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء إلا بعد ما يستريح فقال تعالى (لا يمسنا فيها نصب) أى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى أفضل من المواضع التى هى مواضع مرجع العى ، فقال (ولا يمسنا فيها لغوب) أى ، لانخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الاعياء وقرىء (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا مايصلح لذلك ، وهذا لأن القوى السوى إذا قال ماتعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملا لم يكن بالنسبة إليه متعباً لقوته ، فإذا قال ما مسنى ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرته ، واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض ، وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذى يعيا منه مباشره .

ثم قال تعالى ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ عطف على قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله (جنات عدن يدخلونها) قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى (الذين يتلون كتاب الله) .

ثم قال تعالى ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أى لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .

وقوله تعالى ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾ أى النار وفيه لطائف

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ

(الأولى) أن العذاب فى الدنيا إن دام كثيراً يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسداً متمكنا لايحس به المعذب ، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، إما أن يفنى ، وإما أن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العذاب ، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولايجابون كما قال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) أى بالموت (الثالثة) فى المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ، ولم يقل نزيدهم عذاباً . وفى المثابين ذكر الزيادة بقوله (ويزيدهم من فضله) ثم لما بين أن عذابهم لايخفف .

قال تعالى﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ أى لايخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لايخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولايجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب

وقوله تعالى ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ أى صراخهم بهذا أى يقولون (ربنا أخرجنا) لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لاتأديب ، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه : لا أرجع إلى مافعلت وبئسما فعلت يتركه ، وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لايخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين أنه لا يقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجنى أفعل كذا وكذا .

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون فى الدنيا ضالا فهو فى الآخرة ضال كما قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار .

وعلى هذا قالوا ﴿ نعمل صالحاً ﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولامثنوية فيه ، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله ، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرنا كم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال .

وقولهم ﴿ غير الذى كنا نعمل ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم وكأن الله تعالى كما لم يهدهم فى الدنيا لم يهدهم فى الآخرة ، فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لابعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولاتنظر إلى معذرتنا الباطلة ، وكما هدى الله المؤمن فى الدنيا هداه فى العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الاجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكور إقراراً بوصول مالم يخطر ببالهم إليهم وقالوا (أحلنا دار المقامة من فضله) أى لاعمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا (أخرجنا نعمل صالحاً

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ «٣٧» إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٣٨»

إغماضاً فى حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته ، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل ، فان النبى ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات .

فقال تعالى ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله . وإما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم .

ثم قال تعالى ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقوله (فذوقوا) إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة . فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله (فما للظالمين من نصير) وقوله (وما للظالمين من أنصار) يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركباً ، وهو الذى يعتقد الباطل حقاً فى الدنيا (وما له من نصير) أى من علم ينفعه فى الآخرة ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى (فأتوا بسلطان) والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلا ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال فى آل عمران (وما للظالمين من أنصار) وقال (فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) وقال ههنا (فما للظالمين من نصير) أى هذا وقت كونهم واقعين فى النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال (ما لكم من نصير) أصلا ، وهناك كان الأمر محكياً فى الدنيا أو فى أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾

تقريراً لدوامهم فى العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولا يزاد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغى أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .

وفى قوله تعالى (بذات الصدور) مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهى أن لقائل أن يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ؟

هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا «٣٩» قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا «٤٠»

ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى إذا كان فيها ذلك ، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد ، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ، ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وإن كان هو فيها .

ثم قال تعالى ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾

تقريراً لقطع حجتهم فانهم لما قالوا (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) وقال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر) إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله (وجاءكم النذير) أى آتيناكم عقولا ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف ، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف فى الأرض ، أى خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فمن كفر ﴾ بعد هذا كله ﴿ فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذى لا يخدم سيده واللاحق الذى أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذى ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالى لهم الذى رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل .

ثم قال تعالى ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ أى الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ، ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة ، فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر .

ثم قال تعالى ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا «٤١»

تقريراً للتوحيد وإبطالا للاشراك ، وقوله (أرأيتم) المراد منه أخبرونى ، لأن الاستفهام يستدعى جواباً ، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع باع أو اشترى ، ولولا تضمنه معنى أخبرنى وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم ، وقوله (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام فى الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال شركاءكم ، أى الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم ، أى شركاءكم فى النار لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهو قريب ، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول وقوله (أرونى) بدل عن (أرأيتم) لأن كلاهما يفيد معنى أخبرونى ، ويحتمل أن يقال قوله (أرأيتم) استفهام حقيقى و (أرونى) أمر تعجيز للتبيين ، فلما قال (أرأيتم) يعنى أعلمتم هذه التى تدعونها كما هى وعلى ما هى عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة ، فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها ؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأرونى قدرتها فى أى شىء هى ، أهى فى الأرض : كما قال بعضهم : إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض ، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها ؟ أم هى فى السموات ، كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء فى خلق السموات ، وهذه الأصنام صورها ؟ أم قدرتها فى الشفاعة لكم ، كما قال بعضهم إن الملائكة ما خلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا ، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ وقوله (أم آتيناهم كتابا) فى العائد إليه الضمير وجهان (أحدهما) أنه عائد إلى الشركاء ، أى هل أتينا الشركاء كتاباً (وثانيهما) أنه عائد إلى المشركين ، أى هل آتينا المشركين كتاباً وعلى الأول فمعناه ما ذكرنا ، أى هل مع ما جعل شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله ، فان أحداً لا يشفع عنده إلا باذنه ، وعلى الثانى معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا فى السماء شيئاً من الأشياء ، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة ، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً ﴾ ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا «٤٢» اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

للرحمن ولداً) ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية (إنه كان حليما غفورا) كان حليما ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلماً ، وتحتمل الآية وجهاً (ثالثاً) وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الأرض شيئاً ولا فى السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلا عبادة لهم . وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ما كانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده) فاذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليما غفوراً ، حليما حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

ثم قال تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) وهذا مبالغة منهم فى التكذيب ، كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً على لقضيته وزدت له ، إظهاراً لكونه مطالباً بالباطل ، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أى محمد ﷺ جاءهم أى صح مجيؤه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورا ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا ، بعد الرسالة وقال بعض المفسرين إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه

واتبعناه ، وهذا فيه اشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسل ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وماجاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا فى شىء ؟ بل المراد ماذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولا من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله (فلما جاءهم) أى فلما صح لهم مجيؤه بالمعجزة ، وفى قوله (أهدى) وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله (من إحدى الأمم) للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى (فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا) أى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو ، وفى الأمم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أى أهدى من أى إحدى الأمم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أى أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان فى زمانهم .

ثم قال تعالى (استكباراً فى الأرض) ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أى مستكبرين فى الأرض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أى للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله (ومكر السيء) إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراً سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم ، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيء لكون السوء فيه أبين الأمور ، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا فى قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) أى يعملون السيئات ، ومكرهم السيء ، وهو جميع ماكان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول فى الايمان واظهار الانكار ، ثم قال (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى لا يحيط إلا بفاعله وفى قوله (ولا يحيق) وقوله (إلا بأهله) فوائد ، أما فى قوله (يحيق) فهى أنها تنبيء عن الإحاطة التى هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس فى قوله ولا يلحق أو ولا يصل ، وأما فى قوله (بأهله) ففيه ماليس فى قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا بالماكر ، كى لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيء ، وأما فى النفى والإثبات ففائدته الحصر بخلاف مايقول القائل المكر السيء يحيق بأهله ، فلا ينبيء عن عدم الحيق بغير أهله ، فان قال قائل كثيراً مانرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المكر المذكور فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فان النبى عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبى ﷺ أنه قال « لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فان الله يقول ولا يحيق المكر السيء

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا «٤٣»

إلا بأهله » وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به [لا] يكون أهلا فلا يرد نقضاً (وثالثها) أن الأمور بعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ، ويبين هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى إذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها ، فيهلكون كما هلك الأولون .

وقوله تعالى ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أى ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ لأنها سنة من سنن الله ، إذا علمت هذا فنقول أضافها فى الأول إليهم حيث قال (سنة الأولين) لأن سنة الله الإهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الأولين تميزت وفى الثانى أضافها إلى الله ، لأنها لما علمت فالاضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار ، وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتى بسنة لاتبديل لها ولا تحويل عن مستحقها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار ؟ نقول بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) حصل العلم بأن العذاب لاتبديل له بغيره ، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع أنه لاتبديل له بالثواب لايتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسىء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المخاطب بقوله (فلن تجد) يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً (أحدهما) أن يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله أنه لايهلك ما بقى فى القوم من كتب الله إيمانه ، فاذا

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا «٤٤»

آمن من فى علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح (إنك إن تذرهم) أى تمهل الأمر وجاء وقت سنتك .

ثم قال تعالى ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم ياأهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى (وكانوا أشد منهم قوة) قد ذكرناه فى سورة الروم ، بقى فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال هناك (كانوا أشد) من غير واو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمنى وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم ، وإذا قال أما رأيته كيف أكرمنى هو أعظم منك يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثانى فى الظهور مثل الأول بحيث لايحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أى نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها) وفى موضع آخر قال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

وقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بياناً لهم أى أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لايعجزوه (والثانى) أن يكون قطعاً لأطماع الجهال فان قائلا لو قال هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكننا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا «٤٥»

بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما) بأفعالهم وأقوالهم (قديراً) على إهلاكهم واستئصالهم .

ثم قال تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فان الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله إيمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه (أحدها) أن خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولا ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامى إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (الثاني) هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الأشياء بالانسان كما أن بقاء الإنسان بالاشياء وذلك لأن الانسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الإنسان فاذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الانسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف (الثالث) هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فاذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف علي وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى (ماترك على ظهرها من دابه) (الوجه الثالث) لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (على ظهرها) كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول بما تقدم وبما تأخر ، أما ما تقدم فقوله (وماكان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها ، وأما ما تأخر فقوله (من دابة) لأن الدواب علي ظهر الأرض ، فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض

وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وجوه : (أحدها) إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فاذا جاء أجلهم ، فان الله كان بعباده بصيراً) تسلية للمؤمنين للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال (ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان لتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة ، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر . وقوله (بصير) اللفظ أتم فى التسلية من العليم وغيره لأن البصير بالشىء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

﴿ سورة يس ﴾

(ثمانون وثلاث آيات مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

يس «١» والقرءان الحكيم «٢»

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قد ذكرنا كلاماً كلياً فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا أن فى كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثاً :

﴿ البحث الأول ﴾ هو أن فى ذكر هذه الحروف فى أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لايصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلى من الحكمة فيها ، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفاً وهى نصف ثمانية وعشرين حرفاً ، وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم ، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس هذا أمراً يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة ، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعى فيه شيئاً فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن . و ق . و ص . وبعضها بحرفين كسورة حم . ويس . وطس . وطه . وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم . وطسم . والر . وبعضها بأربعة كسورتى المر . والمص . وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حمعسق . وكهيعص . وهب أن قائلا يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام ، إما حرف ، وإما فعل ، وإما اسم ، والحرف كثيراً ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «٣»

وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى فى الحرف وإلى وعلى فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء فى القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه ، فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها مالم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذى [هو] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الأعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه ومالم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتى به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزاً هو لك ينقلها وإن لم يؤمن ، إذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها مالا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهى فاذا قال (حم ، يس ، الم ، طس) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

﴿ البحث الثانى ﴾ قيل فى خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس) أى أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده (إنك لمن المرسلين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبنى كحيث ، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرئ يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى ﴿ والقرآن الحكيم ﴾ أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم .

وقوله تعالى ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ مقسم عليه وفيه مسائل :

عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٤»

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة فى الإقسام ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى ﷺ ذلك بقوله «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» ثم إنهم كانوا يقولون إن النبى ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأناً وأمنع مكاناً فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب (الثانى) هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لايجوز أن يأتى هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فيقول والله إنى لست مكابراً وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فهنا يتعين اليمين ، فكذلك النبى ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم) (وقالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو أن هذا ليس بمجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج فى صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم لم يذكر فى صورة الدليل ؟ وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين ؟ قلنا الدليل أن ذكره(١) فى صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعى على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام ، ولكونه دليلا شافياً يتشربه الفؤاد فيقع فى السمع وينفع فى القلب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثانى) أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبى ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذى يوجب ثقتهم به .

وقوله تعالى ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر بعد خبر أى إنك على صراط مستقيم والمستقيم

(١) فى الأصل « أن ذكر لا » ولما كان لا معنى لها فما لاشك فيه أنها مصحفة عما ذكرناه ، لأن كتابة الهاء المربوطة فى الخط قريبة من « لا » فى الصورة فهى مصحفة عنها .

تَنْزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ «٥» لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ «٦»

أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم ، وإنما المقصود بيان كون النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله (على صراط مستقيم) فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما دامو فى الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز .

وقوله تعالى ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال (والقرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، إنك لمن المرسلين لتنذر) وقرىء بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثانى) أنه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعنى تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر ، وهذا مااختاره الزمخشرى وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله (العزيز الرحيم) إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول المرسل يكون معه فى رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة .

وقوله تعالى ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

قد تقدم تفسيره فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، فتكون ما مصدرية (الثانى) أن تكون موصولة معناه : لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون ، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فان من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلا ، وعلى قولنا هى للاثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فانهم غافلون ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضى أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد ؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافى أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين .

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٧»

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) يقتضى أن لا يكون النبى صلى الله عليه وسلم مأموراً بانذار اليهود لأن آباءهم أنذروا ، نقول ليس كذلك ، أما على قولنا ما للاثبات لا للنفى فظاهر ، وأما على قولنا هى نافية فكذلك ، وقد بينا ذلك فى قوله تعالى (بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فان الله إذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبى ويأمر به لا يرسل الرسول فى أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر ، فمعنى قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ماضلوا ، فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فهم غافلون) دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولا ، وكذلك من خالف الأمور التى لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة ، وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه أن الله تعالى لو خلق فى قوم علماً بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل .

ثم قال تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للانذار ، أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء ، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى (لقد حق القول) وجوه (الأول) وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى (حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك) ، (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض أنه لا يؤمن ، وقال فى حق غيره أنه يؤمن (فحق القول) أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل فى مهلة النظر يرجى منه الايمان إذا بان له البرهان ، فاذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضى وقت رجاء الايمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عند ماحق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان

إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ «٨»

وعند العيان لا يفيد الإيمان ، وقوله (على أكثرهم) على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثانى ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

ثم قال تعالى ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال (إنا جعلنا) وفيه وجوه (أحدها) أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون فى سبيل الله كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) (والثانى) أن الآية نزلت فى أبى جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه . (والثالث) وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول : (الوجه الأول) له مناسبة وهى أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون ، وأما على الوجه الثانى فمناسبة خفية وهى أنه لما قال (لقد حق القول على أكثرهم) وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهى) راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى الأيدى وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون أيديه مجموعة فى الغل إلى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشرى أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطىء رأسه.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف يفهم من الغل فى العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية . فنقول المغلول الذى بلغ الغل إلى ذقنه وبقى مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذى عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذى يهديه النبى إلى الصراط المستقيم العقلى جعل ممنوعا كالمغلول الذى يجعل ممنوعا من إبصار الطريق الحسي ، ويحتمل وجها آخر وهو أن يقال الأغلال فى الأعناق

وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَــدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ «٩»

عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطىء رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ، ويصدق هذا قوله (مقمحون) فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبى يقال بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم مقمحون) لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وعلى هذا فقوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً) إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للايقان . أما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولا واتباع الرسول ثانياً ، ولا يتبعون الرسول أولا لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولا لأنهم واقعون فى السد فلا يتبعون الرسول ثانياً (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون فى النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما فى النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التى فى أنفسهم كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التى فى الآفاق وعلى هذا فقوله (إنا جعلنا فى أعناقهم) (وجعلنا من بين أيديهم) إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وفى تفسير قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ السد من بين الأيدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون وينبغى أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سداً) فلا يقدرون على السلوك ، وأما السد من خلفهم ، فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه : (الأول) هو أن الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول (جعلنا من بين أيديهم سداً) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التى هى نظرية (وجعلنا من خلفهم سداً) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى) هو أن الانسان مبدأه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «١٠»

المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم) إشارة إلى إهلاكهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فأغشيناهم) بحرف الفاء يقتضى أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بياناً لأمور مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) فلا يبصرون ما فى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئاً أصلا (وثانيهما) هو أن ذلك بيان لكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فللحجاب ، وأما عين السد فلكون شرط المرئى أن لا يكون قريباً من العين جداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر السدين من بين الأيدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ فنقول ، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شىء ومولين عن شىء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سبباً للاغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة ، وغير ضال .

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء . بقوله تعالى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين ، فان قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع أنه تعالى قال (سواء عليهم) وما قال سواء

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ «١١»

عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا ، وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار .

ثم قال تعالى ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال (إنما تنذر) وهو يقضى التخصيص فكيف الجمع بينهما ؟ نقول من وجوه : (الأول) هو أن قوله (لتنذر) أى كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله (إنما تنذر) أى الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى (الثاني) هو أن الله تعالى لما قال إن الارسال والانزال ، وذكر أن الانذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد إنك بإنذارك تهدى ولا تدرى من تهدى فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو أن نقول قوله (لتنذر) أى أولا فاذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى ، فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول ، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من اتبع الذكر) يحتمل وجوهاً (الأول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثاني) من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) فما جعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه : إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقوله (اتبع الذكر) أى آمن ، وقوله (وخشى الرحمن) أى عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله (فبشره بمغفرة وأجر كريم) لأنا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام ، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى (والقرآن الحكيم) وقوله (وخشى الرحمن) فيه لطيفة وهى أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ «١٢»

لا ينبغى أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة (وتكملة اللطيفة) هى أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) حتى قال بعض الأئمة هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبىء عن العاطفية فقال فى موضع يرجو الله ، وقال ههنا (وخشى الرحمن) يعنى مع كونه ذاهيبة لاتقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لاتأمنوه ، وقوله (بالغيب) يعنى بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئى المشاهد فان عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة ، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوحدانية تدخل فيه ، وقوله (فبشره) فيه إشارة إلى الأمر الثانى من أمرى الرسالة فان النبى صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الانذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما أنذرت ونفعت ، وقوله (بمغفرة) على التنكير أى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لايرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية (وأجر كريم) أى ذى كرم ، وقد ذكرنا مافى الكريم فى قوله (ورزق كريم) وفى قوله (ورزقا كريما) .

ثم قال تعالى ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾

فى الترتيب وجوه (أحدها) أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله (فبشره بمغفرة) ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال إن لم ير فى الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إنا نحن) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبراً كقول القائل :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لايعرف يقال له من أنت ؟ فيقول أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أى لامعرف لى أظهر من نفسى فقال إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر (نحيي) كأنه قال إنا نحيي الموتى ، و(نحن) يكون تأكيداً والأول أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنا نحن فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيداً إذا شاركه غيره فى الاسم ، فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام ، لأن للسامع أن يقول : أيما زيد ؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفى قوله ابن عمرو ، فلما قال الله (إنا نحن) أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فنمتاز ، وحينئذ تصير الأصول الثلاثة مذكورة ؛ الرسالة والتوحيد والحشر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ونكتب ماقدموا) فيه وجوه (أحدها) المراد ماقدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما فى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) والمراد والبرد أيضاً (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى (بما قدمت أيديهم) أى بما قدمت فى الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الأعمال وآثارهم أى أعمالهم على هذا الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وآثارهم فيه وجوه (الأول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم » (والثانى) هى السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنية ، والحبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهى وأدوات المناهى المعمولة الباقية ، وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شىء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ماقدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الاحياء ولأنه تعالى لما قال (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك بياناً لكون ماقدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فان القلم جف بما هو كائن فلما قال (نكتب ماقدموا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكداً لمعنى قوله (ونكتب) لأن من يكتب شيئاً فى أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك فى إمام مبين وهذا كقوله تعالى (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ «١٣»

التخصيص كأنه تعالى يكتب ماقدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصى فى إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى (وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) يعنى ليس ما فى الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء جمعاً فى قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بأئمتهم وحينئذ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهراً للملائكة مايفعلون وللناس مايفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً فى الجنة وفريقاً فى السعير .

ثم قال تعالى ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القريه إذ جاءها المرسلون ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الأول) هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلا (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله (إنك لمن المرسلين) وقال (لتنذر قال قل لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) بل قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة . وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى إن الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبى عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا ، أى مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما معنى قول القائل ضرب مثلا ؟ وقوله تعالى (واضرب) مع أن الضرب فى اللغة ، إما إمساس جسم جسما بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف فى كقوله تعالى (إذا ضربتم فى الأرض) ؟ نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذاك من ضرب واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه فى الإعراب كقوله (واسأل القرية) هذا قول الزمخشرى فى الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ جاءها المرسلون . إذ منصوبة لأنها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا

(واضرب لهم) وقت مجىء المرسلين، ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشرى وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذظرف منصوب بقوله (اضرب) أى اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه ، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله (إذ أرسلنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون إذ أرسلنا بدلا من إذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أى جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أى لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا ، وهذا فيه لطيفة : وهى أن فى الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى انطاكية فقال تعالى إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله (إذ أرسلنا) وهذا يؤيد مسألة فقهية وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا (واضرب لهم مثلا) ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر .

وقوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾

فى بعثة الاثنين حكمة بالغة وهى أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن الله فكان عليهما انهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شىء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أى قوينا وقرىء فعززنا بثالث مخففاً ، من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النبى صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد فى الفروع مقبول ، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى لموسى عليه السلام (سنشد عضدك) فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق ، نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون ،

إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ «١٤» قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ «١٥» قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ «١٦»

وهرون بعث معه بطلبه حيث قال (فأرسله معى) فكان هرون مبعوثاً ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره ، وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هرون ، وأما ههنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ماجرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ كما قال (إنك لمن المرسلين) وبين ما قال القوم بقوله ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلا على عدم الإرسال ، وهذا عام من المشركين قالوا فى حق محمد (أأنزل عليه الذكر) وإنما ظنوه دليلا بناء على أنهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار ، وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان ، والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبقوله (الله يجتبى إليه من يشاء) إلى غير ذلك ، وقوله (وما أنزل الرحمن من شيء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ، ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحداً ، فكيف صرتم رسلا لله ؟ (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هوأنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئاً فى هذا العالم ، فإن تصرفه فى العالم العلوى وللعلويات التصرف فى السفليات على مذهبهم ، فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء فى الدنيا فكيف أنزل إليكم ، وقوله (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم ، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة ، فكيف لاينزل رحمته وهو رحمن ، فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لاينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئاً ، هو الرحمة الكاملة .

ثم قال تعالى ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ أى ما أنتم إلا كاذبين .

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله يجرى مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه ، وفى قوله (ربنا يعلم) إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعنى هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته ،

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ «١٧» قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ «١٨» قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ «١٩»

ثم قال ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسلية لأنفسهم ، أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثاً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا (ما علينا إلا البلاغ) كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك مما يحمل العاقل على النظر (والمبين) يحتمل أموراً (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل ، أى لا يكفى أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك .

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب ، فلما قال المرسلون (إنا إليكم لمرسلون) قالوا (إن أنتم إلا تكذبون) ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا (ربنا يعلم) أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الأول كنتم كاذبين ، وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين عليه ، و«اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» فتشاءمنا بكم ثانياً ، وفى الأول كما تركتم ففى الثانى لا نتركم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله (وليمسنكم) ترق كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم ، بل يؤدى ذلك إلى الضرب والإيلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذ فقوله (وليمسنكم) بيان للرجم ، يعنى ولا يكون الرجم رجماً قليلا نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد (لنرجمنكم وليمسنكم) بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا فى الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل بمعنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله (عيشة راضية) أى ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو ذو ألم ، وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير .

ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أى شؤمكم معكم وهو الكفر .

ثم قالوا ﴿ أئن ذكرتم ﴾ جواباً عن قولهم (لنرجمنكم) يعنى أتفعلون بنا ذلك ، وإن ذكرتم أي بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ «٢٠»

يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب فى حقه الإكرام أو (مسرفون) حيث تكفرون ، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان ، فان الكافر مسىء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً ، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الأشياء ، أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الإيلام والإكرام ، وأما فى الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فان قيل بل للاضراب فما الأمر المضرب عنه ؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مشؤمون ، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) وأما الحكاية فمشهورة ، وهى أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إنى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما ؟ قال الملك بلى ، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة ، فقال لهما شمعون : فهل لكما بينة ؟ قالا نعم ، فأبرآ الأكمه والأبرص وأحييا الموتى ، فقال شمعون : أيها الملك ، إن شئت أن تغلبهم ، فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، قال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذن ظهر الحق من جانبهم . فآمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة للمكذبين .

ثم قال تعالى ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ .

وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان : (أحدهما) أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى ، وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة (وثانيهما) أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ، ووصول الجزاء الأوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل) فى تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان : (الأولى) أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ «٢١» وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي

(الثانية) أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله (من أقصى المدينة) وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من فى (أقصى المدينة) والمدينة هى أنطاكية ، وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى (قال ياقوم اتبعوا المرسلين) فيه معان لطيفة (الأول) فى قوله (ياقوم) فانه ينبىء عن إشفاق عليهم وشفقة فان إضافتهم إلى نفسه بقوله (ياقوم) يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعونى فان قيل قال هذا الرجل (اتبعوا المرسلين) وقال ذلك اتبعونى فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعونى فى الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ، ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله (اتبعوا) نصيحة وقوله (المرسلين) إظهار أنه آمن (الثالث) قدم إظهار النصيحة على إظهار الايمان لأنه كان ساعياً فى النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله (رجل يسعى) يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر فى حكايته أنه كان يقتل وهو يقول «اللهم اهد قومى» .

ثم قال تعالى ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ وهذا فى غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال (اتبعوا المرسلين) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك أن الخلق فى الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل فى طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

ثم قال تعالى ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ لما قال (وهم مهتدون) بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحى القيوم ، ومن عبادة مالا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الأولى قوله (مالى) أى مالى مانع من جانبى . إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لاخفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولامانع من جانبى فلا جرم

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٢٢»

عبدته ، وفى العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى (ولطيفة ثانية) وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم ، لم يكن فى البيان مثل قوله (ومالى) لأنه لما قال (ومالى) وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال (مالكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فان قيل قال الله (مالكم لا ترجون لله وقاراً) نقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هو داع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال (ومالى لا أعبد) وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله (الذى فطرنى) إشارة إلى وجود المقتضى فان قوله (ومالى) إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى ، فقوله (الذى فطرنى) ينبىء عن الاقتضاء ، فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال (ومالى لا أعبد) باسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخالق زيد أظهر إيجاباً .

واعلم أن المشهور فى قوله (فطرنى) خلقنى اختراعا وابتداعا ، والغريب فيه أن يقال (فطرنى) أى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) وعلى هذا فقوله (ومالى لا أعبد) أى لم يوجد فى مانع فأنا باق على فطرة ربى الفطرة كافية فى الشهادة والعبادة فان قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر فى قوله (فاطر السموات) فنقول قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذى هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

وقوله تعالى ﴿ وإليه ترجعون ﴾ اشارة إلى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفاً وطمعاً وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً (فالأول) عابد يعبد الله ، لكونه إلهاً مالكا سواء أنعم بعد ذلك أولم ينعم ، كالعبد الذى يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء (والثانى) عابد يعبد

ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً

الله للنعمة الواصلة إليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الأول من يخدم الجواد، ومثال الثانى من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال (ومالى لاأعبد الذى فطرنى) أى هو مالكى أعبده لأنظر إلى ماسيعطينى ولأنظر إلى أن لايعذبنى وجعلهم دون ذلك فقال (وإليه ترجعون) أى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لاتعبدونه، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرنى لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره.

ثم قال تعالى ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ ليتم التوحيد، فان التوحيد بين التعطيل والاشراك، فقال ومالى لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال (أأتخذ من دونه) إشارة إلى نفى غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله، وفى الآية أيضاً لطائف (الأولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر، وذلك أن من أخبر عن شىء فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب، فاذا قال (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار، كأنه يقول استشرتك فدلنى والمستشار يتفكر، فكأنه يقول تفكر فى الأمر تفهم من غير إخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى (لطيفة عجيبة) وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله (الذى فطرنى) بين أن من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شىء مشارك للمعبود الذى اتخذ غير الله، لأن الكل محتاج مفتقر حادث، فلو قال لاأتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذى فطرك، ويلزمك عقلا أن تتخذ آلهة لاحصر لها، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لايكون إله، ولهذا قال تعالى (مااتخذ صاحبة ولا ولدا) وقال (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز، وإنما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال (ولم يتخذ ولداً) ولا يقال قال الله تعالى (فاتخذه وكيلا) فى حق الله تعالى حيث قال (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) نقول ذلك أمر متجدد، وذلك لأن الإنسان فى أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إنى أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لايشتغل بأمر أصلا ويترك أطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو، فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار، فقال الله لرسوله أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله، ولا إله يطلب لقضاء

إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ «٢٣»

الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلا ، وفوض جميع أمورك اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال ومعنى قوله (فاتخذه وكيلا) أى فى جميع أمورك وقوله تعالى (لا تغن عنى) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بى ضراً (وثانيهما) أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة .

ثم قال تعالى ﴿ إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (إن يردن الرحمن بضر) ولم يقل إن يرد الرحمن بى ضراً ، وكذلك قال تعالى (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) ولم يقل إن أراد الله بى ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة الملك ؟ يقول اختصها بزيد فيجعل المسئول مفعولا بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء ، وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول فى قوله تعالى (إن أرادنى الله بضر) المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ماتقدم حيث قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) يعنى هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر فى قوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصوداً بالذكر لزجرهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال (أو أراد بكم رحمة) نقول المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى (من بعده ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت فى قوله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) فان الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فانه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، والمقصود إنى على هدى وأنتم فى ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٢٤» إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ «٢٥»

المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (إن يردن الرحمن) وقال فى الزمر (إن أرادنى الله) فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك ؟ نقول أما الماضى والمستقبل فان إن فى الشرط تصير الماضى مستقبلا وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله (أأتخذ) وقوله (وما لى لا أعبد) والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله (أفرأيتم) وكذلك فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) لكون المتقدم عليه مذكوراً بصيغة المستقبل وهو قوله (من يصرف عنه) وقوله (إنى أخاف إن عصيت) والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف ، وهذا ما سبق منكم . وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير ، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران ، وأما قوله هناك (إن أرادنى الله) فنقول قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة ، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض) فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله (الذى فطرنى) فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال (إن يردن الرحمن بضر) ثم قال تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) على ترتيب ما يقع من العقلاء ، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولا فان قبله وإلا يدفع فقال (لا تغن عنى شفاعتهم) ولا يقدرون على إنقاذى بوجه من الوجوه ، وفى هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظراً إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظرا إلى إحسانه فهو رحمن ، وإن كان نظرا إلى الخوف فهو يدفع ضره ، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئاً إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع .

ثم قال تعالى ﴿ إنى إذاً لفى ضلال مبين ﴾ . يعنى إن فعلت فأنا ضال ضلالا بيناً . والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم ، ويمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الأمر للناظر والأول هو الصحيح .

ثم قال تعالى ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ فى المخاطب بقوله (بربكم) وجوه (أحدها)

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ «٢٦» بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي

هم المرسلون ، قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال : إنى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفى قوله (فاسمعون) فوائد (أحدها) أنه كلام مترو متفكر حيث قال (فاسمعون) فان المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) أنه ينبه القوم ويقول إنى أخبرتكم بما فعلت حتى لاتقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) أن يكون المراد السماع الذى بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولى أى قبله ، فان قلت لم قال من قبل (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) وقال ههنا (آمنت بربكم) ولم يقل آمنت بربى ؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه إليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال (أعبد الذى فطرنى) ثم قال (آمنت بربكم) فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى (الله ربنا وربكم) .

ثم قال تعالى ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الأول .

فقوله تعالى ﴿ قال ياليت قومى يعلمون ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى (قيل) وجهان كما أن فى وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة ، وهذا كما فى قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن) ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى) فى وجه جعل الأرض بالعة ماءها .

وفى قوله تعالى ﴿ بما غفر لى ربى ﴾ وجوه (أحدها) أن ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليث قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية ، كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى ، والوجهان الآخران هما المختاران .

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ «٢٧» وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ

ثم قال تعالى ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) والرجل كان من المؤمنين الصلحاء ، والمكرم على ضد المهان والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغنى الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه .

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فانه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (وما أنزلنا) باسناد الفعل إلى النفس ، وقال فى بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم ، وأما فى (ادخل الجنة) فقال قيل ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها ، وكثيراً ما ورد فى القرآن قوله تعالى (وقيل ادخلوا) إشارة إلى أن الدخول يكون دخولا بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رءوس الأشهاد يهنئه كل أحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟ نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر، وهذا من قوم أولئك فى النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص ؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم .

وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ «٢٨» إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ «٢٩» يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ، ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله (وما أنزلنا) يستلزم أنه لا يكون من المنزلين ؟ نقول قوله (وما كنا) أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) فى مثل تلك الواقعة جنداً فى غير تلك الواقعة ، فان قيل فكيف أنزل الله جنوداً فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال (وأنزل جنوداً لم تروها) ؟ نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد ﷺ .

ثم بين الله تعالى ما كان بقوله ﴿ إن كانت ﴾ الواقعة ﴿ إلا صيحة ﴾ وقال الزمخشرى أصله إن كان شىء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر ، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة .

وقوله تعالى ﴿ واحدة ﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .

وقوله تعالى ﴿ فاذا هم خامدون ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر ، ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لأن الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك ، أما الغضب فانهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال (فاذا هم خامدون) (وفيه وجه آخر) وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالأحجار تصير مياها ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان ، فقال خامدين بسببها لخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة .

ثم قال تعالى ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ أى هذا وقت الحسرة فاحضرى يا حسرة والتنكير للتكثير ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المتحسر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) لا متحسر أصلا فى الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

مَا يَأْتِيهِم مِّنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٣٠»

(وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطى ويمنع ولا يكون هناك شىء معطى إذ المقصود أن له المنع والاعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا ، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) أن قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للأمر وتهويلا له وحينئذ يكون كالألفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمنى ، أو نقول ليس معنى قولنا ياحسرة ويا ندامة ، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز فى بيان كونه تعالى قال (ياحسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا فى النداء ، فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكى عن حبيب أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعد ماقتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قرىء (ياحسرة) بالتنوين ، و(ياحسرة العباد) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرىء ياحسرة على بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿المسألة الرابعة﴾ من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقوله (ياعبادى الذين أسرفوا) وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار ، وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فان الاضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف مالا يكون فى قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى (وعباد الرحمن) من قبيل قوله (ان عبادى) وكذلك (عباد الله) .

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة فى الحس، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان مايدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزأوا واستخفوا واستهانوا

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ «٣١»

وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ «٣٢»

وقوله (ما يأتيهم) الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أى ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة (إلا كانوا به يستهزؤون) على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أى الباقون لايرون ماجرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل فى حقهم (ياحسرة) هم الذين قال فى حقهم (ألم يروا) ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله .

وقوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل فى المعنى عن قوله (كم أهلكنا) وذلك لأن معنى (كم أهلكنا) ألم يروا كثرة إهلاكنا ، وفيه معنى ، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لايرجعون ، وحينئذ يكون كبدل الاشتمال ، لأن قوله (أنهم إليهم لا يرجعون) حال من أحوال المهلكين ، أى أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيداً أدبه ، وعلى هذا فقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا إهلاكا لا رجوع لهم إلى من فى الدنيا (وثانيهما) هو أنهم لايرجعون إليهم ، أى الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعنى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك فى أن الإهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلا ، والثانى أظهر عقلا .

ثم قال تعالى ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شى

وقوله (وإن كل لما) فى إن وجهان (أحدهما) أنها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة فى المعنى ، والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيبويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما ، يؤيد هذا ما روى أن أبياً قرأ (وما كل إلا جميع) وفى قول سيبويه لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفى جمعا وهما لم وما فتأكد النفى ، ولهذا يقال فى

وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ «٣٣» وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ «٣٤» لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ «٣٥»

جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفى جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفى إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر ، قال الزمخشرى : فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعنى عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال : وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم يوجد ماذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ، كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبى نبى مرسل ، والواو فى وإن كل لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ماذكرت ، وأبين أن كلا لدينا محضرون ، وكذلك الواو فى قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾

كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟ نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) كذلك نحيى الموتى (وثانيهما) أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال (وآية لهم) نقول : الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشىء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشىء بطريق الرؤية لايذكر له دليل ، فان النبى وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) يعنى أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شىء فهو شهيد لك على كل شىء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفى قوله (أحييناها) ولا حاجة إلى قوله (وأخرجنا منها حباً) وغير ذلك ، وإن قلنا إنهـا للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة فى قوله (الأرض الميتة أحييناها) لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر ، ثم هب أنها غير كافية فقوله (الميتة أحييناها) كاف فى التوحيد فما فائدة قوله (وأخرجنا منها حباً) نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ماذكره الله تعالى فائدة . أما قوله (وأخرجنا منها حباً) فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى ، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياء تاماً لأن الأرض المخضرة التى لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته فى الحياة ، فكأنه قال تعالى الذى أحيا الأرض إحياء كاملا منبتاً للزرع يحيي الموتى إحياء كاملا بحيث تدرك الأمور ، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والأمر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهى مكان لهم لابد لهم منها فهى نعمة ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم ، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم فى السماء أو فى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب فى كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله (وأخرجنا منها حباً) كالإشارة إلى الأمر الضرورى الذى لا بد منه وقوله (وجعلنا فيها جنات) كالأمر المحتاج إليه الذى إن لم يكن لا يغنى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله (وفجرنا فيها من العيون) إشارة إلى الزينة التى إن لم تكن لا تغنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة ، لكنه لايكون على أحسن ماينبغى ، وكأن حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولايدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار ويعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين ، فيقول الله عز وجل كما فعلنا فى موات الأرض كذلك نفعل فى الأموات فى الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لابد لهم منه فى بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى إحياء تاماً كما أحيينا الأرض إحياء تاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال عند ذكر الحب (فمنه يأكلون) وفى الأشجار والثمار قال (ليأكلوا من ثمره) وذلك لأن الحب قوت لابد منه فقال (فمنه يأكلون) أى هم آكلوه ، وأما الثمار ليست كذلك ، فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعاً فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والقضب والزيتون والتين في مواضع ، نقول في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) وإلى قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى (فاكهة ونخل ورمان) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها ، وقوله تعالى (وفجرنا فيها من العيون) آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع ،فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجري في القنوات ، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها .

ثم قال تعالى (ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً في التفسير وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله (ليأكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال (وفجرنا فيها من العيون) وقال في الحب (فمنه يأكلون) عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا ؟ نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الانسان أعم وجوداً ، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله (من ثمره) عائد إلى أي شيء ؟ نقول المشهور أنه عائد إلى الله أي

سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ «٣٦»

ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهى أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهى ثمره ، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها فى حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع إلى المذكور أى من ثمر ما ذكرنا ، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب ، وحينئذ يكون الضمير عائداً إلى التفجير المدلول عليه بقوله (وفجرنا فيها من العيون) تفجيراً ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى (إنا صببنا الماء صباً) إلى أن قال (فأخرجنا به حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا) والتفجير أقرب فى الذكر من النخيل ، ولو كان عائداً إلى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما فى قوله (وما عملته) من أى الماءات هى ؟ نقول فيها وجوه : (أحدها) نافية كأنه قال (وما عملت) التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال والذى عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاً ويأكلون من ثمر الله الذى أخرجه من غير سعى من الناس ، فعطف الذى عملته الأيدى على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعنى يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله ، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ على قولنا ما موصولة ، يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أى بالتجارة كأنه ذكر نوعى ما يأكل الإنسان بهما ، وهما الزراعة والتجارة ، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التى لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذى لا يؤكل إلا بعد إصلاح ، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله (أفلا يشكرون) وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم .

ثم قال تعالى ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الأزواج كلها ، ومعنى سبح نزه ، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال (أفلا يشكرون) وشكر

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ «٣٧»

الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال (سبحان الذى خلق الأزواج) وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول ، لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى أن يكون عليه العاقل فقال (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) أو نقول لما بين الآيات قال : (سبحان الذى خلق) ماذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (كلها) يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هى واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لا يقال مما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيداً كل ماكان لى يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فاذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذا كانت من لبيان التخصيص ، أما إذا كانت لتأكيد العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شىء من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيده هذا قوله تعالى فى حم (الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) من غير تقييد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله (مما تنبت الأرض) يدخل فيها مافى الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله (ومما لا يعلمون) يدخل مافى أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومما لا يعلمون) فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخلق ، لكن التوحيد الحقيقى لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فانه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكناً .

ثم قال تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ﴾ .

لما استدل الله بأحوال الأرض وهى المكان الكلى استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى فان دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار

والشمس والقمر) ثم قال بعده (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً ، لكن المقصود أولا هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى (لا تسجدوا للشمس) ثم الحشر بدليل قوله تعالى (إن الذى أحياها لمحي الموتى) وههنا المقصود أولا إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر ، يدل عليه النظر فى السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة ، والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة . (أما بيان الأول) فذلك لأن الفلسفي يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان ، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال ، فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية ، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق ، فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقية ، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه ، فان أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولا ملا ، نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

(وأما بيان الثانى) فلأن المشبهى يقول لا يمكن وجود موجود إلا فى مكان ، فالله فى مكان . فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله فى زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجوداً ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال (وآية لهم الليل) ؟ نقول لما استدل بالمكان الذى هو المظلم وهو الأرض وقال (وآية لهم الأرض) استدل بالزمان الذى فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ فى الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال فى الأرض (وآية لهم الأرض الميتة) فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما معنى سلخ النهار من الليل ؟ نقول معناه تمييزه منه يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه ، وأما إذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره ، فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة إلى قوله (نسلخ منه النهار) ؟ نقول الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه ، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها ، وقوله (فاذا هم مظلمون) أى داخلون فى الظلام ، وإذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «٣٨»

وقوله تعالى ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره : وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه ، فهى كلها آية ، وقوله (والشمس تجرى) إشارة إلى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار ، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) بأمر الله فمغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله (والشمس تجرى لمستقر لها) إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه ، وقوله (لمستقر) اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة فى الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما فى قوله : دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للأكل ، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشىء يشبه سبب الشىء لأن الوقت يأتى بالأمر الكائن فيه ، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا (وأقم الصلاة لدلوك الشمس) لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زماناً أمرت بالجرى فجرت ، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أى إلى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس فجاز استعمال مايستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ (والشمس تجرى إلى مستقر لها) وعلى هذا ففى ذلك المستقر وجوه (الأول) يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى إلى الليل (الرابع) أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الأول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها إلى بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لاتميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ، ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها . فإن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ «٣٩»

فالشمس تجرى مجرى مستقرها ، وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لأمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى ليس لإدارتها وإنما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره إياها ، فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لايختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون اشارة إلى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أى الذى قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه (الأول) هو أن الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شيء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ، ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الأرض التى هى مسامتة لمرها وبقى المجموع مستولياً على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات فى باطن الأرض والأشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخريج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار (الثانى) هو أن الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروباً لئلا تكل القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة ، (الثالث) جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً فى مسامتة شيء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة .

ثم قال تعالى ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه ، والقمر قدرناه ذامنازل لأن ذا الشيء قريب من الشيء ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشيء كالقائم به الشيء فأتوا بلفظ الوصف .

وقوله (حتى عاد كالعرجون القديم) أى رجع فى الدقة إلى حالته التى كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ماغبر عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لاتشترط فى جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لايقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هى قديمة

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ «٤٠»

ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له سنة ، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال فى العالم إنه قديم ، لأن القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، واطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

ثم قال تعالى ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ .

إشارة إلى أن كل شىء من الأشياء المذكورة خلق(١) على وفق الحكمة : فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله (ولا الليل سابق النهار) قيل فى تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أى الليل لا يدخل وقت النهار والثانى بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر فى ليلة مقداراً ظاهراً فى الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس ؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر ؛ لبقى القمر والشمس مدة مديدة فى مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهى الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلا ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس ، فقوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) إشارة إلى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله (ولا الليل سابق النهار) إشارة إلى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة ، وعلى هذا ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الحكمة فى اطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الاشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فان الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال

(١) فى الطبعة الأميرية (خلقها) وهو تحريف واضح .

ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة إلى الحركة التى بها تتم الدورة فى مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو علها طلوع وغروب فى الليل والنهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك) بصيغة الفعل وقوله (ولا الليل سابق النهار) بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر؟ نقول الحركة الأولية التى للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة . والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكا لكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن خياطاً ، فان قيل قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله (ولا الليل سابق النهار) معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان فى عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فان قيل فلم ذكر ههنا (سابق النهار) وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد فى هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهى فى هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، ولا من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقضى منه ، وقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) يحقق ما ذكرنا أى للكل طلوع وغروب فى يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة فى فلك تخصه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التنوين فى قوله وكل عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير فى شىء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفى المعنى معرف بالاضافة ، فان قيل فهل يختلف الأمر عند الاضافة لفظاً وتركها ؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فاذا قال كل كذا يدخل فى الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة ، وهذا كما فى قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شىء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولا للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه .

(١) فى طبعة بولاق هذا « للافاضافة » وهو خطأ واضح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال (يسبحون) ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) مابينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب فى السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً ، وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية (وثالثها) لما قال (ولا الليل سابق النهار) والمراد ما فى الليل من الكواكب قال (يسبحون)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك ماذا ؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة ، فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة . وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى . ويدل عليه قوله تعالى (والسقف المرفوع) نقول ليس فى النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير إليه . أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لايخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) أن من أمعن فى السير فى جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائما ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبدياً ، ولو كان السماء مسطحاً مستوياً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فان بعضه حينئذ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى (الثانى) هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل[1] مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب فى منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم ثم فى قليل يستتر الكوكب الذى كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذى كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً (الثالث) هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر إذا انكسف فى ساعة من الليل فى جانب الشرق ، ثم سئل أهل الغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف فى ساعة أخرى قبل تلك الساعة التى رآى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على أن الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية

(١) الحمل من بروج الشمس الاثنى عشر وقد نظمت فى قول الشاعر : حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند ما يكون فوق رءوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعند ما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتد ، وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعند ما يكون على مسامتة رؤوسنا فى بحر السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء ، نقول لا تنازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا فى بحر السماء ، وبالجملة الدلائل كثيرة والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان ذلك العلم ، وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذى أوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديراً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا ، فما قولك فيه ؟ نقول : أما السبعة السيارة(١) فلكل فلك ، وأما الكواكب الأخر فقيل للكل فلك واحد . ولنذكر كلاماً مختصراً فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول : قيل إن للقمر فلكا لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية ، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر ، فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة أخرى حتى فى بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ، ثم إن أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته ، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة ، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه ، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب ، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ، وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة

---

(١) نظم بعضهم السبعة السيارة فى بيت وهو : زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار
والمراد من قوله شرى كوكب المشترى . ولم يكن معروفا غير هذه السبعة عند القدماء ، وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس .

على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أولا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لاتقبل الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز . أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا ، لأن قوله تعالى (يسبحون) يفهم منه أنه بشق والتئام ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على مابينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة ، فاذا جعلت فى الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها فى الأوج ، وإذا حصلت فى الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون فى الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقانى الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير ، وللمشترى ثلاثة كما لزحل ، وللمريخ كذلك ثلاثة ، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز ، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة . هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والإقتصار ونحن نقول لايبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال (يسبحون) وذلك لايطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذى يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شىء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق الأصنام (ما لكم لا تنطقون) وقوله (ألا تنطقون) .

وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ «٤١»

ثم قال تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) أنه تعالى لما من بإحياء الأرض وهى مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله (وحملناكم فى البر والبحر) ويؤيد هذا قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) إذا فسرناه بأن المراد الإبل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب فى الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ، ولها (وجه ثالث) وهى أن الأمور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثانى للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله (وآية لهم الليل) أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذى لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (إحداهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) (وثانيتهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فان الدواب زينة كما قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وقال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لا يقال بأن النافع ذكره فى قوله (جنات من نخيل وأعناب) فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعاً للضرورى ، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة فنى الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(أما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أى حملنا آباءكم فى الفلك والألف واللام للتعريف أى فلك نوح وهو مذكور فى قوله (واصنع الفلك) ومعلوم عند العرب فقال الفلك ، هذا قول بعضهم ، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلابد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وقال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك) إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس ، فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الأول) أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة فى ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله

(حملناذريتهم) بدل قوله (حملناهم) إشارة إلى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشرى ، ويحتمل عندى أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة فى وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أى لم يكن الحمل حملا لهم ، وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقا لاقيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لا يشترى بشىء ؟ يقول لا أحمل الصندوق وإنما أحمل مافيه (الثانى) هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي ﷺ عن قتل الذرارى ، أى النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أى أمثالنا فقوله (أنا حملنا ذريتهم) أى أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو أن الضمير فى قوله (وآية لهم) عائد إلى العباد حيث قال (ياحسرة على العباد) وقال بعد ذلك (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) وقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أناحملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ويريد بعضكم بعضاً ، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم فى الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً . فكذلك قوله تعالى (وآية لهم) أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم . وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها ، فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى فى سفينة نوح (وجعلناها آية للعالمين) أى بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فنقول قوله تعالى (حملنا ذريتهم) أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال (وآية لهم الأرض الميتة) إلى أن قال (فمنه يأكلون) لأن الأكل عام ، وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال (وترى الفلك فيه مواخر) جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال (فى الفلك المشحون) نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة ، والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدراً حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر

وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغى أن يلحق المشتق تغيير فى حركة أو حرف أو فى مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئنا بلفظ السجود ، فاذاً السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونها جمعاً مثل خشب ومرد وغيرهما ، فان قلت فاذا جعلته جمعاً ماذا يكون واحدها ؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول فى (إمام مبين) وفى قوله (ندعوا كل أناس[1] بامامهم) أى بأئمتهم عند قوله تعالى (إمام مبين) إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى (كل أناس[1] بامامهم) إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (وأما المعنوية) فنذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (حملنا ذريتهم) من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون فى الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال (حملنا ذريتهم) لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال (فى الفلك المشحون) فان امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجرى ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فان قيل قال تعالى (وحملناهم فى البر والبحر) ولم يقل (وحملنا ذريتهم) مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة ، لا دفع النقمة ، نقول لما قال (فى البر والبحر) عم الخلق ، لأن ما من أحد إلا وحمل فى البر أو البحر ، وأما الحمل فى البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ماحملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (المشحون) يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهى أن الآدمى يرسب فى الماء ويغرق ، فحمله فى الفلك واقع بقدرته ، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب فى الماء ، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال (الفلك المشحون) أثقل من الثقال التى ترسب ، ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله ، فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بارادة الله .

(١) من عجب أن نسخة المطبعة الأميرية رسم فيها « أناث » هكذا بالثاء فى الموضعين وهو تحريف ظاهر وخطأ فى القرآن .

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ «٤٢» وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ

(المسألة الثالثة) قال تعالى (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ، وذلك لأن حملهم فى الفلك هو العجب . أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبنى من خشب . وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لأحد إلا الله .

ثم قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) من حيث اللغة والمعنى . أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله (وآية لهم) وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

(المسألة الثانية) (من) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله ، وهذا على رأى الأخفش ، وسيبويه يقول : من لايكون صلة إلا عند النفى ، تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) ، (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) كأنه لما قال (خلقنا لهم) والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

(المسألة الثالثة) الضمير فى (مثله) على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وإن نشأ نغرقهم) ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فاصلا بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات فى قوله (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) وهذا كما قالوا فى قوله تعالى (ليأكلوا من ثمره) أن الهاء عائد إلى ماذكرنا ، أى من ثمر ماذكرنا ، وعلى هذا فقوله (خلقنا لهم) فيه لطيفة ، وهى أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وإن كنا ما حملناهم . وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان : (أحدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (ثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر ، فان قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ نقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا .

ثم قال تعالى (وإن نشأ نغرقهم) إشارة إلى فائدتين : (إحداهما) أن فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألست توافق أن من السفن ما ينقلب

فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَاهُمْ يُنقَذُونَ «٤٣» إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ «٤٤» وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٤٥»

وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله إغراقهم أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

وقوله تعالى ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أى لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .

وقوله تعالى ﴿ ولاهم ينقذون ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لاصريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) فقوله (لاصريخ لهم ولاهم ينقذون) فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لاصريخ لهم ولم يقل ولامنقذلهم وذلك لأن من لايكون من شأنه أن ينصر لايشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لاصريخ لهم ، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه فى الإنقاذ ولا يغلب على ظنه . وإنما يبذل المجهود فقال (ولا هم ينقذون) ولم يقل ولا منقذ لهم .

ثم استثنى فقال ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وهو يفيد أمرين : (أحدهما) انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أى فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لايؤمن فليتمتع زمانا ويزداد إثماً (وثانيهما) أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله (وآية لهم الأرض ، وآية لهم الليل ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لايتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لامثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولامثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى (لعلكم ترحمون) بحرف التمنى أى فى ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط ، وجواب قوله (إذا قيل لهم اتقوا) محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لايتقون أو يعرضون ، وإنما حذف لدلالة مابعده عليه وهو قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) وفى قوله تعالى (ما بين أيديكم وما خلفكم)

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ «٤٦»

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

وجوه : (أحدها) (ما بين أيديكم) الآخرة فإنهم مستقبلون لها (وما خلفكم) الدنيا فإنهم تاركون لها (وثانيها) (مابين أيديكم) من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق ، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى (ومتاعا إلى حين) (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فانه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) مع أن الرحمة واجبة ، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال (اتقوا) بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال (لعلكم ترحمون) يعنى أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا ، والحق ما ذكرنا من وجهين : (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لايجب عليه شيء (وثانيهما) هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فان الملك إذا كان فى قلبه أن يعطى من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لاتقتضى ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق .

ثم قال تعالى ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى (ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) ، (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يعنى إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا اليها وقوله (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) إلى قوله (لعلكم ترحمون) كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال (وإذا قيل لهم اتقوا) وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصراً على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وعلى هذا كانوا فى المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أى لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من

أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٤٧»

لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ .

إشارة إلى أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا ، فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم (أنفقوا) فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشىء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم فى التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى مايكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتى العذاب لا يكون إلا للبعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما فى الشفقة فقيل لهم (أنفقوا مما) أى بعض ماهو لله فى أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل مافى أيديهم ،بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما أن فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فان من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه ، لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره (الثالثة) قوله (مما رزقكم) إشارة إلى أمرين (أحدهما) أن البخل به فى غاية القبح فان أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولا وفيه مسائل أيضاً :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند قوله تعالى (واذا قيل لهم أنفقوا) حذف الجواب ، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال (وإذا قيل لهم أنفقوا) قالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) لكان كافياً ، فما الفائدة فى قوله تعالى (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء ، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام ، قال تعالى عنهم (قال الذين كفروا للذين آمنوا) إشارة إلى الرد ، وأما فى قولهم (اتقوا ما بين أيديكم) فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق فى قوله (وإذا قيل لهم أنفقوا) فكان جوابهم بأن

يقولوا أننفق فلم قالوا (أنطعم) ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لا نطعم ، وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

﴿المسألة الثالثة﴾ كان كلامهم حقاً فان الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله (مما رزقكم) فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما فى خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه ، وقوله (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

﴿أما اللغوية﴾ فنقول (إن) وردت للنفى بمعنى ما ، وكان الأرض فى إن أن تكون للشرط والأصل فى ما أن تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط واستعمل إن فى النفى ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذى يدخل عليه ما وأن لا يكون ثابتاً ، أما فى ما فظاهر ، وأما فى إن فلأنك إذا قلت إن جاءنى زيد أكرمه ينبغى أن لا يكون له فى الحال مجىء فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أى ما زيد بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ماتصنع أصنع ، والذى يدل على ماذكرنا أن ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا تقول إن جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلا وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن فى الشرط أصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس .

﴿ البحث الثانى ﴾ قد ذكرنا أن قوله (إن أنتم إلا) يفيد مالا يفيد قوله (أنتم فى ضلال) لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا فى غير الضلال .

﴿ البحث الثالث ﴾ وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أى فى ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال .

﴿ البحث الرابع ﴾ قد ذكرنا أن قوله (فى ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ، وقوله فى مواضع على بينة (وعلى هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه

﴿وأما المعنوية﴾ فهى أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال ، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا (أنطعم من

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «٤٨» مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

لو يشاء الله أطعمه) إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلا للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع مالم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمرونا بالإطعام (ووجه آخر) وهو أنهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعياً فى إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ولم يكن فى الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغى أن يكشف سبب الأمر والاطلاع على المقصود الذى أمر به لأجله . مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره ، فالأدب فى الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذ قال (أنفقوا مما رزقكم) لا يجوز أن يقولوا : لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه .

ثم قال تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها فى قوله (وإذا قيل لهم اتقوا) والإنفاق المذكور فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله (متى هذا الوعد) أى متى يقع الموعود به ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهى أن إن للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب ؟ نقول هى فى الصورة استفهام ، وفى المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب مع من فى قولهم (إن كنتم) ؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ليس فى هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله (هذا الوعد) إلى أى وعد ؟ نقول هو ما فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) من قيام الساعة ، أو نقول هو معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

ثم قال تعالى ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ أى لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير ، فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها ، فنقول الانتظار فعلى لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاماً حقيقياً قال ينتظرون انتظاراً غير حقيقى ، لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله . وقد ذكروا ههنا فى الصيحة أموراً تدل على

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ «٤٩» فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ «٥٠»
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ «٥١»

هولها وعظمها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرىء (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها إلى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالأخذ وتصل إلى من فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيما .

وقوله ﴿ تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة ، فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم ، ويحتمل أن يقال (يخصمون) فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء) ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها ، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشيا عليه ، ثم بين شدة الأخذ وهى بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا . وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال (لا يستطيعون) كلمة فكيف فعلا يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها ، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية ، فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفى قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) وجهان (أحدهما) ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية (وثانيهما) أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعنى يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا ، ومن يسافر سفراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصية .

ثم بين ما بعد بالصيحة الأولى فقال ﴿ ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾

أى نفخ فيه [مرة] أخرى كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى فى موضع آخر (ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون) وقال ههنا (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين (فإذاهم) يقتضى أن يكونا معاً نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المشى السريع لأن الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن السرعة مجىء الأمور كأن الكل فى زمان واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معـــا [كجلمود صخر حطه السيل من عل]

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟ نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق ، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل أن النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما التحقيق فى إذا التى للمفاجأة ؟ نقول هى إذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشىء قد يكون ظرفاً للشىء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك ، فاذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب . لكنه لم يكن معلوماً فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أين يكون فى ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع الله أجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالا على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً وأكثر ندماً من غيره .

﴿ المسألة السادسة ﴾ المسىء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، والنسلان هو سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول (ينسلون) من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (فاذا هم ينظرون) أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ فى الصور ، فيكون فى وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو فى زمان واحد . فقوله (فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) يعنى فى زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لا يكون إلا بعد مراتب .

قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَاوَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ «٥٢»

ثم قال تعالى ﴿ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ يعنى لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله (ونفخ فى الصور) يدل على أنهم بعثوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل : لو قال الله تعالى فاذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) على ماذكرنا إشارة إلى أنه تعالى فى أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع نسلانهم فى وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك مثل الحال لينسلون ، أى ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك ، فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا ، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل : قد عرفنا معنى النداء فى مثل يا حسرة وياحسرتا وياويلنا ، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال (ياحسرة على العباد) من غير إضافة ، وقالوا يا حسرتا ويا حسرتنا و ياويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولا بنفسه ، فكان كل واحد يقول : يا حسرتنا ويا ويلنا ، فقوله (قالوا ياويلنا) أى كل واحد قال يا ويلى ، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه تعلق (من بعثنا من مرقدنا) بقولهم (يا ويلنا) نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا (ياويلنا من بعثنا) أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول : هذا ذلك أم لا ؟ ويدل على ما ذكرنا قولهم (من مرقدنا) حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا (من بعثنا) إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به ، وقالوا (من مرقدنا) إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ما ذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما) هذا إشارة إلى البعث ، أى هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى (ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) ؟ نقول يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ «٥٣»

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٥٤»

الإضمار، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به.

﴿المسألة السادسة﴾ إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث، فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون؟ نقول: لما كان غرضهم من قولهم (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان؟ فله أن يقول لا تخف ويسكت، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب.

ثم قال تعالى ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾

أى ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة، يدل على النفخة قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هى التامة، بمعنى ما وقعت إلا صيحة، وقال الزمخشرى: لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال: إن كان، لأن المعنى حينئذ ماوقع شىء إلا صيحة: لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر، ويمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع أن قوله (إذا وقعت الواقعة) تأنيث تهويل ومبالغة، يدل عليه قوله (ليس لوقعتها كاذبة) فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال (إن كانت إلا صيحة) مؤنثة تأنيث تهويل، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها، والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة، وقوله (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجبارى لا اختيارى.

ثم بين ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾

فقوله (لا تظلم نفس) ليأمن المؤمن (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) لييأس المجرم الكافر وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ما الفائدة فى الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله (ولا تجزون) وترك الخطاب فى الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله (لا تظلم) ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون؟ نقول لأن قوله (لا تظلم نفس شيئاً) يفيد العموم وهو كذلك فانها لا تظلم أبداً (ولا تجزون) مختص بالكافر، فان الله يجزى المؤمن وإن لم يفعل فان الله فضلا مختصاً بالمؤمن وعدلا عاماً، وفيه بشارة.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ «٥٥» هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ «٥٦» لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ «٥٧»

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المقتضى لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال (محضرون) مجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالى أو للقاضى : جلست للعدل فلا تظلم ، أى ذلك يقتضى هذا ويستعقبه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يجزون عين ما كانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى (يجزون بما كانوا يعملون) فى فى المساواة كأنه عين ماعملوا يقال فلان يجاوبنى حرفاً بحرف أى لا يترك شيئاً ، وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هى للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أى إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ثم بين حال المحسن وقال ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ .

وقوله (فى شغل) يحتمل وجوهاً : (أحدها) (فى شغل) عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولاحساب ، وقوله (فاكهون) يكون متمماً لبيان سلامتهم فالله لو قال (فى شغل) جاز أن يقال هم فى (شغل) عظم من التفكر فى اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال (فاكهون) أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل يكون معناه هم فى عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا مالم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه : غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث أن الانسان

قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يؤتيه مايشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله (فاكهون) خبر إن ، و(فى شغل) بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً . وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرىء بالنصب والفاكه(١) الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون فى السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف ، وهو أنه أشار بقوله (فى شغل) عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ثم بين بقوله (فاكهون) عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قد لايكون واجداً للذة . فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله (هم وأزواجهم) وذلك لأن من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال (هم وأزواجهم) أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من فى النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ، ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : (أحدهما) أشكالهم فى الإحسان وأمثالهم فى الإيمان كما قال تعالى (من شكله أزواج)، (وثانيهما) الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما فى قوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) وقوله تعالى (ويذرون أزواجاً) فان المراد ليس هو الإشكال ، وقوله (فى ظلال) جمع ظل وظلال جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لايخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وقال (لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إشارة إلى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضاً وهى أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج فى البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب فى شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى (فى شغل فاكهون) إشارة إلى أنهم ليسوا فى تعب وقال (هم وأزواجهم) إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال (فى ظلال على الأرائك متكئون) إشارة إلى المكان وقال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله (متكئون) إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكىء فلا يتكىء إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لايقدر على الإتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً (والأرائك) جمع أريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو

(١) فى طبعة بولاق ، والفاكهة ، وهو خطأ واضح ، والفاكه اسم فاعل من فكه والتفكه التمتع والتعجب ، والفكاهة المزاح .

وما فوقه وقوله (لهم فيها فاكهة) إشارة إلى أن لاجوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما مأكولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى (ولحم طير مما يشتهون) يدل على التغاير وصدق الشهوة وهوالجوع لأنا نقول قوله (مما يشتهون) يؤكد معنىعدم الألملأن أكل الشيء قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (إحداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغاير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدح فى غرضنا ، لأنا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله (لهم فيها فاكهة) ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله (ولهم ما يدعون) فيه وجوه : (أحدها) (لهم فيها ما يدعون) لأنفسهم أى دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن الملك إذاطلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ماطلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى (ولهم مايدعون) ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون مايدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعنى كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أو نقول المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعندالعطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبارقد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب (الثانى) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل . ومعناه ماذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون فى الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لامولى لهم . فقال لهم فى الجنة مايدعون به فى الدنيا ، فتكون الحكاية محكية فى الدنيا ، كأنه يقول فى يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غداً ماتدعون اليوم ، لا يقال بأن قوله (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال) يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (هم) مبتدأ (وأزواجهم) عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه فى ظلال غداً وله ما يدعيه (والجواب الثانى)

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ «٥٨»

وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم مايدعون أى ما كانوا يدعون . لا يقال بأنه إضمار حيث لاضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله (سلام قولا من رب رحيم) هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله (مايدعون) ولأن قوله (ما يدعون) مذكور بين جمل كلها فى الآخرة فما يدعون أيضاً ينبغى أن يكون فى الآخرة وفى الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور .

وقوله تعالى ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذى لا شىء فوقه ولنبينه فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الرافع لقوله (سلام) ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً (أحدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال (لهم ما يدعون) بينه بيدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور، كما يقال فى الدار رجل ولزيد مال ، وإن كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما فى قوله تعالى (ما يدعون) لا موصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شىء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال (سلام) والأول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى (سلام) منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى فى يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل) ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما فى قوله تعالى (سلام على نوح ، سلام على المرسلين) فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قولا ، منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله (من رب رحيم) يكون لبيان أن السلام منه أى سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولا وقد

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ «٥٩»

يكون فعلا فإن من يدخل على الملك فيطأطىء رأسه يقول سلمت على الملك ، وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لا حساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لا ظناً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى السلام من رب رحيم وقال فى غيره من أنواع الإكرام (نزلا من غفور رحيم) فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم ، أما هناك فلأن النزل ما يرزق النزيل أولا ، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فان النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه فى الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه فى غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال (رب غفور) لأن رب الشيء مالكه الذى إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم ، فاذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه .

ثم قال تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضاً (الأول) امتازوا فى أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ) أى بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم (امتازوا اليوم) إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثانى) امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذى أشار إليه بقوله تعالى (هم وأزواجهم) فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة ، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمى دون التفرق العقلى (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير ، والمجرم هو الذى يأتى بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها ، كما قال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول (كن فيكون) كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو فى وجوههم سواء .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٦٠»

ثم قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولاً ، والجهل من الأعذار ، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغى أن تفعلوه وما لا ينبغى ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى اللغات التى فى (أعهد) وهى كثيرة (الأولى) كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين جيما ألم أجهد(١) وذلك فى كل عين بعدها هاء (الرابعة) إدغام الهاء فى الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محا ، أى دعها معها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص إليكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى هذا العهد وجوه (الأول) أنه هو العهد الذى كان مع أبينا آدم بقوله (وعهدنا إلى آدم) ، (الثانى) أنه هو الذى كان مع ذرية آدم بقوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى) فان ذلك يقتضى أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا فى حقيقته وكيفيته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا تعبدوا الشيطان) معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم فى قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول عبادة الشيطان فى مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففى بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو فى غيرك ، وفى بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فاذا جاءك شخص يأمرك بشيء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فان لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فان أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فان لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هى الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فان اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولا بمخالفة

(١) هكذا فى مطبعة بولاق أجهد بالجيم ويظهر أن الصواب هكذا ، قلب العين حاء ألم أحهد ، بدليل ما سيذكره فى اللغة الرابعة .

الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له اعبد الله كى لا تهان ، وليرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك ، فان أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها مايقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكونه متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالطاعة التى بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد فى الأخبار ، ومن ذلك قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم » وقوله ﷺ « السيف محاء للذنوب » أى لمثل هذه الذنوب ، ويدل عليه ما قال ﷺ فى الحدود « إنها كفارات » وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب فى الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعداء هم من عوام الناس ، فاذا صدر من الأمير مخالة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان فى غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فان صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فان كان الصادر من الحواشى الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يسدى إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذى حكى النبى ﷺ عن ربه أنه قال « لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم » ، (وههنا لطيفة) وهى أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك رافعاً لدرجة العبد ، فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى (لهم درجات عند ربهم) والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكياً عن ربه « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وفرق

بين من يكون عندالله ، وبين من يكون عنده الله ، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشىء فلم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه بحصل المقصود مقبولا لا غير مردود . ومن هذا يتبين أمر أصولى وهو أن الناس اختلفوا فى أن المذنب هل يخرج من الايمان أم لا ؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الإيمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الأنبياء من الذنوب ، والأشبه أن الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه ، والقلبى لايجوز عليهم ، ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر مايحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان ؟ فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم ، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثانى من الله كرم ، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق فى الخزانة ، فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً ، وأما الثانى فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ماكان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك ، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقاً ، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتماماً للاكرام وإكمالا للافضال ، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس ، فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه .

﴿ المسأله الثانية ﴾ من أين إبانة عداوة إبليس ؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ماكان يحمله على الإخفاء فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (لأحتنكن ذريته) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا كان الشيطان للانسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا ، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة ؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله ، فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصى كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال ، فترى المحموم يريد الماء البارد

وَأَنِ اعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦١»

وهو يريد فى مرضه . ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشىء وهو يزيد فى معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهى إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبى. لا يستغنى الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات ، فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فاذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة ، وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

ثم قال تعالى ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمرض ، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند المنع من عبادة الشيطان قال (إنه لكم عدو مبين) لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة . فيقول إنه يحبنى فلا حاجة إلى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيما ، وذلك لأن الانسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه ، والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شىء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى (هذا صراط مستقيم) كان ذلك سبباً حاثاً على السلوك ، وفى ضمن قوله تعالى (هذا صراط) اشارة إلى أن الانسان مجتاز لأنه لو كان فى دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيما ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن إلا فى مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان ، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجا والله تعالى يقول إن العمل الصالح

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ «٦٢» هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ «٦٣»

عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف مايستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العبادة تنبىء عن معنى التذلل . فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال (وأن إعبدونى) ينبغى أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أنه يرى نفسه خيراً من غيره ، فان نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغى أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ماسوى الله أن لا ينقاد لشىء إلا بإذن الله وفى هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه فى التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة جباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير . لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم وإنها تنبىء عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هى لاجتماع الأماكن الخالية التى تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمى بلداً للاجتماع لا للتفرق . فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وإن لم يكن صحيحاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : (أحدهما) أن الإضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد ، وهو يفضى إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية .

ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ .

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع فى مشقة ولو أقام فى وطنه لعل

اَصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ «٦٤» ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٦٥»

ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحركَ لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وذلك ظاهر فى المحسوس فان من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً .

ثم بين أنهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ . وفى هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه : (أحدها) قوله تعالى (اصلوها) فانه أمر تنكيل وإهانة كقوله ذق (إنك أنت العزيز الكريم) ، (والثانى) قوله (اليوم) يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) وقوله تعالى (بما كنتم تكفرون) فإن الكفر والكفران ينبىء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام . ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :

أليس بكاف لذى نعمة   حياء المسىء من المحسن

ثم قال تعالى ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ فى الترتيب وجوه : (الأول) أنهم حين يسمعون قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) يريدون [أن]ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم (ألم أعهد إليكم) لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفى الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشىء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسى الرءوس وقوف القنوط اليؤوس لا يجد عذراً فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدى والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكى على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية (فالأولى منها) هى أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال (نختم) وأسند

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ «٦٦»
وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ «٦٧»

الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لأنه لو قال تعالى (نختم على أفواههم) وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) أى باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى أن الله تعالى قال (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدى لأن الأفعال تسند إلى الأيدى قال تعالى (وما عملته أيديهم) أى ما عملوه وقال (ولا تلقوا بأيديكم) أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الأيدى كالعاملة ، والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها ، وأما المعنوية (فالأولى) منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة ، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم ، لا يقال الأيدى والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهى فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتها ، لأنا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها ، لأنها إن كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم ، والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الأمور ، لابد من أن يكون مذنباً فى الدنيا ، وإن صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق : إن كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر ، فقال الفاسق: كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد ، لأنه إن صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء ، وإن كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم ، فوجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه .

﴿المسألة الثانية﴾ الختم لازم الكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على أفواههم ، ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم ، كما قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم ، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء ، فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان .

ثم قال تعالى ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى ، والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس ، وههنا

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ «٦٨»

كذلك لما قال الله تعالى (وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير والشر عليهم ، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعمى البصيرة ويضعف القوة العقلية ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته ، إذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته ، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضى والرجوع ، فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية ، فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا إلى طريقهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر . وفى الآيتين أبحاث لفظية :

﴿ البحث الأول ﴾ فى قوله (فاستبقوا الصراط) قال الزمخشرى فيه وجوه (الأول) أنه يكون فيه حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله أعمال الابتدار (الثالث) أن يجعل الصراط مستبقاً لا مستبقاً إليه ، يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء إلى الطريق ، كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه ، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

﴿ البحث الثانى ﴾ قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال إن أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه ، فان قال قائل الأعمى قد يهتدى إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشى بحس اللمس ، فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قدم المضى على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضى ، لأن المضى لا ينبىء عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبىء عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال (لا يستطيعون مضياً) ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى .

ثم قال تعالى ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾

فقد ذكرنا أن قوله تعالى (ألم أعهد إليكم) قطع للأعذار بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ «٦٩»

وأتمه شرع فى قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت مناتقصيراً ، فقال الله تعالى (أفلا تعقلون) أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرنا كم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الإمكان ، فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتى به زمان الإزمان .

ثم قال تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾

فى الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله فى كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهى الوحدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر ، أما الوحدانية ففى قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وفى قوله (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) وأما الحشر ففى قوله تعالى (اصلوها اليوم) وفى قوله (اليوم نختم على أفواههم) إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما علمناه الشعر) إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفى تفسير الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ خص الشعر بنفى التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبى ﷺ أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبى ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول . وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك . وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عند ما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما معنى قوله (وما ينبغى له) ؟ قلنا قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون مايتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم « ويأتيك من لم تزود بالأخبار[١] » . (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو أن يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ماكان يليق به ولا يصلح له ، وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير

(١) وأصل البيت : ويأتيك بالأخبار من لم تزود . فقد أخرجه التغيير عن الوزن الشعرى .

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ «٧٠»

المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتى به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد إلى وزنه قصداً أولياً ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ليس بشعر ، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد مافى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه ، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية ، وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً ، لعدم قصده اللفظ قصداً أولياً ، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس فى الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولا ، ثم قوله تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى ، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى ، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى ﷺ شعره حكمة ، ونفى الله كون النبى شاعراً ، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لانظر إلى القالب ، فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما ، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه ، والشاعر الموعظ كلامه حكيما .

ثم قال تعالى ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ .

قرىء بالتاء والياء ، بالتاء خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله (وما علمناه) وقوله (وما ينبغى له) . (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى (والثانى) أقرب إلى اللفظ ، أما الأول فلأن المنذر صفة للرسل أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (وأما الثانى) فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله (لينذر) وقوله (من كان حياً) أى من

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ «٧١» وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ «٧٢» وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ «٧٣»

كان حى القلب ، ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حياً فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حياً فى نفس الأمر ، أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب (ويحق القول على الكافرين) أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى (حقت كلمة العذاب) وذلك لأن الله تعالى قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فاذاً جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب ، وأما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب .

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا .

وقوله تعالى ﴿ فهم لها مالكون ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام فى خلق الأنعام ، فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها .

وقوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع ، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهى نادة صادة لما تم الإنعام الذى فى الركوب وإن كان يحصل الأكل كما فى الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذى فى الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ [إلا](1) للبعض وفى البعض .

وقوله تعالى ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود .

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ وذلك لأن من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والأدوات من القرب [وغيرها] ، وإن قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهى مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث .

ثم قال تعالى ﴿ أفلا يشكرون ﴾ هذه النعم التى توجب العبادة شكراً ، ولو شكرتم لزادكم

---

(1) ما بين المربعين زيادة اقتضاها السياق .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ «٧٤» لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ «٧٥» فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ «٧٦» أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ

من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟

ثم قال تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة .

وقوله تعالى ﴿ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد ، وهذا كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله (أولئك في العذاب محضرون) وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثاني) أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال (لا يستطيعون نصرهم) أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الإستطاعة ، فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .

وقوله تعالى ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه .

وقوله تعالى ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين فقوله (ما يسرون) من النفاق (وما يعلنون) من الشرك (والثاني) ما يسرون من العلم بك وما يعلنون من الكفر بك (الثالث) ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة .

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) ذكر دليلا من الأنفس .

فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبي بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما بالياً وأتى النبي ﷺ وقال إنك تقول إن إلهك يحيي هذه العظام فقال رسول الله ﷺ نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت في أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ «٧٧» وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

لا بخصوص السبب ، ألا ترى أن قوله تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أو لم يروا خلق الأنعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى (أو لم ير الإنسان) كلام أعم من قوله (أو لم يروا) لأنه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فان الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها عند غيبتها ولكن [لا يغفل] هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون . فقال : إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه ، فما باله أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة ، فان سائر النعم بعد وجوده وقوله (من نطفة) إشارة إلى وجه الدلالة ، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو ، وكذلك الحال فى كل عضو ، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وإلى هذا أشار بقوله تعالى (يسقى بماء واحد) .

وقوله ﴿ فاذا هو خصيم مبين ﴾ (فيه لطيفة) غريبة وهى أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فهب أن جاهلا يقول إنه استحال وتكون جسما آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة ؟ فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والإختيار منه أقرب فقوله (خصيم) أى ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فان الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله (مبين) إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى (من نطفة) إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله (خصيم مبين) إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى أن قال تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما إشارة إلى التغيرات فى الجسم وقوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (فاذا هو خصيم مبين) أى ناطق عاقل .

ثم قوله تعالى ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفى هذه الآيات إلى

قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ «٧٨» قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ «٧٩»

آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى ، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال ﴿ قال من يحيي العظام وهى رميم ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بإبطال استبعادهم بقوله (ونسى خلقه) أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصى إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ماليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي[ن] بهما استحقوا الإكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، ثم إن استبعادهم كان من جهة مافى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا (من يحيي العظام وهى رميم) اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة مافى المعيد من القدرة والعلم فقال (وضرب لنا مثلا) أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت فى آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ، وأجاب عن هذه الشبهة .

بقوله تعالى ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ يعنى كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً (وثانيهما) أن من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل أنساناً وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فأجزاء المأكول ، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء .

فقال تعالى فى إبطال هذه الشبهة ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ ووجهه هو أن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفى المأكول كذلك ، فاذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلى من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هى ما كان له قبل الأكل (والله بكل

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ «٨٠» أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ «٨١» إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ «٨٢»

خلق عليم) يعلم الأصلى من الفضلى فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة فى البقاع ، المبددة فى الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم .

فقال تعالى ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهى كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فان النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) .

وقوله تعالى ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الأكبر ، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الأحياء حيث قالوا (من يحيى العظام) ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة .

وقوله تعالى ﴿ بلى وهو الخلاق ﴾ إشار إلى أنه فى القدرة كامل .

وقوله تعالى ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل .

ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا الله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك . وفى الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شىء لأنه يقول لما أراده (كن فيكون) فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شىء حيث قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً) والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشىء عن تعلق إدارته به ، فقوله (إذا) مفهوم

الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة به شيء موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة ، فاذاً الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجاداً لموجود ؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه ، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد ، وليس فى الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الارادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى (إذا أراد) ووجه دلالته من أمرين : (أحدهما) من حيث إنه جعل للارادة زماناً ، فان إذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله (كن) وقوله (كن) متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال (فيكون) بفاء التعقيب لكن الكون حادث . وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم فى هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة ، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله (إذا أراد) من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشيء لأن قوله (أراد) فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشيء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها مريد ، ولنضرب مثالا للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ، ولله المثل الأعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أى يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

﴿ البحث الثالث ﴾ قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله (كن) كلام (وكن) من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين : (أحدهما) أنه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى (يقول له) باللام للاضافة صريح فى التعلق

فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٨٣»

ونحن نقول إن قوله للشىء الحادث حادث لأنه مع التعلق ، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما فى الأزل وإنما تجدهما جميعاً فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم ، فتفكر جداً ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك ، فان ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث ، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل أحد طرفى المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معـــه فى الأزل ، وأما قوله (كن) من الحروف ، نقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثانى) ما عند السامع ، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد . أما بيان ما ذكرناه ، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندى كلام أريد أن أقوله لك غداً ، ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام الذى كان عنده أمس ، فيقول له إنى أريد أن تحضر عندى اليوم ، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذى سمعت هو الذى كان عندى ، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف ، لأن الكلام الذى عنده جاز أن يذكره بالعربى فيكون له حروف ، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر ، والكلام الذى عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة ، فاذاً معنى قوله هذا ماكان عندى ، هو أن هذا يؤدى إليك ماكان عندى ، وهذا أيضاً مجاز ، لأن الذى عنده ما انتقل إليه ، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر فى القراءة والكتابة أو الإشارة ، إذا علمت هذا فالكلام الذى عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان ، والذى يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق ، فاذا قال تعالى (يقول له) حصل قائل وسامع . فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنـه بالكاف والنون الذى يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب .

ثم قال تعالى ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾

لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك (الذى بيده ملكوت كل شىء) وكل شىء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا ، وقالوا بأن الإعادة لاتكون ، فقال (وإليه ترجعون) رداً عليهم فى الأمرين ، وقد ذكرنا مايتعلق بالنحو فى قوله : سبحان ، أى سبحوا تسبيح الذى أو سبح من فى السموات والأرض تسبيح الذى (فسبحان) علم للتسبيح ، والتسبيح هو التنزيه ، والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت ، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقاً به .

ثم إن النبى ﷺ قال « إن لكل شىء قلباً وقلب القرآن يس » وقال الغزالى فيه : إن ذلك لأن الايمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر فى هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك ، واستحسنه فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى(١) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله (إنك لمن المرسلين) ودليلها ما قدمه عليها بقوله (والقرآن الحكيم) وما أخره عنها بقوله (لتنذر قوماً) وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وإليه ترجعون) إشارة إلى الحشر ، وليس فى هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذى بالجنان . وأما وظيفة اللسان التى هى القول ، فكما فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وفى قوله تعالى (ومن أحسن قولا) وقوله تعالى (بالقول الثابت ، وألزمهم كلمة التقوى ، وإليه يصعد الكلم الطيب) إلى غير هذه مما فى غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل ، كما فى قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا . . ولا تقتلوا النفس) وقوله (واعملوا صالحاً) وأيضاً مما فى غير هذه السورة ، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً ، ولهذا ورد فى الأخبار أن النبى ﷺ ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت ، وقراءتها عند رأسه ، لأن فى ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ماسواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهى شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لا نقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين .

تم تفسير هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

---

(١) قوله « واستحسنه فخر الدين الرزاى إلخ » يفيد أن المتكلم غير المؤلف ، فلعل هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف رحمهما الله .

﴿ سورة الصافات ﴾

(مائة واثنتان وثمانون آية مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا «١» فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا «٢» فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا «٣» إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ «٤» رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ «٥»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفاً) بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك فى قوله (فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) والباقون بالإظهار ، وقال الواحدى رحمه الله : إدغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان فى الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص فى الأزيد حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً فى الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء فى الزاى فى قوله (فالزاجرات زجراً) حسن لأن التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان فى الصاد ، وأيضاً حسن إدغام التاء فى الذال فى قوله (فالتاليات ذكراً) لاتفاقهما فى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه (الأول) أنها صفات الملائكة ، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفاً . إما فى السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون) وقيل إنهم يصفون أجنحتهم فى الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة أو فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله (فالزاجرات زجراً) فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته ليمضى ، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أى نهيته فانتهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان

كالنهى ،إذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الأول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذى وكلوا بالسحاب يزوجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع (الثانى) المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجراً (الثالث) لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والإيذاء، وأقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر فى شىء ويتأثر عن شىء آخر وهوعالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله ، ثم إنها تؤثر فىعالم الأجسام ، واعلم أن الجهة التى باعتبارها تقبل الأثرمن عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله (فالتاليات ذكراً) اشارة إلى الأشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلىالفعل ، وذلك لما ثبت أنهذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل فى المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله تعالى (فالملقيات ذكراً) إذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة أخرى وهى أن الكمال المطلق للشىء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ، ومن المعلوم أن كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره ، إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إزالة ما لا ينبغى عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية ، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة ، قال أبو مسلم الأصفهانى لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ، والجواب من وجهين (الأول) أن الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوى ، أما التأنيث فى

اللفظ فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) أن تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين (الأول) أن قوله تعالى (والصافات صفاً) المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس فى قلوبهم فى أثناء الصلاة وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت ، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبابكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر ! تقرأ هكذا ؟ فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاث فى هذه الآية أن المراد من قوله (والصافات صفاً) الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله (والزاجرات زجراً) اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات ، والمراد من قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهـــدين فى سبيل الله فقوله (والصافات صفاً) المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً) وأما (الزاجرات زجراً) فالزجرة والصيحة سواء ، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل ، وأما (التاليات ذكراً) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله (والصافات صفاً) المراد آيات القرآن فانها أنواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكاليف والأحكام وبعضها فى تعليم الأخلاق الفاضلة . وهذه الآيات مرتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين فى صفوف معينة وقوله (فالزاجرات زجراً) المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله (فالتاليات ذكراً) المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقال (يس والقرآن الحكيم) قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشىء واحد (وأما الاحتمال الثانى) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله (والصافات صفاً) الطير من قوله تعالى (والطـــير صافات) (والزاجرات) كل ما زجر عن معاصي الله (والتاليات) كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه

وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة ، فالأرض وسط العالم وهى محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسمانى فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى ، وأما الجواهر الروحانية فهى على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة فى صفتين أحدهما التأثير فى عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الاشارة بقوله (فالزاجرات زجراً) فانا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثانى الإدراك والمعرفة والاستغراق فى معرفة الله تعالى والثناء عليه ، واليه الاشارة بقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف فى الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة فى معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) لاجرم بدأ فى المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال (والصافات صفاً) ثم ذكر فى المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر فى هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهى الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق فى الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثانى) أن الحلف بالشىء فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله . (والثالث) أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به فى بعض السور وهو قوله تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) ، (والقول الثانى) قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثانى) أنه تعالى قال (والسماء وما بناها) فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وأنه لا يجوز (الثالث) أنه لا يبعد أن تكون الحكمة فى قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لاسيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم ، فان قيل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الأول) أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات

(الثانى) أنه تعالى حلف فى أول هـذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف فى أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال (والذاريات ذرواً) إلى قوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لايليق بالعقلاء ، والجواب من وجوه (الأول) أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثانى) فى الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الإله واحداً ، وهو قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وذلك لأنه تعالى بين فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد ، فههنا لما قال (إن إلهكم لواحد) أردفه بقوله (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام فى قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة إلى حيث يكفى فى إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم ، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى (ورب المشارق) فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدى المشارق ثلاثمائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقا ومغرباً ، فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق ؟ قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله (تقيكم الحر) والثانى أن الشرق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج الأصحاب بقوله تعالى (رب السموات والأرض ومابينهما) على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد ، قالوا لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض ، وهذه الآية دالة على أن كل ماحصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه ، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله ، وإن قالوا الأعراض لايصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والأعراض ليست كذلك ، قلنا إنها لما

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ «٦» وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ «٧» لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ «٨» دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ «٩» إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ «١٠»

كانت حاصلة فى الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهى أيضاً حاصلة بين السماء والأرض ثم قال تعالى ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهورد معرفة على نكرة كما قال (بالناصية ناصية) فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد . وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة ، لأن بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الإضافة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين (إحداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الأول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلقائل أن يقول إنه ثبت فى علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة ، وأن السيارات الستة مركوزة فى الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، وعلى أنا قد بينا فى علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان أن هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة (تبارك الذى بيده الملك) فى تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزن به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله (بزينة الكواكب) يحتملهما فان أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها

إنما زينت السماء بحسنها فى أنفسها ، وإن أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها ، وأن يراد ما زينت به الكواكب .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه : (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فأن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس (بزينة الكواكب) أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوزأن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الإنسان إذا نظر فى الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها فى التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله (وحفظاً من كل شيطان مارد) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ فيما يتعلق باللغة فقوله (وحفظاً) أى وحفظناها . قال المبرد إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال ، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و (من كل شيطان مارد) يريد الذى تمرد على الله قيل إنه الذى لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله (صرح ممرد) ومنه الأمرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله (مردوا على النفاق) .

﴿ البحث الثانى ﴾ فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وبقى ههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء ، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثانى . وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال فى سورة (تبارك الذى بيده الملك) ، (ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح (وجعلناها رجوماً للشياطين) فالضمير فى قوله (وجعلناها) عائد إلى المصابيح ، فوجب أن تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت ، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية ، وأما قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز ، أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة (والجواب) أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا فى بعض الأوقات ، وسلموا فى بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، هذا ما ذكره أبو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ، ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، وإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين فى البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذى يسلم من الاحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل البتة ، والأقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق فى الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قالوا دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى ﷺ ، فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجىء النبى ﷺ امتنع حمله على مجىء النبى ﷺ ، أجاب القاضى بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبى ﷺ لكنها كثرت فى زمان النبى ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار) وقال (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فاذا وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالا منهم لاجرم صار الأقوى مبطلا للأضعف ، ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع فى النار القوية فانه ينطفىء فكذلك ههنا .

﴿ السؤال الخامس ﴾ أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فان قلتم إن الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا ينفى سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم ؟ (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه فى سورة الملك ، وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (لا يسمعون) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد فى يسمعون ، قال لأن العرب تقول تسمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان . وقيل فى تقوية هذه القراءة إذا نفى التسمع ، فقد نفى سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

﴿ المسألة الثانيـة ﴾ الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (لايسمعون إلى الملأ الأعلى) قولان (الأول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا ، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال (يبين الله لكم أن تضلوا) وكما قال (رواسى أن تميد بكم) قال صاحب الكشاف : حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده . أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب ، مدحورون عن ذلك المقصود .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات . وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض .

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الأولى) أنهم لايسمعون (الثانية) أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً ، وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قد ذكرنا معنى الدحور فى سورة الأعراف عند قوله (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحراً ودحوراً أى دفعته وطردته .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى انتصاب قوله (دحوراً) وجوه (الأول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً ، ودل على الفعل قوله تعالى (ويقذفون) (الثانى) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحوراً مطرودين ، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحر ، ثم قال ولست أشتهى الفتح ، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز فى الجملة كما قال الشاعر :

تعال اللحم للأضياف نيئاً

أى تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولهم عذاب واصب) والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام ، وذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى (وله الدين واصباً) قالوا كلهم إنه الدائم ، قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير .

ثم قال تعالى (إلا من خطف الخطفة) ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشىء بسرعة ، وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف (من) فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ «١١»

وجه المسارقة (فأتبعه) يعنى لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى فى أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) وقد مر تفسيره وقوله تعالى (شهاب ثاقب) قال الحسن ثاقب أى مضىء، وأقول سمى ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء، قال ابن عباس فى تفسير قوله (والنجم الثاقب) قال إنه رجل(١) سمى بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم .

قوله تعالى ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهى الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر، فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات مايدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب، فلما أحكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام فى هذه المسألة يتعلق بطرفين أولها إثبات الجواز العقلى وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام فى المطلوب الأول فاعلم أن الإستدلال على الشىء يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال إنه قدر على ماهو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه (والثانى) أن يقال إنه قدر عليه فى إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا، فوجب أن تبقى القدرة عليه فى الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين فى بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن .

(أما الطريق الأول) فهو المراد من قوله (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد فى العرف من خلق القسم الأول، فلما ثبت بالدلائل المذكورة فى إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذى هو أشد وأصعب، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة فى هذه الأجساد كان أولى، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى فى آخر يس (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (وأما الطريق الثانى) فهو المراد من قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية فى المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة فى هذه الأجسام، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة فى المرة الأولى، ولاشك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب إنه نجم . إذ لا معنى لكونه رجلا .

ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله (قل نعم وأنتم داخرون) وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو فى غاية الحسن والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله (فاستفتهم) يعنى أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم (أهم أشد خلقاً) أم هذه الأشياء التى بينا كونه تعالى خالقاً لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) يعنى أنا لما قدرنا على خلق الحياة فى ذواتهم أولا وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً ، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير . وفيه دقيقة أخرى وهى أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لا من الأبوين ؟ فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين ، وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة فى الطين للازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات . وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهى مذكورة فى السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيوانى وإما نباتى أما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الإنسان ، فثبت أن الأصل فى الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما اللازب فقيل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحتد ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء فى لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ «١٢»

ثم قال تعالى ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة الى هذه الأجساد ، وقد تقرر فى صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه . فأنت يامحمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم فى طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك فى قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، فهذا هو المراد من قوله (بل عجبت ويسخرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزة والكسائى (عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبى عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الأول) أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشىء ومعلوم أن الجهل على الله محال (والثانى) أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى آية أخرى فى هذه المسألة فقال (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً) ، (والثالث) أنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه (الأول) أن القراءة بالضم لانسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، وبيانه أنه يكون التقدير قل يامحمد (بل عجبت ويسخرون) ونظيره قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) (الثانى) سلمنا أن ذلك يقتضى إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لايليق إلا بمن لايعلم ، قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول : دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) والمعنى وإن تعجب يامحمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندى ، وأجيب عنه أنه لايمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة » وإذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال (ويمكرون ويمكر

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ «١٣» وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ «١٤» وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ «١٥» ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ «١٦» أَوَ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ «١٧» قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ «١٨»

الله) وقال (سخر الله منهم) وقال تعالى (وهو خادعهم) والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون فى هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض . وكذلك ههنا من تعجب من شىء فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبى صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه فى إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرفى النقيض وثانيها قوله (وإذا ذكروا لا يذكرون) ، وثالثها قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) ويجب أن يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذى عندى فى هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا فى هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين (أحدهما) أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة

بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .

(الطريق الثانى) أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كونى رسولا صادقاً من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) فظهر بالبيان الذى ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .

واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) . ثم قال (وإذا رأوا آية يستسخرون) فوجب أن يكون المراد من قوله (يستسخرون) غير ما تقدم ذكره من قوله (ويسخرون) فقال هذا القائل المراد من قوله (ويسخرون) اقدامهم على السخرية والمراد من قوله (يستسخرون) طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الأمور التى حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن هذا إلا سحر مبين) يعنى أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها ، والسبب فى تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله (مبين) معناه أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الإلتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم إن الذى مات وتفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض ومافيه من المائيه والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان مجرد قوله (قل نعم) دليلا قاطعاً على الوقوع . ومن تأمل فى هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .

أما قوله (أو آباؤنا) فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا ، وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الأعراف عند قوله (أو أمن أهل القرى) .

أما قوله تعالى (قل نعم) فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين .

أما قوله تعالى (وأنتم داخرون) أى صاغرون ، قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار ، وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله (سجداً لله وهم داخرون) .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ «١٩» وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ «٢٠» هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ «٢١»

قوله تعالى ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة مايدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة ، وأنه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال (فالحالة الأولى) قوله تعالى (فإنما هى زجرة واحدة ، فاذا هم ينظرون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (فإنما) جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هى إلا زجرة واحدة .

﴿ البحث الثانى ﴾ الضمير فى قوله (فإنما هى) ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فإنما البعث زجرة واحدة .

﴿ البحث الثالث ﴾ الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة ، فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى فى قوله (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لا يجوز فى فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الأول) أن تعتبر بها الملائكة (الثانى) أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل لتلك الصيحة تأثير فى إعادة الحياة ؟ الجواب لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها فى الموت ولا فى الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال (الذى خلق الموت والحياة) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ (الجواب) الكل

جائز ، إلا أنه روى أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الألفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى (فاذا هم ينظرون) فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا (يا ويلنا هذا يوم الدين) قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء هذا ، والمقصود أن الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن ، أنا نرى فى الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً وصديقاً وزنديقاً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم فى الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة (ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يلتفت اليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا ، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فبين أنه لا مالك فى ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لأحد إلا لله ، وإنما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ففيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى (هذا يوم الدين) . وأما قوله (هذا يوم الفصل) فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله (هذا يوم الفصل) الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين : (الأول) أن قوله (كنتم به تكذبون) من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) منسوق على قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فلما كان قوله (احشروا الذين ظلموا) كلام غير الكفار فكذلك قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله (هذا يوم الدين) من كلام الكفار ، وقوله (هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه فى كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا فى أنفسهم كونهم محقين فى إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الأديان الفاسدة فقالوا (هذا يوم الدين) أى هذا اليوم الذى يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون لهم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور فى هذا اليوم فإن هذا اليوم

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ «٢٢» مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ «٢٣»

يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار .

ثم قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وفى الآية إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أنه لا نزاع فى أن هذا من كلام الملائكة فإن قيل ما معنى (احشروا) مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامة وقالوا (هذا يوم الدين) وقالت الملائكة لهم بل (هذا يوم الفصل) أجاب القاضى عنه ، فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهى النار ، ولذلك قال بعده (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم إنهم مسئولون ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم ، إنما يكون بعد المسألة ، وأجاب أنه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضى ، وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أى سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه .

﴿ البحث الثانى ﴾ الآمر فى قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء : الظالمين ، وأزواجهم ، والأشياء التى كانوا يعبدونها . وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أنه تعالى قال (احشروا الذين ظلموا) ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد فى حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون)

﴿ الفائدة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال : (الأول) المراد بأزواجهم أشباههم أى أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه : (الأول) قوله تعالى (وكنتم

أزواجاً ثلاثة) أى أشكالا وأشباهاً (الثانى) أنك تقول عندى من هذا أزواج أى أمثال و تقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمى بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثانى فى العدد الصحيح ، قال الواحدى فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً فى كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى (القول الثانى) فى تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) ، (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتى على دينهم . أما قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) ففيه قولان : (الأول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت . ونظيره قوله (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التى هى أحجار منحوتة ، فان قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة فى حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضى بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية . ثم يلقيها فى جهنم لأن ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) أن المراد من قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء . والله أعلم .

ثم قال (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس (فاهدوهم) سوقوهم وقال الأصم : قدموهم ، قال الواحدى : وهذا وهم . لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادى والهاديات الوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ، ثم قال وقفوهم ، يقال وقفت الدابة اقفها وقفاً فوقفت هى وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير ، والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فاذا انتهوا إلى الصراط قيل وقفوهم ، فإن السؤال يقع هناك وقوله (إنهم مسئولون) قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألتهم الخزنة (ألم يأتكم رسل منكم بالبينات ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) أى أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال (مالكم لا تناصرون) قال ابن عباس

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ «٢٤» مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ «٢٥» بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ «٢٦» وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ «٢٧» قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ «٢٨» قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ «٢٩» وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ «٣٠» فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ «٣١» فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ «٣٢» فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ «٣٣» إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ «٣٤» إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ «٣٥» وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ «٣٦» بَلْ جَاءَ

رضى الله عنهما : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم فى الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين ، وقيل يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ يقال استسلم للشىء إذا انقاد له وخضع ، ومعناه فى الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود .

ثم قال تعالى ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع . ﴿ يتساءلون ﴾ أى يسأل بعضهم بعضاً ، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ، ويقول أولئك لم قبلتم منا ، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق

بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ «٣٧» إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ «٣٨» وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٣٩» إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ «٤٠»

المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقالوا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة . وفى تفسير اليمين وجوه (الأول) أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح (الرابع) أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شىء (الخامس) أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات (السادس) أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسىء أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات ، فقوله (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) يعنى أنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى) فى التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة ، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ، أننا عندكم بمنزلة اليمين ، أى بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم ، فمعنى قوله (كنتم تأتوننا عن اليمين) أى من ناحية المواثيق والأيمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر ، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه (الأول) أنهم قالوا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) يعنى أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه (الثانى) قولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان) يعنى لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين غالين فى معصية الله (الرابع) قولهم (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن

وقوعنا فى العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا فى العذاب لما كان خبر الله حقاً ، بل كان باطلا ، ولما كان خبر الله أمراً واجباً لاجرم ،كان الوقوع فى العذاب الأليم لازماً ، قال مقاتل قوله تعالى (فحق علينا قول ربنا) إشارة إلى قول الله لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (إنا لذائقون) يعنى لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم (فأغوينا كم إنا كنا غاوين) والمعنى أنا إنما أقدمنا على أغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية ، وفيه دقيقة أخرى ،كأنهم قالوا إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاو آخر ولزم التسلسل وذلك محال ، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل ، وهو قوله (فحق علينا قول ربنا) ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده (فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون) يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون فى الوقوع فى العذاب كما كانوا فى الدنيا مشتركين فى الغواية ، ثم قال أيضاً (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) وعنى بالمجرمين ، ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) والضمير فى قوله (إنهم) عائد إلى المذكور السابق وهو قوله (بالمجرمين) وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص فى القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا فى ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) يعنى ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد . وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ويعنون محمداً ، ثم إنه تعالى كذبهم فى ذلك الكلام فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلون) وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعانى كان بمجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير (أينا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع فى رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى (وصدق المرسلون[1]) يعنى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد ونفى الشريك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) والمعنى أن الحكم يقتضى الأمر بالحسن والطاعة والنهى عن القبيح والمعصية والأمر والنهى لا يكمل المقصود منهما

(١) وصدق المرسلون فى المصحف مرفوعة بالواو والنون ، ولكن المفسر جرى فى تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا فى كل ما اخبروا به وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة فى وصفهم بالصدق . وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد ، وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عبه .

أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ «٤١» فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ «٤٢» فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ «٤٣» عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ «٤٤» يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ «٤٥» بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ «٤٦» لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ «٤٧» وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ «٤٨» كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ «٤٩» فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ «٥٠»

إلا بالترغيب فى الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صونا للكلام عن الكذب ، فلهذا السبب وقعوا فى العذاب ثم قال (إلا عباد الله المخلصين) يعنى ولكن عباد الله [المخلصين ناجون وهو] من الاستثناء المنقطع .

قوله تعالى ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين فى كيفية الثواب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا فى فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً ، ولم يبين أن أى الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال ، فقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية ، قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) ، وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر ، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ولامتى ينقطع ، وقيل معناه : القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم ، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ماهو فقال (فواكه) وفيه قولان (الأول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة ، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات

فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل مايأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الادام أولى بالحضور ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال (وهم مكرمون) لأن الأكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم .

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال (فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين) ومعناه أنه لا كلفة عليهم فى التلاقى للأنس والتخاطب ، وفى بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال (يطاف عليهم بكأس من معين) يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

وعن الأخفش : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، وقوله (من معين) أى من شراب معين ، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل ، وقيل سمى معيناً لأنه يجرى ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى المسير إذا اشتد فيه ، وقوله (بيضاء) صفة للخمر ، قال الأخفش . خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله (لذة) فيه وجوه (أحدها) أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث : اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى (بيضاء لذة الشاربين) وقال تعالى (من خمر لذة للشاربين) ولذلك سمى النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة ، والأقرب من هذه الوجوه الأول .

ثم قال تعالى (لا فيها غول) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة الغول أن يغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا ، قال الواحدى رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولا أى أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمى الصداع غولا لأنه يؤدى إلى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولا هم عنها ينزفون) وقرىء بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ «٥١» يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ «٥٢» أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ «٥٣» قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ «٥٤» فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ «٥٥» قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ «٥٦» وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ «٥٧» أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ «٥٨» إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «٥٩» إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ «٦٠» لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ «٦١»

لا يذهب عقولهم أى لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد فى شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الأول) قوله (وعندهم قاصرات الطرف) ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى (حور مقصورات فى الخيام) والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (عين) قال الزجاج كبار الأعين حسانها واحدها عيناء .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشىء وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فاذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور .

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فان قيل على أى شىء عطف قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ؟ قلنا على قوله (يطاف عليهم) والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا ... محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا .

قوله تعالى ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقولون أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى ومانحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى كما ذكر فى أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على

شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة ، ذكر تعالى فى هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم فى الدنيا مايوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

أما قوله (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) أى قال قائل من أهل الجنة إنى كان لى قرين فى الدنيا (يقول أئنك لمن المصدقين) أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) أى لمحاسبون ومجازون ، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ، ثم إن ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته (هل أنتم مطلعون ، فاطلع) والأقرب أنه تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار (فرآه فى سواء الجحيم) أى فى وسط الجحيم قال له موبخاً (تالله إن كدت لتردين) أى لتهلكنى بدعائك إياى إلى إنكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل (لكنت من المحضرين) فى النار مثلك ، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال (أفما نحن بميتين) وفيه قولان (الأول) أن أهل الجنة لايعلمون فى أول دخولهم فى الجنة أنهم لايموتون ، فاذا جىء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) أن الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا لى ؟ أفيبقى هذا لى ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون (إن هذا لهو الفوز العظيم) .

وأما قوله (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أى لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ماذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله (واضرب لهم مثلا رجلين) إلى آخر الآيات ، وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها ، فخرج وقال اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإنى أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ، ثم إن الله أعطاه فى الجنة ماطلب

أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ «٦٢» إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ «٦٣» إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ «٦٤» طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ «٦٥» فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ «٦٦» ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ «٦٧» ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ «٦٨» إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ «٦٩» فَهُمْ عَلَى

فعند هذا قال (إنى كان لى قرين - إلى قوله - فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام ، ووافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين . وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

وأما قوله (إن كدت لتردين) قرأ نافع برواية ورش لترديني بإثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقالوا مذهب الخصم أن كل مافعله الله تعالى من وجوه الإنعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سبباً لحصول الهداية للمؤمن . وأن يكون سبباً لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمراً زائداً على تلك الإنعامات التى حصل الاشتراك فيها ، وما ذلك إلا بقوة الداعى إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى) فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله (إلا موتتنا الأولى) المراد منه كل ما وقع فى الدنيا والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها

ءَاثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ «٧٠» وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ «٧١» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ «٧٢» فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ «٧٣» إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ «٧٤»

لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ، إنهم ألفوا أباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها (لمثل هذا فليعمل العاملون) أتبعه بقوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر ، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضاً فى هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة (خير نزلا) أى خير حاصلا (أم شجرة الزقوم) وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشىء ، ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلا وهو الشىء الذى يصلح حال من ينزل بسببه ، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لانسبة لأحدهما إلى الآخر فى الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام ، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم ، فقيل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم ، وأما (الزقوم) فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيراً إلا الكلبى فانه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم ، فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم ، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال تزقموا . ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر ، قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشىء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم ، وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ففيه أقوال : (الأول) أنها إنما صارت فتنة للظالمين ، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية ، قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم

مع أن النار تحرق الشجرة ؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر ، ولأنه إذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة ؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى) فى التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم ، فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار ، فان هذا شىء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف ، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن فى القرآن والنبوة .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات : (الصفة الأولى) قوله إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها (الصفة الثانية) قوله (طلعها كأنه رءوس الشياطين) قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية أو معنوية ، وقال ابن قتيبة سمى (طلعاً) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شىء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (الأول) وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله (إن هذا إلا ملك كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء فى الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة ، والذى يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك ، وقال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل فى القبح ، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) أن رءوس الشياطين ، نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار (لآكلون منها فمالئون منها البطون) واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : (الأول) أنهم أكلوا منها لشدة الجوع ، فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة

طعمها ؟ قلنا إن الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه فى الضرر ، فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشىء وإن كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم .

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب . فعند هذا وصف الله شرابهم ، فقال (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) قال الزجاج : الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره ، والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة ، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم ، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما .

واعلم أن الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقاً ، ومنها قوله (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) ومنها ماذكره فى هذه الآية ، فان قيل ماالفائدة فى كلمة (ثم) فى قوله (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) ؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم،وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب ، (والثانى) أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه ، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب فى البشاعة أعظم من حال المأكول ، ثم قال تعالى (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) قال مقاتل : أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم ، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم ، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الابل إلى الماء ، ثم يوردون إلى الجحيم ، فهذا قول مقاتل ، واحتج على صحته بقوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) قال الفراء : الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث ، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم ، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل ، ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى .

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم ، فقال(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين) فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا ، فليس عليه إلا البلاغ .

ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا وإن كان فى الظاهر خطاباً مع الرسول ﷺ ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم ، فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ «٧٥» وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ «٧٦» وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ «٧٧» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ «٧٨» سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ «٧٩» إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٨٠» إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ «٨١» ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ «٨٢»

يكون زاجراً لهم عن كفرهم . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) فيه قولان (أحدهما) أنه استثناء من قوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) (والثانى) أنه استثناء من قوله (كيف كان عاقبة المنذرين) فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فانها كانت مقرونة بالخير والراحة .

﴿ القصة الأولى ـ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام (فالقصة الأولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أن اللام فى قوله (فلنعم المجيبون) جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف ، أى فلنعم المجيبون نحن .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أى الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان (الأول) وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا فى إيذائه وقصدوا قتله ، ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه . فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاه . ثم إنه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده (فلنعم المجيبون) وهذه اللفظة تدل على أن

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ «٨٣» إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٨٤» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ «٨٥» أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ «٨٦» فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ «٨٧» فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ «٨٨» فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ «٨٩» فَتَوَلَّوْا عَنْهُ

تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال (ولقد نادانا نوح) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم (والثانى) أنه أعاد صيغة الجمع فى قوله (فلنعم المجيبون) وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة . لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله (فلنعم المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء ، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به ، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل فى تلك الإجابة من وجوه (الأول) قوله تعالى (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا ، قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم . وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك .

﴿ النعمة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ﴾ يعنى يذكرون هذه الكلمة . فان قيل فما معنى قوله (فى العالمين) قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً أى لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً ، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته .

﴿ القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذجاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا

مُدْبِرِينَ «٩٠» فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ «٩١» مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ «٩٢» فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ «٩٣» فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ «٩٤»

عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ، مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير فى قوله من شيعته إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أى من شيعة نوح أى من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم ، قارا وماكان بين نوح وإبراهيم الانبيان هود وصالح ، وروى صاحب الكشاف أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبى ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العامل فى (إذ) ما دل عليه قوله (وإن من شيعته) من معنى المشايعة يعنى وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .

أما قوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (بقلب سليم) قولان (الأول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الأصوليون المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى ، فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد . عن ابن عباس أنه كان يحب للناس مايحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً ، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومـــه الشرك بالله ، وهو قوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) واحتج الذاهبون إلى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) مع أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإن قيل ما معنى المجىء بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه ، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت فى التوراة أن الله قال لموسى أحب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها .

ثم قال (أئفكا آلهة دون الله تريدون) قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به يعنى أتريدون إفكا، ثم فسر الإفك بقوله (آلهة دون الله) على أنها إفك فى أنفسها، ويجوز أن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين .

ثم قال (فما ظنكم برب العالمين) وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شىء

ثم قال (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً فى بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الأول) أن النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم (والثانى) أنه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال إنى سقيم كان ذلك كذباً، واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوهاً كثيرة (الأول) أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال (إنى سقيم) فجعله عذراً فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقاً فيما قال، لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور، فلذلك نظر إبراهيم فى النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال (إنى سقيم) سكنوا إلى قوله .

أما قوله (إنى سقيم) فمعناه سأسقم كقوله (إنك ميت) أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هو قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة، وقوله (إنى سقيم) يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص، وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعاً على تلك الصفة المخصوصة قال (إنى سقيم) أى هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله (إنى سقيم) أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ (لعلك باخع نفسك) (الوجه السادس) فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام ، لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص ، فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله (إنى سقيم) على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لاينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقم . (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لاينبغى أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لاتجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوى وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟ (والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فان الأشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة ، والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كى يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله (إنى سقيم) والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيما كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال (إنى سقيم) تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى أن لايخرج اليوم فكان ذلك مراده (فراغ إلى آلهتهم) يقال راغ إليه إذا مال إليه فى السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب . وقوله (ألا تأكلون) يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله (ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً) فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم فى معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً . وفى قوله (باليمين) قولان (الأول) معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه (وتالله لأكيدن أصنامكم) ثم قال (فأقبلوا إليه يزفون) قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعى يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع فى المشى ، فان قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا يقتضى أنهم فى أول الأمر ماعرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لايبعد أن يقال إن جماعة

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ «٩٥» وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ «٩٦» قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ «٩٧» فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ «٩٨» وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ «٩٩» رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ «١٠٠» فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ «١٠١»

عرفوه فعمدوا إليه مسرعين . والأكثرون ماعرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ، وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال (أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وما تعملون) ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ماكان معبوداً للانسان البتة . فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذى ماكان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جمهور الأصحاب بقوله (والله خلقكم وما تعملون) على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع مابعده فى تقدير المصدر فقوله (وما تعملون) معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (أتعبدون ما تنحتون) أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثانى) أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق . فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال : (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) ولولم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها ، سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لانسلم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع مابعدها فى تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا فى أنه هل يجوز أن يقال أعجبنى

ماقمت أى قيامك يجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لايجوز إلا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على أن ما مع مابعدها فى تقدير المفعول عند الأخفش ، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر . لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله (أتعبدون ما تنحتون) والمراد بقوله (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ماعبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثانى) أنه تعالى قال (فاذا هى تلقف ما يأفكون) وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمى محل العمل عملا يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجىء بمعنى المصدر فقد تجىء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ، لأن الذى جرى ذكره فى أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال . واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء (فقالوا ابنوا له بنياناً) واعلم أن كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنو حائطاً من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، والألف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه ، أى فى جحيم ذلك البنيان ، ثم قال تعالى (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) والمعنى أن فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم. واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقال إنى مهاجر إلى ربى) وفيه مسائل :

﴿ المسأله الأولى ﴾ دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إنى ذاهب إلى ربى) قولان (الأول) المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إنى ذاهب إلى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى : ذاهب بعبادتى إلى ربى ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال (كلا إن معى ربى سيهدين) وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتى

بشىء من الأعمال إلا لله تعالى ، كما قال (وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) قيل إن القول الأول أولى ، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشأم ، وأيضاً يبعد حمله على الهداية فى الدين ، لأنه كان على الدين فى ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه ، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى أمر الدين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (سيهدين) يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى ، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار ، لأن كل ذلك قد حصل فى الزمان الماضى ، وقوله (سيهدين) يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل ، فوجب حمل الهداية فى هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة فى قلبه ، فان قيل إبراهيم عليه السلام جزم فى هذه الآية بأنه تعالى سيهديه ، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به ، بل قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) فما الفرق؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود ، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين ، فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم ، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (إنى ذاهب إلى ربى) يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن كلمة إلى موجودة فى قوله (إنى ذاهب إلى ربى) مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً فى ذلك المكان ، فكذلك ههنا .

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال (هب لى من الصالحين) أى هب لى بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب فى الولد ، وإن كان قد جاء فى الأخ فى قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) وقال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى) وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم حين هنأه بولده : على أبى الأملاك شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب ، ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب .

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليما ، وأى حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح (قال ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ثم استسلم لذلك ، وأيضاً فان إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فبين أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه فى صفات الشرف والفضيلة ، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه ، فقال (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) وطلبه للولد فقال (رب هب لى من الصالحين) وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته فى الدين والدنيا ، فقال (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ «١٠٢» فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ «١٠٣» وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ «١٠٤» قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١٠٥» إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ «١٠٦» وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ «١٠٧» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ «١٠٨» سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ «١٠٩» كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١١٠» إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ «١١١» وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ «١١٢» وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ «١١٣»

قوله تعالى ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (فبشرناه بغلام حليم) أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه . فقال (فلما بلغ معه السعى) ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى ، وقوله (معه) فى موضع الحال والتقدير كائناً معه ، والفائدة فى اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد ، وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ، قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده فى الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليما ، بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر مافواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

أما قوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الأول) قال السدى : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذراً فف بنذرك فلما أصبح (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) .

وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية فى منامه ، كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر ، وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة ، وعلى هذا فتقدير اللفظ : إنى أرى فى المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثانى) أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحى ، وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس إلا أنه يذبح ، فان قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه فى المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فان كان الأول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له (فانظر ماذا ترى) وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر) ؟ ، وأيضاً فقد قلتم إنه بقى فى اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل ما رآه فى النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروى والتفكر حاجة ، وإن كان الثانى ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن مايرونه فى المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ (والجواب) لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل رضى الله عنهم ، وقيل إنه اسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى ، واحتج القائلون بأنه اسماعيل بوجوه : (الأول) أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابى « يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد إبنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من من الإبل ، والذبيح الثانى إسمعيل » .

﴿ الحجة الثانية ﴾ نقل عن الأصمعى أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال يا أصمعى أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ؟ .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أن الله تعالى وصف اسماعيل بالصبر دون إسحق فى قوله (وإسماعيل

واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضاً بصدق الوعد فى قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب ، منه أو بعد ذلك (فالأول) باطل لأنه تعالى لما بشرها باسحق ، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه ، وإلا حصل الخلف فى قوله (ومن وراء اسحق يعقوب) (والثانى) باطل لأن قوله (فلما بلغ معه السعى ، قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) يدل على أن ذلك الإبن لما قدر على السعى ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ، وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر ، فثبت أنه لايجوز أن يكون الذبيح هو إسحق .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ حكى الله تعالى عنه أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ثم طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به فى غربته فقال (رب هب لى من الصالحين) وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال وقوله (هب لى من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد ، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله (من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم فى الوجود على إسحق ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو اسماعيل ، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

﴿ الحجة السادسة ﴾ الأخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكأن الذبيح بمكة . ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح بالشام ، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجهين : (الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال (فبشرناه بغلام حليم) فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا اسحق ، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعى) وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق ، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصه الذبيح قال بعده (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين ، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح ، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام .

﴿ الحجة الثانية ﴾ على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من

يعقوب اسرائيل نبي الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب ، وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم . واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا كان الذبح بمنى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف الناس فى أن ابراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهى أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثانى أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ،واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجيء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الأول) أنه عليه السلام قال لولده إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود ، فحينئذ يكون قد أمر بشيء وقد أتى به ، وفى هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح ، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد (الأمر الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين فى وقت معين ، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن ، فإذا أنهاه عنه فذلك النهى يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب) عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

أما قوله تعالى (قد صدقت الرؤيا) فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل مارآه فى ذلك المنام . وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به . وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً فى ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحاً فى ذاته ، وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشىء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فانه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتى ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الإنقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم فى المسألة الأولى . وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهى عن الشىء يدل على أن الناهى لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح ، وثبت أنه تعالى ما أراده ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتمام الكلام فى أن الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم فى المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً (الثانى) أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى فى حق محمد ﷺ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) وقال عن يوسف عليه السلام (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وقال فى حق إبراهيم عليه السلام (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الأحوال ، والله أعلم .

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها مايقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشىء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما فى حق إبراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها مايقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ حمزة والكسائى (ترى) بضم التاء وكسر الراء ، أن ماترى من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ماتشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الحكمة فى مشاورة الإبن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ، ثم إنه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام أنه قال افعل ماتؤمر ، ومعناه افعل ماتؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت [به]

ثم قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى (فلما أسلما) يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرىء بهن جميعاً إذ انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ، ثم قال تعالى (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، قال ابن الأعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به أى يصرع ، فالمعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جبهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة .

ثم قال تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان (الأول) أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لاجرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا

وقوله (إنا كذلك نجزى المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزى كل المحسنين .

ثم قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها (وفديناه بذبح عظيم) الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالأول) حكى فى قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يابنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال يا أبت اشدد رباطى فى كيلا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك لا ينتضح عليها شىء من دمى فتراه أمى فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى ليكون أهون فان الموت شديد ، واقرأ على أمى سلامى وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهى فانك إذا نظرت وجهى رحمتنى وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذى تقرب به هابيل ابن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً ، وقال السدى نودى إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عنه ابراهيم فأخذه فذبحه ، وخلى عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال يابنى اليوم وهبت لى ، وأما قوله (عظيم) فقيل سمى عظيماً لعظمه وسمنه ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيماً وقد رعى فى الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمى عظيماً لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ، ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) الضمير فى قوله (إنه) عائد إلى ابراهيم ، ثم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فقوله (نبياً) حال مقدرة أى بشرناه بوجود اسحاق مقدرة نبوته ، ولمن يقول إن الذبيح هو اسماعيل أن يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله (نبياً) حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحاق حال كون إسحق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ماحكمنا عليه فصبر ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير اسحاق ، أقصى ما فى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التغيير فى النظم ، والله أعلم بالصواب .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ «١١٤» وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ «١١٥» وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ «١١٦» وَءَاتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ «١١٧» وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ «١١٨» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْأَخِرِينَ «١١٩» سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ «١٢٠» إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١٢١» إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ «١٢٢»

ثم قال تعالى (وباركنا عليه وعلى اسحق) وفى تفسير هذه البركة وجهان (الأول) أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحاق (والثانى) أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم واسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) وفى ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله (محسن) الأنبياء والمؤمنون وتحت قوله (ظالم) الكافر والفاسق والله أعلم .

﴿ قصة موسى وهرون عليهما السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما فى الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص من المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن وجوه الأنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة فى نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله (ولقد مننا على موسى وهارون) إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) إشارة إلى دفع المضار عنهما .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور ، لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ «١٢٣» إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ «١٢٤» أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ «١٢٥» ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ «١٢٦» فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ «١٢٧» إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ «١٢٨» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ «١٢٩» سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ «١٣٠» إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١٣١» إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ «١٣٢»

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) وفيه قولان : قيل إنه الغرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بنى إسرائيل ، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهرون ، فصل أقسام تلك المنة والهاء فى قوله (ونصرناهم) أى نصرنا موسى وهرون وقومهما (وكانوا هم الغالبين) فى كل الأحوال بظهور الحجة وفى آخر الأمر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين) والمراد منه التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج إليها فى مصالح الدين والدنيا ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ، (وثالثها) قوله تعالى (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعاً ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى (وتركنا عليهما فى الآخرين) وفيه قولان (الأول) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ قولهم (سلام على موسى وهرون) (والثانى) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك (سلام على موسى وهرون) هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى (إنهما من عبادنا المؤمنين) والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم .

﴿ قصة إلياس عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فانهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن عامر (وإن الياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف ، قال أبو بكر بن مهران : من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه ، قال الواحدى وله وجهان (أحدهما) أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما حذفها ابن كثير من قوله (إنها لإحدى الكبر) وكقول الشاعر :

ويلمها فى هواء الجو طالبة

والآخر أنه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله (واليسع).

﴿المسألة الثانية﴾ فى إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ وإن إدريس ، وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون) والتقدير اذكر يا محمد لقومك (إذ قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله ، وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله . واعلم أنه لما خوفهم أولا على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وفيه أبحاث :

﴿الأول﴾ فى بعل قولان (أحدهما) أنه اسم علم لصنم كان لهم كهناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل إسم لصنم من أصنامهم لا بأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة ، فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً فى كثير من المعجزات ، لأنه نقل فى معجزات النبى ﷺ كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم ، فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائماً فى الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح فى كون هذه الأشياء معجزات (القول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أى من ربها ، وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى ، قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) وقال تعالى (وهذا بعلى شيخاً) فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله.

﴿البحث الثانى﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

﴿البحث الثالث﴾ كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين . أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس (وجوابه) أن فصاحة

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «١٣٣» إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ «١٣٤» إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ «١٣٥» ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ «١٣٦» وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ «١٣٧» وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٣٨»

القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ . واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء ، فقال (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) وفيه مباحث .

﴿ الأول ﴾ أنا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة فى الإعادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (الله ربكم ورب آبائكم) كلها بالنصب على البدل من قوله (أحسن الخالقين) والباقون بالرفع على الاستئناف ، والأول اختيار أبى حاتم وأبى عبيد ، ونقل صاحب الكشاف أن حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله (لكنت من المحضرين) ثم قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه : (الأول) وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد ﷺ (والثالث) أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الأول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

ثم قال تعالى (إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين) وقد سبق تفسيره والله أعلم ، قوله تعالى ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «١٣٩» إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ «١٤٠» فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ «١٤١» فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ «١٤٢» فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ «١٤٣» لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ «١٤٤» فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ «١٤٥» وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ «١٤٦» وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ «١٤٧» فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ «١٤٨»

هذا هو القصة الخامسة ، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب ، فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا ، وقد تقدم شرح هذه القصة ، وقد نبههم بقوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل) وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر فى أكثر الأمر إنما يمشى فى الليل وفى أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .

ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها ، والله أعلم .

﴿ قصة يونس عليه السلام ﴾

قوله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾

إعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة ، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبى ﷺ على أذى قومه .

أما قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء يونس بضم النون وكسرها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لأن قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك) معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك ، ويمكن أن يقال إنه جاء فى كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله (لمن المرسلين) لا يدل على أنه كان فى ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف فى معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من

قوله (لمن المرسلين) أنه من المرسلين عند الله تعالى .

﴿المسألة الثالثة﴾ أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم إنه أبق من الله تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئاً ، فقيل لأنه أمر بالخروج إلى بنى اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحى أو بلسان نبى آخر ، وقيل إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم . وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان : (الأول) أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لامحالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى فى مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ فى ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله (إذ أبق الى الفلك) ما ذكرناه (الوجه الثانى) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله (إذ أبق الى الفلك) وتمام الكلام فى مشكلات هذه الآية ذكرناه فى قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) وقوله (الى الفلك المشحون) مفسر فى سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة ، ثم قال تعالى (فساهم) المساهمة هى المقارعة ، يقال أسهم القوم اذا اقترعوا ، قال المبرد وإنما أخذ من السهام التى تجال للقرعة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أى أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذى هو الزلق ، يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت ، وذكر ابن عباس فى قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بنى اسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بنى اسرائيل نبياً ، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته ، قال يونس الله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس وفى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لا تبعثه ، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل فى السفينة مانراه من غير ريح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فيخرج سهم

يونس ، فقال يا هؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت «لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلا» ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت فى ساعة واقتلعت فى ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم ! انطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد ، وقوله تعالى (وهو مليم) يقال ألام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتى بما يلام عليه .

ثم قال تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) وفى تفسير كونه من المسبحين قولان (الأول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه فى آية أخرى أنه كان يقول فى تلك الظلمات لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين (الثانى) أنه لولا أنه كان قبل أن التقمة الحوت من المسبحين يعنى المصلين وكان فى أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبث فى بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة ، فان يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكرا لله تعالى ، فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال الله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) واختلفوا فى أنه كم لبث فى بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه . قال الحسن لم يلبث إلا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذى التقمه ، وعن مقاتل ابن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدرى بأى دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « سبح يونس فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال ذاك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه فى الساحل » فذاك هو قوله (فنبذناه بالعراء) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ العراء المكان الخالى قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شىء يغطيه .

﴿ الثانى ﴾ أنه تعالى قال (فنبذناه بالعراء) فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه ، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ «١٤٩» أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

ثم قال تعالى (وهو سقيم) قيل المراد أنه بلى لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أى سليب .

ثم قال تعالى (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين ، قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به .

ثم قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

﴿ البحث الثانى ﴾ ظاهر قوله (أو يزيدون) يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى (عذراً أو نذراً) وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) وقوله تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أى إلى الوقت الذى جعله الله أجلا لكل واحد منهم .

قوله تعالى ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ،

شَاهِدُونَ «١٥٠» أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ «١٥١» وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «١٥٢» أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ «١٥٣» مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «١٥٤» أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «١٥٥» أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ «١٥٦» فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٥٧» وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ «١٥٨» سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ «١٥٩» إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ «١٦٠»

ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقدعلمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) وهذا معطوف على قوله فى أول السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمن خلقنا) وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم فى أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين ، ونقل الواحدى عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله ، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين : (أحدهما) إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت ، والشىء الذى يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق (والثانى) إثبات أن الملائكة إناث : وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس فمفقود ههنا لأنهم ماشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) وأما الخبر فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقا قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون ، لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة ، وهو المراد من قوله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) وأما النظر فمفقود وبيانه من وجهين

(الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب . لأن الله تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله (أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون) يعنى إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فان كان حكم العقل معتبراً فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله (أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذى ذهبوا إليه لم يدل على صحته ، لا الحس ولا الخبر ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلا قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أصطفى البنات على البنين) قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من (أصطفى) ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع ، كقوله تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية ، وقرأ نافع فى بعض الروايات (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) فى زعمه واعتقاده .

ثم قال تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الأول) قال مقاتل أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله . وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة ، وأقول هذا القول عندى مشكل ، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) والعطف يقتضى كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟ قالوا سروات الجن ، وهذا أيضاً عندى بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أن قوماً من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس ، فقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) المراد منه هذا المذهب ، وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل . وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن (١)

ثم قال تعالى (ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون) أى قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون فى العذاب ، فعلى القول الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول ، وعلى القول الثانى عائد إلى الجنة أنفسهم ، ثم إنه تعالى

---

(١) يزدان وإهرمن أى الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى « مانى » أول من قال به . وهو مذهب باطل لما فيه من الاشراك بالله .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ «١٦١» مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ «١٦٢» إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ «١٦٣» وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ «١٦٤» وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ «١٦٥» وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ «١٦٦» وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ «١٦٧» لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ «١٦٨» لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ «١٦٩» فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «١٧٠»

نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال (سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين) وفى هذا الاستثناء وجوه ، قيل استثناء من المحضرين ، يعنى أنهم ناجون ، وقيل هو استثناء من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك ، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار ، وذكر صاحب الكشاف فى قوله (فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين) قولين (الأول) الضمير فى (عليه) لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار ، فان قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه : (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله (وما تعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله (فانكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر ، لأن معناه فانكم مع ما تعبدون ، والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لا تتركون عبادتها ، ثم قال تعالى (ما أنتم عليه) أى على ما تعبدون (بفاتنين) بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . وقرأ الحسن (صال الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء

الساكنين ، فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله (من هو) قلنا (من) موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) يعنى إلا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائى المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحداً إلا من ثبت فى معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شىء من الأفعال (والجواب) حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن . وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما فى قوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة . واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شىء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب . فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ؟ ولماذا قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدرياً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه لآية أم لا ، فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب ، فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الأفعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله ، فيكون الكل

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ «١٧١» إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ «١٧٢» وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ «١٧٣» فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ «١٧٤» وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ

من الله تعالى (الرابع) أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلا وهو محال ، وأما الآيات التى تمسك بها القاضى فهى معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هـذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التى ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) فالجمهور على أنهم الملائكة ، وصفوا أنفسهم بالمبالغة فى العبودية ، فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح ، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم فى العبودية تدل على اعترافهم بالعبوديه ، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعـالى (ومامنا إلا له مقام معلوم) وهـذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم فى التصرف فى أجسام هذا العالم وإلى درجاتهم فى معرفة الله تعالى أما درجاتهم فى التصرفات والأفعال فهى قوله (وإنا لنحن الصافون) والمراد كونهم صافين فى أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم فى المعارف فهى قوله تعالى (وإنا لنحن المسبحون) والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) يفيد الحصر ومعناه أنهـم هم الصافون فى مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر . وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) فالمعنى أن مشركى قريش وغيرهم كانوا يقولون (لو أن عندنا ذكراً) أى كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا . ثم جاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) ثم قال تعالى (فسوف يعلمون) أى فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب .

قوله تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ،

يُبْصِرُونَ «١٧٥» أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ «١٧٦» فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ «١٧٧» وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ «١٧٨» وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ «١٧٩» سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ «١٨٠» وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ «١٨١» وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٨٢»

فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون ، فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أى عاقبة كفرهم أردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، وأيضاً أن الخير مقضى بالذات ، والشر مقضى بالعرض ، وما بالذات أقوى مما بالعرض ، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً فى بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم (فتول عنهم حتى حين) والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال (وأبصرهم فسوف يبصرون) والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد فى الدنيا والثواب العظيم فى الآخرة ، والمراد من الأمر المشاهد بأبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وقوله (فسوف يبصرون) للتهديد والوعيد ، ثم قال (أفبعذابنا يستعجلون) والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شىء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكأن طلب حدوثه قبل مجىء ذلك الوقت جهلا ، ثم قال تعالى فى صفة العذاب الذى يستعجلونه (فإذا نزل بساحتهم) أى هذا العذاب (فساء صباح المنذرين) وإنما وقع

هذا التعبير عن هذه المعانى كأنهم كانوا يقدمون على العادة فى وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله (فتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون) فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفى هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة فى التهديد والتهويل، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله (رب العزة) فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهى دالة على كمال الحكمة ،والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزهاً فى الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله (رب العزة) يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام فى قوله (العزة) تفيد الاستغراق ،وإذا كان الكل ملكا له وملكا له لم يبق لغيره شىء ، فثبت أن قوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات فى معرفة إله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغى أن يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية .

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد يرشدهم ، وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل ، فنبه على هذا الحرف بقوله (وسلام على المرسلين) لأن هذا اللفظ يدل على أنهم فى الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم(والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالإعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غنى رحيم ، والغنى الرحيم لا يعذب ، فنبه على هذا الحرف بقوله (والحمد لله رب العالمين) وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعما ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من درارى الكواكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية فى الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين .

﴿ســـورة ص﴾

﴿ثمانون وثمان آيات مكية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صۤ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ «١» بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ «٢» كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ «٣»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكلام المستقصى فى أمثال هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه (فالأول) أنه مفتاح أسماء الله تعالى التى أولها صاد ، كقولنا صادق الوعد ، صانع المصنوعات ، صمد (والثانى) معناه صدق محمد فى كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (الرابع) معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن ، فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهى المعارضة ومنها الصدى وهو مايعارض صوتك فى الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه (السادس) أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ، فإن قيل ههنا إشكالان (أحدهما) أن قوله (والقرآن ذى الذكر) قسم وأين المقسم عليه ؟ (والثانى) أن كلمة (بل) تقتضى رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا المعنى ههنا ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (الأول) أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد ﷺ ، فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله (والقرآن ذى الذكر) هو القسم (الثانى) أن يكون المقسم عليه محذوفاً ، والتقدير سورة (ص والقرآن ذى الذكر) أنه لكلام معجز ، لأنا بينا أن قوله (ص) تنبيه على التحدى (والثالث) أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص والقرآن ذى الذكر ، ولما كان المشهور أن محمداً عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه (ص) جارياً مجرى قوله : هذه هى السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أى هذا هو المشهور

بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثانى أن الحكم المذكور قبل كلمة (بل[1]) أما ماذكره المفسر كون محمد صادقاً فى تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة (بل) ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك لحصل المطلوب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله ذى الذكر وجهان (الأول) المراد ذى الشرف ، قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقال تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر فى الناس ، كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيانين أى فيه قصص الأولين والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الأول) قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك ، وهذا ذكر مبارك ، والقرآن ذى الذكر ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) و (بيان الثانى) قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) (والجواب) أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهى محدثة .

أما قوله (بل الذين كفروا) فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الإنقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان فى نفسه من الأحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق ، فيريد أن يكون فى شقة نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة ، وهى جانب الوادى ، وكذلك المحادة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا) والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر بأى شىء نادوا ، وفيه وجوه (الأول) وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أى ارفع صوتاً ، ثم قال (ولات حين مناص) يعنى

---

(1) الحكم الذى قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والايمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمه ذى الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية ، وبهذا يكون للاضراب ببل معنى ويجرى الكلام على الأساليب العرابية . فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ماجاء بعد (بل) من الآيات والاضراب لا يكون عن حكم لم يذكر .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ «٤» أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ «٥» وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ «٦» مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ «٧»

ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا) وقال (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله (آلآن وقد عصيت قبل) وقوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) بقي ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها ، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان (وحين مناص) منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم .

﴿ البحث الثاني ﴾ الجمهور يقفون على التاء من قوله (ولات) والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة ، قال صاحب الكشاف : وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

﴿ البحث الثالث ﴾ المناص المنجا والغوث ، يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه ، واستناص طلب المناص ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) في قوله (منهم) وجهان (الأول) أنهم قالوا إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال

جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب فى الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً من الكذب والتهمة ؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ومعناه أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم فى الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

ثم قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وإنما لم يقل وقالوا بل قال (وقال الكافرون) إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فان الساحر هو الذى يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذى يخبر عن الشىء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التى تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه فى إثبات كونه كاذباً وهى ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالإلهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهى قولهم (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا الشىء عجاب) روى أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال ﷺ ماذا يسألونى ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطونى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) أى بليغ فى التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الأول) هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا فى الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفى قدرته وعمله بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا لا بد فى حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (الوجه الثانى) أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك ، فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الأقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محقاً صادقاً ، وأقول لعمرى لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً ، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة فى الذات وكلام المشبهة فى الأفعال ، أما المشبهة

فى الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود فى الشاهد يجب أن يكون جسما ومختصاً بحيز وجب فى الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة فى الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلانى قبيح منا، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة فى الذات وفى الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد . وأما الشبهة الثانية فلعمرى لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقى ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأولى ﴾ أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى (ومكروا مكراً كباراً) .

﴿ الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى (مكراً كباراً) .

ثم قال تعالى (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا فى المجلس فانه تمتلىء القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، وقوله (منهم) أى من قريش انطلقوا عن مجلس أبى طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أى لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجرى فى المجلس المتقدم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملأ منهم يمشون .

﴿ البحث الثانى ﴾ معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ، إن هذا لشىء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره ليس إلا لأن الله يريده ، وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) أن الأمر كشىء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) أن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم ، قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد .

ثم قال (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذى أتى به محمد ﷺ ما سمعناه فى دين النصارى ، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا (إن هذا إلا اختلاق) افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلا ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل .

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ «٨» أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ «٩» أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ «١٠» جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ «١١»

قوله تعالى ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ .

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم إن محمداً لما كان مساوياً لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) فانه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضاً أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لاتحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لاتحصل له النبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدونها هى الخارجية وهى المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد فى أفكارهم ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله تعالى (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله (بل هم فى شك من ذكرى) أى من الدلائل التى لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهى كلمات ضعيفة وأما الدلائل التى تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهى دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل فى الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التى تمسكوا بها فى إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال ، فأما قوله تعالى (بل لما

يذوقوا عذاب) فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأنى لم أذقهم عذابى ، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله (بل هم فى شك من ذكرى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ، ثم إنهم أصروا على الكفر ، ولم ينزل عليهم العذاب ، فصار ذلك سبباً لشكهم فى صدقه ، وقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) فقال (بل هم فى شك من ذكرى) معناه ماذكرناه ، وقوله تعالى (بل لما يذوقوا عذاب) معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثانى) من الوجوه التى ذكرها الله تعالى فى الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أى كامل القدرة ووهاباً أى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود ، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً ، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أويكرهونه (والوجه الثالث) فى الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب) واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض ، فلما ذكرنا الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر (ملك السموات والأرض وما بينهما) يعنى أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله ، فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم ، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى ، فهذا ما أمكننى ذكره فى الفرق بين الكلامين ، أما قوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) فالمعنى أنهم أن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا فى الأسباب واصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون ، واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله (فليرتقوا فى الأسباب) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ماقلناه والله أعلم ، أما قوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الألفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الأول) فقوله (جند) مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لأمر ما ، وعندى طعام ما ، و (من الأحزاب) صفة لجند و (مهزوم) خبر المبتدأ وأما قوله (هنالك) فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك ، أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ «١٢» وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ «١٣» إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ «١٤» وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ «١٥»

فيه هذه الكلمات الطاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثانى) فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا فى الأسباب، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون ، فكيف يكونون مالكى السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندى حمله على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين فى مكة وما ذاك إلا يوم الفتح . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا فى النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بين تعالى فى هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول فى إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثانى) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه (الأول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة   فى ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضى حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيما لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك

مع قوة أمره أبلغ (والثانى) أنه كان ينصب الخشب فى الهواء وكان يمد يدى المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ، ويتركه معلقاً فى الهواء إلى أن يموت (والثالث) أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيرى الأهبة عظيمى النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء[1] . وأما الإيكة فهى الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى (أولئك الأحزاب) وفيه أقوال (الاول) أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بين بقوله (جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب ، أى من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد ﷺ (الثانى) أن معنى قوله (أولئك الأحزاب) مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين .

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ، ثم قال إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب ، لاجرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الأول) أن يكون المراد عذاباً يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة ، كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) الآية (والقول الثانى) أن هذه الصيحة هى صيحة النفخة الأولى فى الصور ، كما قال تعالى فى سورة يس (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذى ينتظر الشىء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة فى حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال (ما لها من فواق) قرأ حمزة والكسائى (فواق) بضم الفاء ، والباقون بفتحها ، قال الكسائى والفراء

(١) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فانها خاصة بالفراعين فى مصر ، وإنما جاز أن نسميها أوتادا تشبيها لها بالجبال فى الرسوخ فى الأرض والعظم والسموق والعلو والارتفاع ، والله تعالى سمى الجبال أوتاداً فى القرآن بقوله و(الجبال أوتاداً) .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ «١٦» اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ «١٧»

وأبو عبيدة والأخفش : هما لغتان من فواق الناقة . وهو ما بين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع ، يقال أفاق من مرضه ، أى رجع إلى الصحة ، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم ، كقولك قصاص الشعر وقصاصه . قال الواحدى: والفواق والفواق اسمان من الأفاقة ، والأفاقة معناها الرجوع والسكون كأفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن إلى الضرع ، وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية « يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع ، قال فيمدها ويطولها » وهى التى يقول (مالها من فواق) ثم قال الواحدى: وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثانى) ما لها رجوع ، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون ، ويقال لكل من بقى على حالة واحدة ، إنه لا يفيق منه ولا يستفيق ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾

اعلم أنا ذكرنا فى تفسير قوله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالإلهيات ، وهو قوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) (والثانية) تتعلق بالنبوات ، وهو قوله (أأنزل عليه الذكر من بيننا) (والثالثة) تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وذلك لأن القوم كانوا فى نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ، والقط القطعة من الشىء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة ، قالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا من الجنة ، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها .

واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) وقالوا له على سبيل الاستهزاء (عجل لنا قطنا) أمره الله بالصبر على سفاهتهم ، فقال (اصبر على ما يقولون) فإن قيل . أى تعلق بين قوله (اصبر على ما يقولون) وبين قوله (واذكر عبدنا داود) ؟ قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الأول) كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر ، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن

يوم الحشر ، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الضد الآخر نقصاناً (والثانى) كأنه قيل لمحمد ﷺ لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك (والثالث) أن للناس فى قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد ﷺ إن حزنك ليس إلا ، لأن الكفار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه فى ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل فى قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثانى) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجىء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدى به فى حسن الخلق (والخامس) أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم فى أكثر الأمر إنه يتيم فقير ، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه مع ذلك ماسلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه فى الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال (اصبر على ما يقولون) واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص ، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها فى هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم ، وسيجىء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

﴿ فالقصة الأولى ﴾ قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى فى هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالأول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التى توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثانى) شرح تلك الواقعة التى وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الأول) وهو شرح الصفات التى آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهى عشرة (الأول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدى فى الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى به فى مكارم الأخلاق (والثانى) أنه قال فى حقه (عبدنا داود) فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال (سبحان الذى أسرى بعبده)

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ «١٨»

فهمنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضاً ، فان وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (والثالث) قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح ،والقوة التى توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك مانهى عنه (والأيد) المذكور ههنا كالقوة المذكورة فى قوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ؛ فخذها بقوة) أى باجتهاد فى أداء الأمانة وتشدد فى القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف (والأيد) والقوة سواء ومنه قوله تعالى (هو الذى أيدك بنصره) وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) وقال (والسماء بنيناها بأيد) وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقهاً فى الدين ، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله (إنه أواب) أى أن داود كان رجاعا فى أموره كلها إلى طاعتى والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى (إن الينا إيابهم) وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى إنا (سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق[1]) ونظير هذه الآية قوله تعالى (يا جبال أوبى معه والطير) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ وفيه وجوه : (الأول) أن الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) فان معناه أنه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى) فى التأويل ما رواه القفال فى تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن ، ومايصغى الطير إليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحاً ، وذكر محمد بن إسحق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف (يسبحن) فى معنى مسبحات ، فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم على الدوام على مابينه عبدالقاهر النحوى فى كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (يسبحن) يدل على

(١) هنا موضع ذكر قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن) الآية وقد أدمج المؤلف تفسيرها هنا مع التى قبلها فاضطر إلى الخروج عن طريقته التى سار عليها من ذكر الآية بجملة ثم ذكرها مع تفسيرها مفصلة .

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ «١٩» وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالا بعد حال وكان السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح .
﴿ البحث الثالث ﴾ قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق .
﴿ البحث الرابع ﴾ احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانيء قالت « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق » وعن طاووس عن ابن عباس قال « هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل فى نفسى شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها فى قوله (يسبحن بالعشى والإشراق) »
﴿ الصفة السادسة ﴾ من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطير محشورة كل له أواب[1]) وفيه مباحث :
﴿ البحث الأول ﴾ قوله (والطير) معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .
﴿ البحث الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (محشورة) فى مقابلة (يسبحن) إلا أنه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلاجرم جيء به اسماً لا فعلا ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم .
﴿ البحث الثالث ﴾ قرىء (والطير محشورة) بالرفع .
﴿ الصفة السابعة ﴾ من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى (كل له أواب) ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أى رجاع ، أى كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله (كل له أواب) لله تعالى أى كل من دواد والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح .
﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله تعالى (وشددنا ملكه[2]) أى قويناه وقال تعالى (سنشد عضدك

---

(١) ، (٢) كذلك فعل المؤلف هنا وفى الموضعين ما فعله فى الآية التى اشرنا إليها بالهامش فى ص ١٨٥ وقد اضطر إلى ذلك اضطراراً كما هو ظاهر وليس فى هذا الصنيع أى إخلال بالتفسير وإنما هو مغايرة للتنظيم والتنسيق فحسب .

وَءاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ «٢٠»

بأخيك) وقيل شددنا على المبالغة ، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهى إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجهين (الأول) روى الواحدى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً . قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً . وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند دواد على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه ، فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود فى منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعدذلك بأن تقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله ، فقال المدعى عليه صدق الله إنى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود . فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

﴿ الصفة التاسعة ﴾ قوله (وآتيناه الحكمة) واعلم أنه تعالى قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمى هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الأحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

﴿ الصفة العاشرة ﴾ قوله (وفصل الخطاب) واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التى عرفوها فى الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان (وثالثها) الذى يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى

وَهَلْ أَتَيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ «٢١» إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ «٢٢» إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ «٢٣» قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ «٢٤» فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى

أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدره فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ، ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله (وآتيناه الحكمة) أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرماناً عظيما(١) والله أعلم ، وقول من قال المراد معرفة الأمور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر فى الخيال ، بحيث لا يختلط شىء بشىء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام . وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم ، وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له

(١) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا إيتاء داود الحكمة بأنه أول من قال أما بعد ، لبعدهم عن الفهم وعن الصواب ، وقد روى أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الايادي الخطيب المشهور .

وَحُسْنَ مَآبٍ «٢٥»

ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة فى هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم .

أما قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) فهو نظير قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ، ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها : أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه . فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

والذى أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه (الثانى) أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته (أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ « من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » (وأما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وإن أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة فى البيان .

فنقول (أما الصفات الأولى) فهى أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله .

(وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاماً فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة . فحينئذ ما كان داود كاملا

فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة .

(الصفة الثالثة) هو قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين ، لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة فى الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم ؟ .

(الصفة الرابعة) كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفاً بالقتل والفجور ؟ .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه) أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

(الصفة السادسة) قوله (والطير محشورة) ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شىء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟ .

(الصفة السابعة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ .

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملا ، فكيف يجوز أن يقولَ الله تعالى إنا (آتيناه الحكمة وفصل الخطاب) مع إصراره على مايستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه فى الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الأول) قوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله (وإن له عندنا لزلفى) لائقاً به (الثانى) قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إنى فوضت إليك خلافتى ونيابتى ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو

ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) فثبت أن هذا الذى نختاره أولى (والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله الله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعى فى قتل النفس بغير الحق والإفراط فى العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التى ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) أن داود عليه السلام قال (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا) استثنى الذين آمنوا عن البغى ، فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغى لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت فى بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لا شك أن داود عليه كان من أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه ، وأيضاً فبتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شىء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التى ذكرتموها حقيقية صحيحة فان روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التى هذا شأنها وصفتها ، فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت . ولم يذكر شيئاً (السابع) أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا) (الثامن) لو سعى داود فى قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله « من سعى

فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » وأيضاً لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب عليه السلام قال « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين » وهو حد الفرية على الأنبياء ، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فانه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل . يعنى فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا ، وإذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من من أكابر الأنبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما فى كتاب الله تعالى فقال لا ينبغى أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (١) « سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها أن القصة التى ذكروها فاسدة باطلة ، فان قال قائل إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيقى أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة .

أما الاحتمال الثانى : وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه : (الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له فى هذا ذنب البتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس فى وسعه ، فلا يكون مكلفاً به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذياً عظيما بسبب

(١) لم ينص فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه ، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذى حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولا ندرى أهو عمر بن الخطاب أم ابن عبد العزيز أم شخص غيرهما ولعله سقط بيان ذلك من الناسخ أو المطبعة الأميرية .

قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة اوى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً فى ظاهر الشريعة ، إلا أنه لا يليق بك ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

وأما الإحتمال الثالث : وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام ، بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به ، وهو أن نقول روى أن جماعة من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام ، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه ، فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب ، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً ، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة ، وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله (وظن داود أنما فتناه) ، (وثانيها) قوله تعالى (فاستغفر ربه) (وثالثها) قوله (وأناب) (ورابعها) قوله (فغفرنا له ذلك) ثم نقول ، وهذه الألفاظ لا يدل شىء منها على ماذكروه ، وتقريره من وجوه (الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق ، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم ، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله ، قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الإنتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب ، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثانى) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه ، إلا أنه ندم على ذلك الظن ، وقال لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك ، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردىء . فكان هذا هو المراد من قوله (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام ، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله ، كما قال فى حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب ، أى رجع إلى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل ، وقوله (فغفرنا له ذلك) أى غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه ، كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه ، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة ، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت ، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثانى ، فإنه

لما قال (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة . إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى(١) فثبت بهذه البيانات أما إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لايلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الأول) أن الأصل فى حال المسلم البعد عن المناهى ، لاسيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل (والثانى) أنه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال فى أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزأوا به حيث قالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال تعالى فى أول الآية : اصبر يامحمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب ، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ماذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً (والرابع) أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين ، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً ، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين (أحدهما) إسناد الكذب إلى الملائكة (والثانى) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء ، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء ، فكان قولنا أولى ، فهذا ما عندنا فى هذا الباب ، والله أعلم بأسرار كلامه ، ونرجع الآن إلى تفسير الآيات . أما قوله(وهل أتاك نبأ الخصم) قال الواحدى : الخصم مصدر خصمته أخصمه خصما ، ثم يسمى به الإثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع ، يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل ، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم ، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام . وقوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته ، ومعنى (تسوروا المحراب) أى أتوه من سوره وهو أعلاه ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها . وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه ، وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه ، وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهى أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى

---

(١) أقول : لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التى نفشت فى الزرع وجاء ذكرها فى سورة الأنبياء ، وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد فى الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام ، والقاعدة أن من اجتهد فى حكم وأخطأ فله أجر ، ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها فى عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعى إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ، ومنها قوله وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض والتعقيب بقوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) .

أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) ، (وثانيها) قوله (إذ دخلوا) ، (وثالثها) قوله (منهم) ، (ورابعها) قوله (قالوا لاتخف) فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى (إذ دخلوا على داود) والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال (إذ دخلوا عليه) دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت على إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً ، ثم قال تعالى (ففزع منهم) والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد . علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر ، فلا جرم فزع منهم ، ثم قال تعالى (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أى نحن خصمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قولان (الأول) أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه (والثانى) أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجدانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر . وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين فى قولهما خصمان ، فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين فى قولهما (بغى بعضنا على بعض) ولكانا كاذبين فى قولهما (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) ولقوله (ويفعلون مايؤمرون) أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل ، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الأول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثانى) أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية فى حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى (قالوا لاتخف) كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) أن قولهما (ولا تشطط) كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق . واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (بغى بعضنا على بعض) أى تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح

إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية ، ويقال بغت المرأة إذا زنت ، لأن الزنا كبيرة منكرة ، قال تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ثم قال (فاحكم بيننا بالحق) معنى الحكم إحكام الأمر فى إمضاء تكليف الله عليهما فى الواقعة ، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماح ، ومنه بناء محكم إذا كان قوياً ، وقوله (بالحق) أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به (ولا تشطط) يقال شط الرجل إذا بعد ، ومنه قوله : شطت الدار إذا بعدت ، قال تعالى (لقد قلنا إذاً شططاً) أى قولا بعيداً عن الحق ، فقوله (ولا تشطط) أى لا تبعد فى هذا الحكم عن الحق ، ثم قال (واهدنا إلى سواء الصراط) وسواء الصراط هو وسطه ، قال تعالى (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) ووسط الشىء أفضله وأعدله ، قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم (ولا تشطط) وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم (واهدنا إلى سواء الصراط) يعنى يجب أن يكون سعيك فى إيجاد هذا الحق . وفى الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب ، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (أخى) يدل من هذا أو خبر لقوله (إن) والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة وهى الأنثى من العقبان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الليث : النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ عبد الله (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) ، ثم قال (أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) قال صاحب الكشاف (أكفلنيها) حقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى (وعزنى) غلبنى ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به ، وقرىء وعازنى من المعازة ، وهى المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

ثم قال تعالى (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أى سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وروى أنه قال له إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجبهة

فقال ياداود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا . وأنت فعلت كيت وكيت . ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال ، فان قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال محمد بن اسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً فى دعواه (والثانى) قال ابن الأنبارى : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثانى فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت ، وقال تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق ، والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذى هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) قال الليث خليط الرجل مخالطه ، وقال الزجاج : الخلطاء الشركاء ، فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل مايملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضى ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لاتكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة ، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لابد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغى والعدوان ، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغى بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى (وقليل ماهم) واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير فى القرآن ، قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقال داود عليه السلام فى هذا الموضع (وقليل ماهم) وحكى تعالى عن إبليس أنه قال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وسبب القلة أن الدواعى إلى الدنيا كثيرة ، وهى الحواس الباطنة والظاهرة وهى عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن ، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية ، وأما الداعى إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم ، فلهذا السبب وقعت القلة فى جانب أهل الخير والكثرة فى جانب أهل الشر ، قال صاحب الكشاف وما فى قوله (وقليل ماهم) للابهام وفيه تعجب من قلتهم . قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس : وحديث ما على قصره ـ وانظر هل بقى له معنى قط .

ثم قال تعالى (وظن داود أنما فتناه) قالوا معناه وعلم داود أنما فتناه أى امتحناه ، قالوا

والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعدا إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالى يشبه الظن مشابهة عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز . وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

أما قوله (فاستغفر ربه) أى سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه . حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديد القهر عظيم القوة ، ثم إنه مع أنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع فى قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل فى قلبه شىء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله ، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثانى) لعله هم بإيذاء القوم ، ثم قال إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعى ولا ظنى على التزام المنكرات التى يذكرونها ، فما الذى يحملنا على التزامها والقول بها ، والذى يؤكد أن الذى ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن فى حق من صدر منه عمل كثير فى الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد فى الموافقة والانقياد ، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به . قال مالك بن دينار إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع فى الجنة ، ويقال ياداود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا والله أعلم . بقى ههنا مباحث : (فالأول) قرىء فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين (الثانى) المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله (خر راكعاً وأناب) يدل على حصول الركوع ، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار (الرابع) أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأن توبة نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود .

يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ «٢٦» وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ «٢٧» أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ «٢٨» كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ «٢٩»

قوله تعالى ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً فى سفك دماء المسلمين ، راغباً فى انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الأول) جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء فى الدعاء إلى الله تعالى ، وفى سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال (الثانى) إنا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله ، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى (فاحكم بين الناس بالحق) واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخيط ، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم ، وينتظم من

أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الانسان مدنى بالطبع وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق ، وذلك يفضى بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك ، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالح العالم ، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قولهم (فاحكم بين الناس بالحق) يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق فى اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

أما المقام الثانى : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسى بالكلية أحواله الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل دياراً ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينته قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه . فكان لا محالة فى أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان فى غاية الكمال .

ثم قال تعالى (بما نسوا يوم الحساب) يعنى أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً فى هذه اللذات الفاسدة .

روى عن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لايجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال ياأمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ! ؟ ثم تلا هذه الآية (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ثم قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ونظيره قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الجبائى بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل . فلما بين تعالى أنه (ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا) دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد . ومثله قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل ، وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال (ذلك ظن الذين كفروا) أى كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر . واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل ما بين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة ، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم ، فإما أن يقال إنه خلقهم للاضرار أو للانفاع أولا للانفاع ولا للاضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للانفاع ، فنقول وذلك الإنفاع ، إما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة ، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاستقصاء ، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى (ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلا) وإذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أنا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً فى الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

ثم قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكافر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول ، لسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار ، أنهم بالغوا فى إنكار البعث والقيامة ، وقالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله (وما خلقنا السماء والأرض) ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلا ؟ هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول : أن العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه فى تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، وأن يخوض فى كلام آخر أجنبى عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب فى ذلك الكلام الأجنبى ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبى ونسى المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج فى أثناء الكلام فى هذا الفصل الأجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلمها ، فحينئذ يتمسك بها فى إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحما ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا فى إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الإستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسألة ، واشرع فى كلام آخر أجنبى بالكلية عن هذه المسألة ، وهى قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح تلك القصة ، ثم قال فى آخر القصة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أنى رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضى بالباطل ، فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم فى إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكرى الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحما ملزماً بهذا

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ «٣٠» إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ «٣١» فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ «٣٢» رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ «٣٣»

الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الإلزام فى القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب) فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهى لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم ، حيث يراه فى ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ .

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله (نعم العبد) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ نقول المخصوص بالمدح فى (نعم العبد) محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده (إنه أواب) ولا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لأبيه فى صفات الكمال فى الفضيلة ، فكان هذا أولى .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه قال أولا (نعم العبد) ثم قال بعده (إنه أواب) وهذه الكلمة للتعليل ، فهذا يدل على أنه إنما كان (نعم العبد) لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فى أكثر الأوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه (نعم العبد) وهذا هو الحق الذى لاشبهة فيه ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شىء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون (نعم العبد) .

أما قوله (إذ عرض عليه) ففيه وجوه (الأول) التقدير (نعم العبد) هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا (الثانى) أنه ابتداء كلام . والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشى

هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها ، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولها) الصافنات ، قال صاحب الصحاح : الصافن الذى يصفن قدميه ، وفى الحديث « كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا » أى قمنا صافين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى ، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل ، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها . أما حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعنى أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها على أحسن الأشكال ، وإذا جرت كانت سراعاً فى جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى (قال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) وفى تفسير هذه اللفظة وجوه (الأول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى (والثانى) أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أنى ألزمت حب الخيل عن ذكر ربى ، أى عن كتاب ربى وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه فى القرآن ممدوح فكذلك فى التوراة ممدوح (والثالث) أن الإنسان قد يحب شيئاً لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذى يشتهى مايزيد فى مرضه ، والأب الذى يحب ولده الردىء ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبى لهذه الخيل .

ثم قال (عن ذكر ربى) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لاعن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى (حتى توارت) أقول الضمير فى قوله (حتى توارت) ، وفى قوله (ردوها) يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشى . ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثانى بالصافنات ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لامزيد عليها (فالأول) أن يعود الضميران معاً إلى الصافنات ، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات على ، والاحتمال (الثانى) أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله (ردوها على) إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندى بعيد والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الصافنات مذكورة تصريحاً ، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر (الثانى) أنه قال (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى . وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن

توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا فى غاية البعد (الثالث) أنا لو حكمنا بعود الضمير فى قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله (أحببت حب الخير عن ذكر ربى) فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسى الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) أنه بتقدير أنه عليه السلام بقى مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ ، فكان ذلك ذنباً عظيما وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة فى إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ، ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم ! (الخامس) أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على ، فان قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله (ردوها) لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعى على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) أنه تعالى قال (إذ عرض بالعشى الصافنات الجياد) ثم قال (حتى توارت بالحجاب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشى فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله (حتى توارت بالحجاب) على توارى الشمس وأن حمل قوله (ردوها على) على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام فى غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أى قطعها ، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندى أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثانى) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسى الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » (وثالثها)

أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها على) وهذه كلمة لايذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس ، (وخامسها) أنه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها وأعناقها ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكله » ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شىء منها (وسادسها) أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغوا فى السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يامحمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يامحمد على مايقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لوكان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور (الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو (الثانى) أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه (الثالث) أنه كان أعلم باحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شىء من تلك المنكرات والمحذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

﴿ المقام الأول ﴾ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شىء من تلك الوجوه التى يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

﴿ المقام الثانى ﴾ أن يقال هب أن لفظ الآية لايدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ «٣٤» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ «٣٥» فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ «٣٦» وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ «٣٧» وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ «٣٨» هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «٣٩» وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ «٤٠»

فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ، قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا فى المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) ولأهل الحشو والرواية فيه قول ، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر ، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات :

﴿ الأولى ﴾ قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة فى البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها ، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكى أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فى خاتمه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان . وقال يا أمينة خاتمى فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس ، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته . فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف ، وإذا قال

أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فانكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاها فى البحر .

﴿ والرواية الثانية ﴾ للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله .

﴿ والرواية الثالثة ﴾ لهم قالوا إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرنى خاتمك أخبرك فلما أعطاه اياه نبذه فى البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) أن الله تعالى ابتلاه وقوله (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

﴿ والرواية الرابعة ﴾ أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شىء من الشرائع . فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية (الثانى) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبى الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله فى حق أكابر الأنبياء أولى (والثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح (الرابع) لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة فى عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التى ذكرها أهل التحقيق فى هذا الباب فأشياء : (الاول) أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثانى) روى عن النبى ﷺ أنه قال « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى

سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجىء به على كرسيه فوضع فى حجره ، فوالذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم فى سبيل الله فرساناً أجمعون » فذلك قوله (ولقد فتنا سليمان) (الثالث) قوله (ولقد فتنا سليمان) بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، (وألقينا على كرسيه) منه (جسداً) وذلك لشدة المرض . والعرب تقول فى الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أى رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى (قال رب اغفر لى) فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبداً فى مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم .

ثم قال تعالى (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة ، وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال لمحمد ﷺ (وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) فإن قيل قوله عليه السلام (ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغى لأحد من بعدى ، هو أن يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ، ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى . والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال (عقيبه فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله (لا ينبغى لأحد من بعدى) يعنى لا يقدر

أحد على معارضته (والوجه الثانى) فى الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره ، وذلك الذى سأله بقوله (ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) أى ملكا لا يمكن أن ينتقل عنى إلى غيرى (الوجه الثالث) فى الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها ، فكأنه قال : يا إلهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية ، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب ، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة ، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة ، فقال سليمان أعطنى يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر ، حتى أنى أبقى مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الإحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة ، فقال سليمان يارب العزة أعطنى أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها ، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها ، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ، ثم قال (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) رخاء أى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى آية أخرى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) قلنا الجواب من وجهين (الأول) لا منافاة بين الآيتين فان المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثانى) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى (حيث أصاب) أى قصد وأراد ، وحكى الأصمعى عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما ، فقال أين تصيبان ؟ فقالا هذا مطلوبنا . وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجرى بأمره على وفق إرادته ، ثم قال والشياطين كل بناء وغواص ، قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله (كل بناء) وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وقوله (مقرنين) يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة (والأصفاد) الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً ، قال النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته ، وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته ، وههنا بحث ، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التى لا يقدر عليها البشر ، وقدروا

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ «٤١» ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ «٤٢» وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ «٤٣» وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ

على الغوص فى البحار ، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة ، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم ، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها ، وذلك دخول فى السفسطة ، وإن كان الثانى وهو أن أجسادهم ليست كثيفة ، بل لطيفة رقيقة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة ، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا فى الحال ، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية ، وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة ، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد فى زماننا ؟ ولم لا يخربون ديار الناس ؟ مع أن المسلمين مبالغون فى إظهار لعنهم وعداوتهم . وحيث لم يحس شىء من ذلك ، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها ، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق . وأما الجبائى فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم فى زمن سليمان ، ثم إنه لما توفى سليمان عليه السلام ، أمات الله أولئك الجن والشياطين ، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم فى غاية الرقة ، ولا يكون لهم شىء من القوة ، والموجود فى زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس .

ثم قال تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب ، أى ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثانى) أن هذا فى أمر الشياطين خاصة ، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه ، واحبس من شئت منهم فى العمل بغير حساب .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان فى الدنيا ، أردفه بإنعامه عليه فى الآخرة ، فقال (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وقد سبق تفسيره .

قوله تعالى ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ،

وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ «٤٤»

وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة . واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار . كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتمال منه (أنى مسنى) أى بأنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ، وقرىء (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب ، كالرشد والرشد ، والعدم والعدم . والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد فى الجسم . ولما حصل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) أن الآلام والأسقام الحاصلة فى جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف فى هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

وأما القول الأول : فتقريره ما روى أن إبليس سأل ربه ، فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى ؟ فقال الله : نعم عبدى أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال يارب إنه قد امتنع على فسلطنى على ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال يارب إن أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه . فقال يارب لا يبالى بماله وولده فسلطنى على جسده ، فأذن فيه ، فنفخ فى جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث فى ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال

(إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاءه، وأوحى إليه (أن اركض برجلك) فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها، فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه، ورد عليه أهله وماله.

والقول الثانى: أن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس فى الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه (الأول) أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطى الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى (الثانى) أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فصرح بأنه لا قدرة له فى حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الأمراض والآفات. فان قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ قلنا فاذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك؟ بل الحق أن المراد من قوله (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى أنواع العذاب والعناء، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن علته كانت شديدة الألم. ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته، ولم يبق له شىء من الأموال البتة. وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم، والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت، وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد. (الثانى) أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان)، (الثالث) قيل إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعنى زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب). (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين، ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء، فذكروا ذلك

لأيوب عليه السلام ، فقال لا أدرى ما تقولان غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى الحق» (الخامس) قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به إلى أيوب ، فاتفق أنهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ، ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة . وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه ، فعند ذلك قال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) ، (السادس) قال فى بعض الأيام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران إلا آثرت طاعتك ، ولما أعطيتنى المال كنت للأرامل قيما ، ولابن السبيل معيناً ، ولليتامى أباً ! فنودى من غمامة ياأيوب ممن كان ذلك التوفيق ؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه ، وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الأول فقال (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقد ذكروا أقوالا أخرى ، والله أعلم بحقيقة الحال ، وسمعت بعض اليهود يقول إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً فى واقعة أيوب ، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة ، مبالغاً فى التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ثم إنه وقع فى البلاء الشديد والعناء العظيم ، فهل كان ذلك لحكمة أم لا ؟ فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم فى الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب فى مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة . وحينئذ لا يبقى فى تلك الأمراض والآفات فائدة ، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهى دالة على أن أفعال ذى الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ، والحق الصريح (أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل فى بدنه من الأمراض ، وعلى القول الثانى عبارة عن الأحزان الحاصلة فى قلبه بسبب إلقاء الوساوس ، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان ، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم .

أما قوله تعالى (أركض برجلك) فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان ، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له (أركض برجلك) والركض هو الدفع القوى بالرجل ، ومنه ركضك الفرس ، والتقدير قلنا له أركض برجلك ، قيل إنه ضرب برجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أى هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك ، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه . والمفسرون قالوا نبعت له

عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها

ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، (والأول) أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا . وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله (ومثلهم معهم) فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

ثم قال (رحمة منا) أى إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال (وذكرى لأولى الألباب) يعنى سلطنا البلاء عليه أولا فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولى الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبيه على ماوقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود) وقالت المعتزلة قوله تعالى (رحمة مناوذكرى لأولى الألباب) يعنى إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام فى هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثاً) فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفى الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا فى السبب الذى لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته فى طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روى أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته فى بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت فى بعض المهمات فأبطأت فحلف فى مرضه ليضربنها مائة إذا برىء ، ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شىء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبى ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال « خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة » .

ثم قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) فان قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه : (الأول) أنه شكى من الشيطان إليه وماشكى منه إلى أحد (الثانى) أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) أن الشيطان عدو ، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح فى الصبر ، ثم قال (نعم العبد إنه أواب)

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ «٤٥» إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ «٤٦» وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ «٤٧» وَاذْكُرْ إِسْمَعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ «٤٨»

وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد ، إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان عليه السلام تارة ، وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم فى قلوب أمة محمد ﷺ ، وقالوا إن قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان تشريف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه ، فكيف السبيل إلى تحصيله . فأنزل الله تعالى قوله (نعم المولى ونعم النصير) والمراد أنك إن لم تكن (نعم العبد) فأنا (نعم المولى) وإن كان منك الفضول ، فمنى الفضل ، وإن كان منك التقصير ، فمنى الرحمة والتيسير .

قوله تعالى ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير (عبدنا) على الواحد وهى قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله (عبدنا) تشريف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين فى هذه الاية وهو إبراهيم وقرأ الباقون (عبادنا) قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجرى عليه هذا الوصف فجاء فى عيسى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وفى أيوب (نعم العبد) وفى نوح (إنه كان عبداً شكوراً) فمن قرأ عبدنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهى إسحق ويعقوب ، ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .

﴿المسألة الثانية﴾ تقدير الآية كأنه تعالى قال (فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) إلى أن قال (واذكر عبدنا إبراهيم) أى واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقى فى النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره . ثم قال (أولى الأيدى والأبصار) ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر . إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة

هٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ «٤٩» جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ «٥٠» مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ «٥١» وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ «٥٢» هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ «٥٣» إِنَّ هٰذَا

الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل ، فقوله (أولى الأيدى والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين .

ثم قال تعالى (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (بخالصة) قرىء بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير (أخلصناهم) أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهى ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار ، يعنى أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ذكرى الدار وجوه : (الاولى) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

ثم قال تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير أو خير على التخفيف كأموات فى جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية فى إثبات عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق ، وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد فى دين الله ، وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الأسماء وفى صفات هؤلاء الأنبياء فى سورة الأنبياء وفى سورة الأنعام ، فلا فائدة فى الإعادة ، وههنا آخر الكلام فى قصص الأنبياء فى هذه السورة .

قوله تعالى ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ،

لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَّفَادٍ «٥٤»

إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .

إعلم أن فى قوله (ذكر) وجهين (الأول) أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال ، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لاجرم قال (هذا ذكر) ، ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال (وإن للمتقين) كما أن المصنف إذا تمم كلاماً قال هذا باب ، ثم شرع فى باب آخر ، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاغين) (الوجه الثانى) فى التأويل ، أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً ، والأول هو الصحيح .

أما قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) .

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا) فعند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة ، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الأول) أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد ، فيجب عليك أن تقتدى بهم فى هذا المعنى (الثانى) أنه تعالى بين فى هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى ، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف .

أما قوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب) المآب ، المرجع . واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية ، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وكانت فى حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان ، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك رجوعاً (وجوابه) أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان ، ولا يدل على قدم الأرواح .

ثم قال تعالى (جنات عدن) وهو بدل من قوله (لحسن مآب) ثم قال (مفتحة لهم الأبواب) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تأويل هذا اللفظ وجوهاً (الأول) قال الفراء : معناه مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، تقول العرب : مررت برجل حسن الوجه ، فالألف واللام فى الوجه بدل من الإضافة (والثانى) قال الزجاج : المعنى (مفتحة لهم الأبواب) منها (الثالث) قال صاحب الكشاف : (الأبواب) بدل من الضمير ، وتقديره مفتحة

هى الأبواب ، كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرى. (جنات عدن) مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله (جنات عدن) مبتدأ ومفتحة خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف . أى هو (جنات عدن مفتحة لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة فى هذه الآية أشياء (الأول) أحوال مساكنهم ، فقوله (جنات عدن) يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثانى) كونها دائمة آمنة من الانقضاء .

وفى قوله (مفتحة لهم الأبواب) وجوه (الأول) أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ، (الثانى) أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافرة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى (متكئين فيها) يدعون فيها ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى ذكر فى هذه الآية كونهم متكئين فى الجنة ، وذكر فى سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال فى آية (على الأرائك متكئون) وقال فى آية أخرى (متكئين على رفرف خضر) .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (متكئين فيها) حال قدمت على العامل فيها وهو قوله (يدعون فيها) والمعنى يدعون فى الجنات (متكئين فيها) ثم قال (بفاكهة كثيرة وشراب) والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب ، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب فى ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال (وعندهم قاصرات الطرف) وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى (كونهن قاصرات الطرف) عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله (أتراب) أى على سن واحد ، ويحتمل كون الجوارى أتراباً ، ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب فى اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضى عدم الغيرة .

ثم قال تعالى (هذا ما توعدون ليوم الحساب) يعنى أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ «٥٥» جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ «٥٦» هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ «٥٧» وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ «٥٨» هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ «٥٩» قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ «٦٠» قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ «٦١» وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ «٦٢» أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ «٦٣» إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ «٦٤»

قوله تعالى ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعاً (فالأول) مرجعهم ومآبهم ، فقال (هذا وإن للطاغين لشر مآب) وهذا فى مقابلة قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين ، واختلفوا فى المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ، وقال الجبائى : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج الأولون بوجوه (الأول) أن قوله (لشر مآب) يقتضى أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ، وذلك لا يليق إلا بالكفار (الثانى) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وذلك لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً (الثالث) أنه اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل ، والكامل فى الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى

(إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى) وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ، إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضى الله عنهما . المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب ، أى شر مرجع ومصير ، ثم قال (جهنم يصلونها) والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله (جهنم يصلونها) ثم قال (فبئس المهاد) وهو كقوله (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم .

ثم قال تعالى (هذا فليذوقوه حميم وغساق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيه وجهان (الأول) أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه . ثم يبتدىء فيقول : حميم وغساق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الأول) أنه الذى يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها . وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره . والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهرى : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار (الثالث) أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لا نتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب : الغساق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

﴿ المسألة الثالثه ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف . قال أبو على الفارسى الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسما أو صفة ، فان كان اسما فالأسماء لم تجىء على هذا الوزن إلا قليلا ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى (وآخر من شكله أزواج) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمر (وأخر) بضم الألف على جمع أخرى أى أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر ، أما على القراءة الأولى فقوله وأخر أى ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق ، أى من مثله فى الشدة والفظاعة . أزواج أى أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله . قال صاحب الكشاف : وقرىء من شكله بالكسر وهى لغة ، وأما الغنج[1] فبالكسر لا غير .

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها مقارنة لغوية ذكرها المفسر بين الشكل والغنج ولا مناسبة بينهما ظاهرة .

فى الدنيا أولا ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا ثانياً (أما الأول) فهو قوله (هذا فوج مقتحم معكم) واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ماحكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله (قالوا بل أنتم لامرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا) ، وقيل إن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى أتباعهم ، وقوله (لامرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء ، وقوله (هذا فوج مقتحم معكم) أى هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

وقوله تعالى (لامرحباً بهم) دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أى أتيت رحباً فى البلاد لاضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ، ثم يدخل عليه كلمة لا فى دعاء السوء ، وقوله (بهم) بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قالوا أى الأتباع (بل أنتم لامرحباً بكم) يريدون أن الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أولصليهم ، فان قيل مامعنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلنا الذى أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى (وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم) إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه باغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير فى قوله (قدمتموه) كناية عن الطغيان الذى دل عليه قوله (وإن للطاغين لشر مآب) وقوله (فبئس القرار) أى بئس المستقر والمسكن جهنم ، ثم قالت الأتباع (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) أى مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وكذلك قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب) فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظلماً وإنه لايجوز . قلنا المراد منه قوله عليه السلام « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثانى عذاب الإضلال والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحباباً لهم فى الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا فهو قوله (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنى أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فحينئذ يقولون (ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا (أتخذناهم سخرياً) وفيه مسائل :

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٦٥» رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ «٦٦» قُلْ هُوَ نَبَؤُا عَظِيمٌ «٦٧» أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ «٦٨» مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ «٦٩» إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ «٧٠»

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى (من الأشرار اتخذناهم) بوصل ألف (اتخذناهم) والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم فى قوله (مالنا لانرى رجالا) ، ولأن المشركين لايشكون فى اتخاذهم المؤمنين فى الدنيا سخرياً ، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك فى قوله (فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى) فكيف يحسن أن يستفهموا عن شىء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذى معناه التعجيب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشىء المعلوم ، أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لابد من المصير إليه ليعادل قوله (اتخذناهم) بأم فى قوله (أم زاغت عنهم) فان قيل فما الجملة المعادلة لقوله (أم زاغت) على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الابصار ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (سخرياً) بضم السين والباقون بكسرها ، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار . ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم (اتخذناهم سخريا) وأما القراءة على سبيل الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار ، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذى حكينا عنهم لحق لابد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذى حكيناه عنهم ماهو ، فقال (تخاصم أهل النار) وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء (لامرحباً بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحباً بكم) من باب الخصومة .

قوله تعالى ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمداً ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبين من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله. ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين (الأول) ليصير ذلك حاملا لمحمد ﷺ على التأسى بالأنبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان، ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب. فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث، فقال قل يا محمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار، فان الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب، لأن إزالة مالا ينبغى مقدمة على إثبات ماينبغى، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه، ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم.

أما قوله (قل إنما أنا منذر) يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد، وأحوال ثواب من أقر بها، وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وفى هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير، وبيانه أن الذى يجعل شريكا له فى الإلهية. إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف فى العالم أو لا يكون كذلك، بل يكون جماداً عاجزاً (والأول) باطل لأنه لوكان شريكه قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً، لأن بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشىء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر، فيفضى إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً، والعاجز لا يصلح للالهية. فقوله (إلا الله الواحد القهار) إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً (وأما الثانى) وهو أن يقال إن الذى جعل شريكا له لا يقدر على شىء البتة مثل هذه الأوثان، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً فقوله (وما من إله إلا الله الواحد القهار) يدل على هذه الدلائل، واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعر بالترهيب والتخويف، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال (رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب، وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته، لأنه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه.

ونذكر طريقة أخرى فى تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار ، أما كونه واحداً فهو الذى وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لاساحل له فاذا تأملت فى آثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزاً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربى وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شىء (وثالثها) كونه غفاراً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم تاب فانى أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار ، واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهاً فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم ، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى أول السورة ولأجلها انجر الكلام إلى كل ماسبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ماقال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) واعلم أن قوله (أنتم عنه معرضون) ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع فى أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة .

أما قوله تعالى (ماكان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الأربعة ، وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه : (الأول) أن كل واحد منها نبأ عظيم ، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون) والمعنى أنهم قالوا أى فائدة فى خلق

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ «٧١» فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ «٧٢» فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ «٧٣» إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ «٧٤» قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله (من يفسد فيها) وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله (ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك) فقال الله سبحانه وتعالى (إنى أعلم ما لا تعلمون) وتقرير هذا الجواب والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (ثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الأشياء الخالية عن القسمين ، وهى الجمادات وبقى فى التقسيم (قسم رابع) وهو الذى حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى فى تحصيل هذه الصفات ، وأن يجتهد فى اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام . فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فان المخاصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول (إن يوحى إلى أنما أنا نذير مبين) يعنى أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحى ، وإنما أوحى الله إلى هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد .

قوله تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ «٧٥» قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ «٧٦» قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ «٧٧» وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ «٧٨» قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ «٧٩» قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ «٨٠» إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ «٨١» قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٨٢» إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ «٨٣» قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ «٨٤» لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ «٨٥»

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾

إعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين فى النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد . وذكر فى تقريره أموراً أربعة (أولها) أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثانى) أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة فى تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية فى تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما . فهذا هو وجه النظم فى هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها فى سور كثيرة ، فلا فائدة فى الإعادة إلا مالابد منه وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (إنى خالق بشراً من طين) سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ سواراً من ذهب ، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة .

﴿ الثانى ﴾ ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين ، وفى سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى فى آدم إنه خلقه من تراب وكقوله (من صلصال من حمأ مسنون) وكقوله (خلق الإنسان من عجل) .

﴿ الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشراً من طين . لم يقولوا شيئاً ، وفى الآية الأخرى وهى التى قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض . والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال (إنى خالق بشراً من طين) فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات . إنما أخلقه من الطين . والجواب عن الثانى أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل ، والجواب عن الثالث أنه فى الآية المذكورة فى سورة البقرة بين لهم أنه يخلق فى الأرض خليفة ، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولا ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس .

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المنى ، والمنى إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهى إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد فى حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التى فى مثلها حصل ذلك المزاج الذى لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة .

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحى) ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوى قدسى ، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة من تدل على التبعيض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا فى غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل ، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث .

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء ، وسريان النار فى الفحم ، فهذا القدر معلوم . أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفاء فى قوله (فقعوا له ساجدين) تدل على أنه كما تم نفخ الروح فى الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور فى قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ففيه مباحث عميقة . وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها فى بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة ،

وإبليس الذى لم يسجد هو القوة الوهمية التى هى المنازعة لجوهر العقل ، والكلام فيه طويل . وأما بقية المسائل وهى : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً أصلياً أم لا . فكل ذلك تقدم فى سورة البقرة وغيرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) فى إثبات يدين الله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه ، فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

واعلم أن الدلائل الدالة على نفى كونه تعالى جسما مركباً من الأجزاء والأعضاء ، قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة (فالأول) أن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التى ورد ذكرها فى القرآن ولا يزيد عليها ، وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها فى القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) ويلزمه أن يثبت فى تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله (تجرى بأعيننا) وأن يثبت جنباً واحداً لقوله تعالى (ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وأن يثبت على ذلك الجنب أيدى كثيرة لقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فيكون الحاصل من هذه الصورة ، مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة ، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد فى شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثانى : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة فى القرآن ، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه فى الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

﴿ الحجة الثانية ﴾ فى إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى ، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل ، وإن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوهما فهو خصى أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه فى ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسما صلباً لا ينغمز البتة ، فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلا للانغماز ، فيكون ليناً قابلا للتفرق والتمزق ، وتعالى الله عن ذلك .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالزمن المقعد العاجز ، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان محلا للتغيرات ، فدخل تحت قوله (لا أحب الآفلين) .

﴿الحجة الخامسة﴾ إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء ، كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

﴿الحجة السادسة﴾ أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ لا يبقى فى النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن إلهية العرش والسموات .

﴿الحجة السابعة﴾ أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسى ، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل.

﴿الحجة الثامنة﴾ ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسما محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب ، فيكون إله العالم على هذا القول فلكا من الأفلاك .

﴿الحجة التاسعة﴾ لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل فى حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض ، فلو نزل من العرش فى ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلا عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش البتة .

﴿الحجة العاشرة﴾ أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض (وثانيها) كونه محدوداً متناهياً (وثالثها) كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً ، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهياً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للألهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية للألهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن فى إلهية الشمس والقمر .

﴿الحجة الحادية عشرة﴾ قوله تعالى (قل هو الله أحد) ولفظ الأحد مبالغة فى الوحدة ، وذلك ينافى كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

﴿الحجة الثانية عشرة﴾ قوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء فى لفظ اليد وجوهاً (الاول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالى بهذا الأمر من يد ، أى من قوة وطاقة ، قال تعالى (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) ،

(الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى (نشراً بين يدى رحمته) .

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه (الأول) أن ظاهر الآية يقتضى إثبات اليدين ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) أن الآية تقتضى أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة ، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى ، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى . وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة ، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم ، وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) أنه جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « كلتا يديه يمنى » ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة .

(وأما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه (الأول) أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنتين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لا يكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات ، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله (تبارك الذى بيده الملك) معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله «بيدك الخير» معناه بنعمتك الخير ولكان قوله (يداه مبسوطتان) معناه نعمتاه مبسوطتان ، ومعلوم أن كل ذلك فاسد .

(وأما التأويل الثالث) وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لا يكون هذا العضو حاصلا فى حقه (أما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب فى هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة ، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة ، وقد تقدم إبطال هذا الوجه (وأما الثانى) فكقوله (بين يدى عذاب شديد) وقوله (بين يدى الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطرداً ، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ، ونحن نسلم أن قوله (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة ، أما المذكور فى هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى (خلقت بيدى) وإن كان القياس فى المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية ، فهذا منتهى البحث فى هذا الباب .

والذى تلخص عندى فى هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شىء بيده إلا إذا كانت

غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل ، فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة . فهذا ما لخصناه فى هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (استكبرت أم كنت من العالين) فالمعنى : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فالمعنى أنى لو كنت مساوياً له فى الشرف لكان يقبح أمرى بسجودى له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أن إبليس مخلوق من النار ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

﴿ المقدمة الثانية ﴾ أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الأول) أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض (الثانى) أن النار خليفة الشمس والقمر فى إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، فخليفتهما فى الإضاءة أفضل من الأرض (الثالث) أن الكيفية الفاعلة الأصلية . إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح (السابع) النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذى يبدأ من نقطة الإستواء الشمالى ، ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضى (التاسع) أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر) أن القوة الباصرة قوة فى غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادى عشر) أن أشرف أجسام العالم الجسمانى هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار فى صورته وطبيعته وأثره (الثانى عشر) أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث العاشر) أن أقوى العناصر

الأربعة فى قوة الفعل هو النار وأكملها فى قوة الإنفعال هو الأرض والفعل أفضل من الإنفعال فالنار أفضل من الأرض . أما القائلون بتفضيل الأرض على النارفذكروا أيضاً وجوهاً (الأول) أن الأرض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنارخائنة تفسدكل ما أسلمته إليها (الثانى) أن الحس البصرى أثنى على النار (١) فليستمع ما يقوله الحس اللمسى (الثالث) أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر فى الأرض الخالصة .

﴿ وأما المقدمة الثالثة ﴾ فهى أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه ، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذى لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها ، فالمقدمة الكاذبة فى القياس الذى ذكره إبليس هو هذه المقدمة ، وإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ فى هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه (الأول) أن قوله (اسجدوا) أمر والأمر لا يقتضى الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر ، وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثانى) هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس (الثالث) هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس (الرابع) هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب ، وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى (أستكبرت أم كنت من العالين) فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح فى أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) .

واعلم أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله (منها) أى من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

(١) العبارة مصحفة لأن الحس البصرى فيما نعلم لم يثن على النار وإنما يتأذى به كما أن الحس اللمسى يحترق بالنار . ولعله نظر إلى المعنى من ناحية أخرى هى أن فضل النار لم يظهره إلا البصر واللمس وهما من طبيعة الأرض . فبسببهما بان فضل الأرض على النار

﴿ الأول ﴾ أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله (رجيم) على الطرد لكان قوله بعد ذلك (وإن عليك لعنتى) تكراراً والجواب من وجهين (الأول) انا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثانى) أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

﴿ والقول الثانى ﴾ فى تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم . فإن قيل كلمة إلى لانتهاء الغاية فقوله (إلى يوم الدين) يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجىء يوم الدين ، أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه فى الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملعوناً قال (فأنظرنى إلى يوم يبعثون) قيل إنما طلب الانظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجىء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه ، فقال إبليس (فبعزتك) وهو قسم بعزة الله وسلطانه (لأغوينهم أجمعين) فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى (رب بما أغويتنى) فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير فى هذه المسألة .

وأما قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ففيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ قيل غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع فى كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال إنما ذكرت هذا الإستثناء لئلا يقع الكذب فى هذا الكلام ، وعندهذا يقال إن الكذب شىء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله (وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ؟ قلنا إن إبليس لم يقل إنى لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوى عباد الله المخلصين ، وقال تعالى فى صفة يوسف (إنه من عبادنا المخلصين) فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وفيه مسائل :

قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ «٨٦» إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ «٨٧» وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ «٨٨»

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما . أما الرفع فتقديره فالحق قسمى . وأما النصب فعلى القسم ، أى فبالحق ، كقولك والله لأفعلن . وأما قوله (والحق أقول) انتصب قوله (والحق) بقوله (أقول) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (منك) أى من جنسك ، وهم الشياطين (وممن تبعك منهم) من ذرية آدم ، فإن قيل قوله (أجمعين) تأكيد لماذا ؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير فى منهم . أو الكاف فى منك مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الأول) أنه تعالى قال فى حق إبليس (اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالا مع أنه أمر به (والثانى) أنه قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فالله تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادراً على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به ، فإن قالوا لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال ، ويخلص بنى آدم عن الضلال . وهذا عين المصلحة (الثالث) أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة ، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل فى حق الله تعالى (الرابع) أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين ، وأن يميت إبليس والشياطين ، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد (الخامس) أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان ، يقتضى تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة ، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة ، وذلك تكليف بما لا يطاق ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذى أدعو الناس إليه يجب أن ينظر فى حال الداعى ، وفى حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل . أما الداعى وهو أنا . فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالا ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة ، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها ، وأما كيفية الدعوة

فقال : وما أنا من المتكلفين والمفسرون ، ذكروا فيه وجوها ، والذى يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذى أدعوكم إليه دين ليس يحتاج فى معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإنى أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله (أولا) ثم أدعوكم (ثانياً) إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، يقوى ذلك قوله (ليس كمثله شىء) وأمثاله ، ثم أدعوكم (ثالثاً) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ثم أدعوكم (رابعاً) إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والإضداد ، ثم أدعوكم (خامساً) إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التى هى جمادات خسيسة ولا منفعة فى عبادتها ولا مضرة فى الإعراض عنها ، ثم أدعوكم (سادساً) إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء ، ثم أدعوكم (سابعاً) إلى الإقرار بالبعث والقيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) ثم أدعوكم (ثامناً) إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هى الأصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانيـة ، فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) ولما بين هذه المقدمات قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأبيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين فى هذا الإعراض أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لامزيد عليه فى التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمة الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه . والصلاة على المطهرين من عباده فى أرضه وسمائه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه . والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

﴿ سورة الزمر ﴾

﴿ سبعون وخمس آيات مكية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «١» إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ «٢» أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٣» إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ «٤» لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٥»

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ، لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

اعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الفراء والزجاج : فى رفع (تنزيل) وجهين (أحدهما) أن يكون قوله (تنزيل) مبتدأ وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبر (والثانى) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضمر المبتدأ كقوله (سورة أنزلناها) أى هذه سورة ، قال بعضهم الوجه الأول لوجوه (الأول) أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة ههنا (الثانى) أنا إذا قلنا (تنزيل الكتاب من الله) جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل

الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق (والجواب) أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخر تدل على كونه منزلا .

أما (الأول) فقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، وقال (تنزيل من حكيم حميد) وقال (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) .

وأما (الثانى) فقوله (إنا نحن نزلنا الذكر) ، وقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلا ، فكونه منزلا مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهى أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذى بلغها إلى الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذى لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على مالا نهاية له والحكيم هو الذى يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غنى عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى (عزيزاً حكيما) يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والإستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل مايفعله يكون حكمة وصواباً . إذا ثبت هذا فنقول الإنتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين : (أحدهما) أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله (والأصل الثانى) أن الله أراد بهذه الألفاظ المعانى التى هى موضوعة لها ، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لاسبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيما ، وثبت أن لاسبيل

إلى إثبات كونه حكيما إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .

أما قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) ففيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً نجماً على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما (والجواب) إن صح الفرق بين التنزيل و بين الإنزال من الوجه الذى ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكماً كلياً جزماً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق)؟(والجواب) فيه وجهان (الأول) المراد (أنزلنا الكتاب اليك) ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه (الثانى) أن يكون المراد (إنا أنزلنا إليك الكتاب) بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى لما بين فى قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض مافيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية ، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى (فاعبد الله مخلصاً) ، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله (ألا لله الدين الخالص) لأن قوله (ألا لله) يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم فى المذكور و ينتفى عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ماهى وأن الإخلاص ماهو وأن الوجوه المنافية للاخلاص ما هى فهذه أمور ثلاثة لابد من البحث عنها :

أما العبادة : فهى فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعى له إلى الإتيان بذلك الفعل أوالترك مجرد هذا الانقياد والإمتثال ، فان حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعى الى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلا له أو مرجوحا . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط، وأما إذا كان الداعى الى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا فى أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله (فاعبد الله مخلصاً)

صريح فى أنه يجب الإتيان بالعباة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهى الوجوه الداعية للشريك وهى أقسام : (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتى بها ويعتقد أن لها تأثيراً فى إيجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة ، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال (فاعبد الله مخلصاً له الدين) المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله ، واحتجوا بما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا إله إلا الله حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » وهذا قول من يقول : لاتضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهى ، وهذا هو الأولى لأن قوله (فاعبد الله) عام ، وروى أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها ، فلما صلى عليها ودفنت ، قال للفرزدق يا أبا فراس ماالذى أعددت لهذا الأمر؟قال شهادة أن لاإله إلا الله . فقال الحسن رضى الله عنه هذا العمود فأين الطنب ؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لاينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة ، قال القاضى فأما مايروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى الدرداء « وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى الدرداء » فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن ، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقة ، وأن لا يكون متعدياً بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لايضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح والكل ينافى حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح ، لأنا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبيح لايضر مع التمسك بالشهادتين . هذاتمام كلام القاضى . فيقال له : أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أى حال كونه آكلا وشارباً ، وقال (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ، وأما قوله إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح ، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا ، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة ، وأنت لاتقول به ، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا ، وأيضاً فيلزم عليه أن لايحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر ، وأما

الفرق الذى ذكره القاضى فبعيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه فى الحال علم أنه لا يضره ذلك الذنب البتة . ثم نقول، مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر فى الجملة ، فأما فى حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فقطع بحصول المغفرة فى الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران فى حق كل أحد بل فى حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الإغراء حاصلا والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء الدين بالرفع ، ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام لقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص فى التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير لخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير فى قوله (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) عائد على الأشياء التى عبدت من دون الله . وهى قسمان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التى عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهى الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذى ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق ، وبيانه من وجهين (الأول) أن الضمير فى قوله (مانعبدهم) ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام (الثانى) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار فى المسيح والعزير والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد فى الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله ، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التى جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : (الأول) أنه اقتصر فى الجواب على مجرد التهديد فقال (إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلا وكان مصراً عليه ، فالطريق فى علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن

قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود . والأطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقى المسهل فان بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولا يجرى مجرى سقى المنضج أولا ، وإسماع الدليل ثانياً يجرى مجرى سقى المسهل ثانياً ، فهذا هو الفائدة فى تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى (إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقى محروماً عن الهداية ، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضرورى حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الإعتقاد ، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر . ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها فى ذلك الإنعام فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه (الأول) أنه لو اتخذ ولداً لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت (الثانى) أنه سبحانه واحد حقيقى والواحد الحقيقى يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقى فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الأول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل فى الشيء الذى ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثانى) شرط الولد أن يكون مماثلا فى تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته . فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً فى حقيقته ، وكونه واحداً فى حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه ، وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذى يموت فيحتاج

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ «٦» خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ «٧» إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٨»

إلى ولد يقوم مقامه ، فالمحتاج إلى الولد هو الذى يكون مقهوراً بالموت ، أما الذى يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد فى حقه محالا ، فثبت أن قوله (هو الله الواحد القهار) ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة فى نفى الولد عن الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ، إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، إنه عليم بذات الصدور ﴾

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً وقهاراً غالباً أى كامل القدرة ، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء ، وأيضاً فانه تعالى طعن فى إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التى باعتبارها تحصل الإلهية ، واعلم أنا بينا فى مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى

إثبات إلهيته ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام (أحدها) خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) و (الثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان ، وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذاك هذا أخرى . وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه و تعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ماورد فى الحديث « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » أى من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه و تعالى عبر عن هذا المعنى بقوله (يكور الليل على النهار) وبقوله (يغشى الليل النهار) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وبقوله (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر) و (الثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر ، فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله (كل يجرى لأجل مسمى) الأجل المسمى يوم القيامة ، لايزالان يجريان إلى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ، ونظيره قوله تعالى (وجمع الشمس والقمر) والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال (ألا هو العزيز الغفار) والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أى كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فانه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفاراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ، ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) ودلالة تكون الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فان قيل كيف جاز أن يقول (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن كلمة ثم كما تجىء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجىء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغنى ماصنعت اليوم ، ثم ماصنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال

بوجود الحيوان عليه فقال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهى الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) وفى تفسير قوله تعالى (وأنزل لكم) وجوه : (الأول) أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثانى) أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) أنه تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله (ثمانية أزواج) أى ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ، والزوج اسم لكل واحد معه آخر ، فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) .

ثم قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق) وفيه إبحاث :

﴿ الأول ﴾ قرأ حمزة بكسر الألف والميم ، والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم ، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم .

﴿ الثانى ﴾ أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهى كونها مخلوقة فى بطون أمهاتهم وقوله (خلقاً من بعد خلق) المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين) وقوله (فى ظلمات ثلاث) قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال (ذلكم الله ربكم) أى ذلكم الشىء الذى عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم ، وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية ، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلا لهذه الأشياء ، ولو كان جسما مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشىء بأجزاء حقيقته ، وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته . والتعريف الأول أكمل من الثانى ، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز ، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء .

ثم قال تعالى (له الملك) وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أنه لا ملك

إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك ، فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادراً ويجرى بينهما التمانع كما ثبت فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وذلك محال ، وإن لم يكن للثانى شىء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للالهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه : (الأول) قوله (فأنى تصرفون) يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة . أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة فى أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله ، وأيضاً فدليل العقل يقوى ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله (فأنى تصرفون) تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

ثم قال تعالى (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غنى على الاطلاق ، ويمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غنى لوجوه : (الأول) أنه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق (الثانى) أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة . والأول باطل وإلا لزم أن يخلق فى الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض . والثانى باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعى إلى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب أنه يبقى الشك فى أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الأربعة ، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غنى عنهم .

ثم قال تعالى بعده (ولا يرضى لعباده الكفر) يعنى أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائى بهذه الآية من وجهين : (الأول) أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذى خلقه ، وذلك ضد الآية (الثانى) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضا برضاء الله تعالى ، وأجاب

الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الأول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين . قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال (عيناً يشرب بها عباد الله) وقال (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فعلى هذا التقدير قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا (الثانى) أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) أى يمدحهم ويثنى عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه و (الرابع) هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) والله أعلم .

ثم قال تعالى (وإن تشكروا يرضه لكم) والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلف القراء فى هاء (يرضه) على ثلاثه أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير متبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة فى بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع فى بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائى مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدى رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الإقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الجبائى هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء ، بخلاف ما يقول القوم . واحتج أيضاً من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى (ثم إلى ربكم مرجعكم) واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للانسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف مايضره وما ينفعه فى هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، فى هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ «٩» أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ «١٠»

قدرة الصانع وعلمه وحكمته، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم فى جهة وقد أجبنا عنه مراراً.

﴿ المسألة الثانية ﴾ زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة.

ثم قال (فينبئكم بما كنتم تعملون) وهذا تهديد للعاصى وبشارة للمطيع، وقوله تعالى (إنه عليم بذات الصدور) كالعلة لما سبق، يعنى أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم، لأنه عالم بجميع المعلومات، فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف. وقال ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

قوله تعالى ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل، وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار، أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذى يجب أن يعبد، بين فى هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا فى طلب دفعه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك فى بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا

به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة .

أما قوله تعالى (وإذا مس الإنسان) فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذى تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود تقدم .

وأما قوله (ضر) فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان فى جسمه أو فى ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد (ودعا ربه) أى استجار بربه وناداه ولم يؤمل فى كشف الضر سواه ، فلذلك قال (منيباً إليه) أى راجعاً إليه وحده فى إزالة ذلك الضر لأن الإنابة هى الرجوع (ثم إذا خوله نعمة منه) أى أعطاه ، قال صاحب الكشاف :وفى حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ماروى عن رسول الله ﷺ «أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة» (والثانى) جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفى المعنى قالت العرب :

إن الغنى طويل الذيل مياس

ثم قال تعالى (نسى ما كان يدعو إليه من قبل) أى نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقيل نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسى أى ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقى لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسى أن لا يفزع ، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

ثم قال تعالى (وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه . ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه فى حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين مايوجب المناقضة وقلة العقل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ معنى قوله (ليضل عن سبيله) أنه لا يقتصر فى ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه فى ذلك ، فيزداد إثما على إثمه ، واللام فى قوله (ليضل) لام العاقبة كقوله (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال (قل تمتع بكفرك قليلا) وليس المراد منه الأمر بل

الزجر ، وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لارجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة (أمن) مخففة الميم والباقون بالتشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان (الأول) أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من ، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك ، وقيل كالذى جعل لله أنداداً فاكتفى بما سبق ذكره (والثانى) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يامن هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد أفضل أم عمرو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل الصلاة صلاة القنوت» وهو القيام فيها ، ومنه القنوت فى الصبح لأنه يدعو قائماً . عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا (أمن هو قانت) وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله (كل له قانتون) أى مطيعون ، وعن قتادة (آناء الليل) ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفى هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكده وجوه (الأول) أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء (الثانى) أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلى ، وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى (إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا) وقوله (ساجداً) حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور فى هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العمل إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله (ساجداً وقائماً) إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له فى الأول مقام القهر وهو قوله (يحذر الآخرة) ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله (ويرجو رحمة ربه) ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ ءامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ «١١» قُلْ إِنِّي

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أنه قال فى مقام الخوف (يحذر الآخرة) فما أضاف الحذر إلى نفسه ، وفى مقام الرجاء أضافه إلى نفسه ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل المراد من قوله (أمن هو قانت آناء الليل) عثمان لأنه كان يحيي الليل فى ركعة واحدة ويقرأ القرآن فى ركعة واحدة ، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفه فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لاشبهة فى أن فى الكلام حذفاً ، والتقدير أمن هو قانت كغيره ، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجداً وقياماً ، والذين لايعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون ، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لايعلمون ، لأنهم وإن آتاهم الله آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم .

وأما قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم ، وقد بالغنا فى تقرير هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون ، وبالذين لايعلمون الذين لايأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء ، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم ، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لايقنتون ، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عندالله جهلة .

ثم قال تعالى (إنما يتذكر أولوا الألباب) يعنى هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لايعرفه أيضاً إلا أولوا الألباب ، قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء ، فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا مافى المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما فى العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

قوله تعالى ﴿ قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً

أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ «١٢» وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ «١٣» قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٤» قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي «١٥» فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ «١٦» لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ «١٧»

له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ياعبادى فاتقون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ، قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) فقوله (فى هذه الدنيا) يحتمل أن يكون صلة لقوله (أحسنوا) أو لحسنة ، فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا فى هذه الدنيا كلهم حسنة فى الآخرة ، وهى دخول الجنة ، والتنكير فى قوله (حسنة) للتعظيم يعنى حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها . وأما على (التقدير الثانى) فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله ﷺ «ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية» ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل عليه وجوه (الأول) أن التنكير فى قوله (حسنة) يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق

بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة ، وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثانى) أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل فى الآخرة قال تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ، وأيضاً لحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن ، كما قال ﷺ « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون) . (الثالث) أن قوله (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل . أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكأن حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى (وأرض الله واسعة) وفيه قولان (الأول) المراد أنه لا عذر البتة للمقصرين فى الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه ، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى (قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) و(القول الثانى) قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهى خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله فى الآخرة الحسنة ، وهى الخلود فى الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أى جنته واسعة ، لقوله تعالى (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وقوله تعالى (وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) والقول الأول عندى أولى ، لأن قوله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) لا يليق إلا بالأول ، وفى هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أما تحقيق الكلام فى ماهية الصبر ، فقد ذكرناه فى سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله تعالى .

﴿المسألة الثانية﴾ تسمية المنافع التى وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب . لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

﴿المسألة الثالثة﴾ أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه (الأول) قال الجبائى : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضى هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر

بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل (الثانى) أن الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) أنها تكون دائمة الأجر لهم ، وقوله (بغير حساب) معناه بغير نهاية ، لأن كل شىء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب (وثانيها) أنها تكون منافع كاملة فى أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب ، قال ﷺ « إن فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس فى حسابه ، فقوله (بغير حساب) محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) فى التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، روى صاحب الكشاف عن النبى ﷺ أنه قال « ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً » قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل .

﴿ النوع الثانى ﴾ من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبى ﷺ ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله ، قل يا محمد إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان (أحدهما) الأمر بالاحتراز عما لا ينبغى (والثانى) الأمر بتحصيل ما ينبغى ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما لا ينبغى فقال (اتقوا ربكم) لأن التقوى هى الإحتراز عما لا ينبغى ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغى فقال (إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وهذا يشتمل على قيدين : (أحدهما) الأمر بعبادة الله (الثانى) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلى وشوائب الشرك الخفى ، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ، وقوله تعالى (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) لا شبهة فى أن المراد إنى أول من تمسك بالعبادات التى أرسلت بها ، وفى هذه الآية فائدتان :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ كأنه يقول إنى لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أنه قال (إنى أمرت أن أعبد الله) والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله (مخلصاً له الدين) ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم

فسر الإسلام فى خبر جبريل عليه السلام بالأعمال الظاهرة ، وهو المراد بقوله فى هذه الآية (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) وليس لقائل أن يقول ما الفائدة فى تكرير لفظ (أمرت) لأنا نقول ذكر لفظ (أمرت) أولا فى عمل القلب وثانياً فى عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريراً .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ فى قوله (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة ، لأن أول المسلمين فى شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجرى هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى ، لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً عن المعاصى فغيره بذلك أولى .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب ، وهذا يطابق قولنا إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة ، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب .

﴿ الفائدة الثالثة ﴾ دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال فى أول الآية (إنى أمرت أن أعبد الله) ثم قال بعده (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذى تقدم ذكره ، وذلك يقتضى أن يكون تارك الأمر عاصياً ، والعاصى يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الأشياء التى أمر الله رسوله أن يذكرها قوله (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) فان قيل ما معنى التكرير فى قوله (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) ؟ قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثانى إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله ، وذلك لأن قوله (أمرت أن أعبد الله) لا يفيد الحصر وقوله تعالى (قل الله أعبد) يفيد الحصر يعنى الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه ، والدليل عليه أنه لما قال بعد (قل الله أعبد) قال بعده (فاعبدوا ما شئتم من دونه) ولا شبهة فى أن قوله (فاعبدوا ما شئتم من دونه) ليس أمراً بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول لما بلغ البيان فى وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم) لوقوعها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ، وخسروا أهليهم أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم . وإن كانوا من أهل الجنة . فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده البتة ، وقال ابن عباس : إن لكل رجل

منزلا وأهلا وخدماً فى الجنة ، فان أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين ، والخاسر المغبون ، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال (ألا ذلك هو الخسران المبين) كان التكرير لأجل التأكيد (الثانى) أنه تعالى ذكر فى أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه فى هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ فى العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها (الثالث) أن كلمة (هو) فى قوله (هو الخسران المبين) تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير فى مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه (مبيناً) يدل على التهويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه (خسراناً مبيناً) فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسراناً مبيناً ، وأقول نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسراناً ثم كونه مبيناً (أما الأول) فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة فى الآخرة .

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هى رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية ، فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر فى رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة فى تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر فى رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروماً عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسراناً ، فهذا بيان كونه خسراناً (وأما الثانى) وهو بيان كون ذلك الخسران مبيناً فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار ، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضاً مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة (أولها) أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلباً فى تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة (وثانيها) أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسباباً للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد . فقال (لهم من

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ «١٨» الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره فى الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان ، فان قيل الظلل ماعلى الإنسان فكيف سمى ماتحته بالظلل ؟ والجواب من وجوه (الأول) أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ، (الثانى) أن الذى يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والإحراق والإيذاء ، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة . قال الحسن هم بين طبقتين من النار لايدرون مافوقهم أكثر مما تحتهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) .

ثم قال تعالى (ذلك يخوف الله به عباده) أى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله (ذلك) مبتدأ وقوله (يخوف الله به عباده) خبر ، وفى قوله (يخوف الله به عباده) قولان (الأول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده أى المؤمنين ، لأنا بينا أن لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ماتقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) أن هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال ، لأنه يقال إنه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء ، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم ، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال ، فاذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشىء فى الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب فى الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذى هو التكليف ، والوجه الأول عندى أقرب ، والدليل عليه أنه قال بعده (يا عباد فاتقون) وقوله (يا عباد) الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فياأيها المؤمنون بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى .

قوله تعالى ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ، أفمن

وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ «١٨» أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ «١٩» لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ «٢٠»

حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبداً فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفى هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان (وثانيها) أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه الشيطان فان قيل إنهم ماعبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعى إلى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لافعل لها ، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لإسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ، وقيل كل مايعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال فى التواريخ إن الأصل فى عبادة الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الإله أنه نور عظيم ، وفى الملائكة أنها أنوار مختلفة فى الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام فى قوله (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى أعرضوا عن عبودية كل ماسوى الله . قوله تعالى (وأنابوا إلى الله) أى رجعوا بالكلية إلى الله . ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : ياموسى أجب إلهك بكل قلبك . وأقول مادام يبقى فى القلب التفات إلى غير الله فهو ما أجاب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ماسوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع

أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات فى هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فانه لايوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره ، وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات، ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، وإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشىء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضى إلى حصول هذا الشىء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى فى قلبه التفات إلى شىء إلا إلى الموجود الأول ، وقد اتفق أنى كنت أنصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لايجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره ، فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ماعرفت معناها . وذلك لأنه لاشبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب معلومة ومنها مايحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

﴿ أما القسم الأول ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التى عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله فى حكمته مخالفاً فى تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناء على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام فى تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى (وأنابوا إلى الله) إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء (أحدها) قوله تعالى (لهم البشرى) واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات (أحدها) أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند ما يصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند ما يدخل المؤمنون الجنة ، ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله (أن

لا تخافوا) يعنى لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال (وأبشروا بالجنة) وقال أيضاً فى آية أخرى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقال أيضاً (وفيها ماتشتهيه الأنفس و تلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) (والثالث) أن المبشر من هو ؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) وإما بعد دخول الجنة فقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) .

واعلم أن قوله (لهم البشرى) فيه أنواع من التأكيدات (أحدها) أنه يفيد الحصر فقوله (لهم البشرى) أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى (وثانيها) أن الألف واللام فى لفظ البشرى مفيد للماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) أن لافرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الاول بحصول الخيرات . إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه فى الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو فى القبر فذاك لايكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) (ورابعها) أن المخبر بقوله (لهم البشرى) هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الإجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكليـــة على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيما . ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله (لهم البشرى) يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم .

(واعلم أنه تعالى) لما قال (لهم البشرى) وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا ، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً

على هذا الحرف ، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر السعادة عليهم يقتضى الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن فى كل باب كان فى زمرة السعداء ، واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

﴿ الفائدة الاولى ﴾ وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة ، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع ، لأن السماع صار قدراً مشتركا بين الكل ، لأن قوله (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان (أحدهما) إقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التحصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض فى كل واحد من المسائل على التفصيل (والثانى) أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا ، فكل ماحكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول . مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حى عالم قادر حليم حكيم رحيم ، أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى ، والإقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً ، وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه اليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن فى أبواب الاعتقادات .

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات ، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة فى المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شىء من هذه الأحوال ، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول فى جميع أبواب العبادات . وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندب إلى العفو فقال (وأن تعفوا أقرب للتقوى) وعن ابن عباس

أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) وفى ذلك دقيقة عجيبة ، وهى أن حصول الهداية فى العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل . أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله (أولئك الذين هداهم الله) وأما القابل فإليه الإشارة بقوله (وأولئك هم أولوا الألباب) فإن الإنسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية فى قلبه . وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشىء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سبباً لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سبباً لتلك الإرادة ، فثبت أن حصول الهداية لابد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس ، فلهذا السبب قال (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب) ثم قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) ولا يصح فى الكلام العربى أن يدخل حرف الاستفهام على الإسم وعلى الخبر معاً ، فلا يقال أزيد أتقتله ، بل ههنا شىء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معاً وهو قوله (أفمن حق) ، (أفأنت تنقذ) ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الأول) قال الكسائى: الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تحميه ، أفأنت تنقذ من فى النار (الثانى) قال صاحب الكشاف : أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، وهى جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هى الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من فى النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا

المعنى كاملا تاماً . لاجرم ذكر هذا الحرف فى الشرط وأعاده فى الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة فى ذلك الإنكار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية فى مسألة الهدى والضلال ، وذلك لأنه تعالى قال (أفمن حق عليه كلمة العذاب) فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثانى) فى الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الإستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه ، ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القاضى بهذه الآية على أن النبى ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والإستبعاد ، فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ومع قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) والله أعلم .

﴿ النوع الثانى ﴾ من الأشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية) وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) فإن قيل مامعنى قوله (مبنية) ؟ قلنا لأن المنزل إذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله (مبنية) معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل ، والحاصل أن المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة ، وأما التحتانى فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة ، وقال حكماء الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

ثم قال (تجرى من تحتها الأنهار) وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال (وعد الله لايخلف الله الميعاد) فقوله (وعد الله) مصدر مؤكد لأن قوله (لهم غرف) فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة ، وهى أنه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لايخلف وعده ، ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف مايقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال فى جانب الوعيد (مايبدل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ «٢١»

القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قلنا قوله مايبدل القول لدى ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعنى الوعد والوعيد ، فثبت أن الترجيح الذى ذكرناه حق والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولى الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الأرض، أى فيدخله وينظمه ينابيع فى الأرض عيوناً ، ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجسام ، ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جازله أن ينفصل عن منابته ، وإن لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً (إن فى ذلك لذكرى) يعنى أن من شاهد هذه الأحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلابد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت . فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال فى نفسه وفى حياته ، فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها . والحاصل أنه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر مايقوى الرغبة فى الآخرة ، وذكر فى هذه الآية مايقوى النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية ، بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدى : والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء ، وقوله (ينابيع) نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج أى يخضر ، والحطام مايجف ويتفتت ويكسر من النبت .

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ «٢٢» اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٢٣» أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ «٢٤» كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ «٢٥» فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٢٦» وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ «٢٧» قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ «٢٨»

قوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ، الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) واعلم أنا بالغنا فى سورة الأنعام فى تفسير قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام)

فى تفسير شرح الصدر وفى تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا ، فنقول إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات وفى هذا التفاوت أمر حاصل فى جواهر النفوس البشرية ، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك ، إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذى يشتعل بأدنى نار ، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل . إذا عرفت هذه القاعدة فنقول . أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، وما لم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معانى هذه الآيات ، أما استدلال أصحابنا فى مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من محذوف الخبر كما فى قوله (أمن هو قانت) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الإطمئنان كما قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكيف جعله فى هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فان سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقاً آخر) قال كل واحد منهم (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ﷺ

« اكتب فهكذا أنزلت » فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر . إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية ، إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى ، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) وهذا كلام كامل محقق . ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه فى حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ فى الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات ، فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : (الأول) أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً فى هذه الآيات وفى آيات أخرى منها قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) ومنها قوله تعالى (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) والحديث لابد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى فى الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحادث ، فثبت أن الحديث هو الذى يكون قريب العهد بالحدوث . وسمى الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة ، فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما (الوجه الثانى) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون فى محل تصرف الغير . وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما (الوجه الثالث) فى بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضى أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضى أن يكون زيد مشاركا لأولئك الأقوام فى صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث ، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثاً .

أما (الوجه الرابع) فى الاستدلال أن قالوا : إنه تعالى وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الكتبة وهى الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف . وذلك يدل على كونه محدثاً (والجواب) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

﴿ القسم الأول ﴾ أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : (الأول) أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة (الثانى) أن يكون بحسب النظم فى الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب . ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذى طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

﴿ القسم الثانى ﴾ أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : (الأول) أنه كتاب منزه عن التناقض ، كما قال تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثانى) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث) أن العلوم الموجودة فيه كثيرة جداً .

وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هى ما ذكره الله فى كتابه فى قوله (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء . أما معرفة الذات فهى أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه . وأما معرفة الصفات فهى نوعان :

﴿ أحدهما ﴾ ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهراً ومركباً من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصاً بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة ، مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

أما كلمة ليس ، فقوله (ليس كمثله شىء) وأما كلمة لم ، فقوله (لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) وأما كلمة ما ، فقوله (وما كان ربك نسياً) ، (ما كان لله أن يتخذ من ولد) وأما كلمة لا ، فقوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) ، (وهو يطعم ولا يطعم) ، (وهو يجير ولا يجار عليه) ، وقوله فى سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن (لا إله إلا الله) .

﴿ وأما النوع الثانى ﴾ وهى الصفات التى يجب كونه موصوفاً بها من القرآن (فأولها) العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) (وثانيها) العلم بكونه قادراً ، قال تعالى فى أول سورة القيامة (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) وقال فى آخر هذه السورة (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) (ورابعها) العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وقوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) (وخامسها) العلم

بكونه حياً ، قال تعالى (هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) (وسادسها) العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (وسابعها) كونه سميعاً بصيراً ، قال تعالى (وهو السميع البصير) وقال تعالى (إننى معكما أسمع وأرى) (وثامنها) كونه متكلما ، قال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (وتاسعها) كونه أمراً ، قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) (وعاشرها) كونه رحماناً رحيما مالكا ، قال تعالى (الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) فهذا مايتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها .

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام . أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل ، كما قال تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وأما الأجسام ، فهى إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل . أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات . و (ثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) و(ثالثها) البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى (الله نور السموات والأرض) وقال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) و(رابعها) البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً) و (خامسها) اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) و (سادسها) منافع الكواكب ، قال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) و (سابعها) صفات الجنة ، قال تعالى (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) و(ثامنها) صفات النار ، قال تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) و (تاسعها) صفة العرش ، قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) و(عاشرها) صفة الكرسى ، قال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) و(حادى عشرها) صفة اللوح والقلم . أما اللوح ، فقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ) وأما القلم ، فقوله تعالى (ن والقلم ومايسطرون) .

وأما شرح أحوال العالم الأسفل (فأولها) الأرض ، وقد وصفها بصفات كثيرة (إحداها) كونه مهداً ، قال تعالى (الذى جعل لكم الأرض مهداً) و(ثانيها) كونه مهاداً ، قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً) و(ثالثها) كونه كفاتاً ، قال تعالى (كفاتاً . أحياء وأمواتا) و (رابعها) الذلول ، قال تعالى (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) و (خامسها) كونه بساطاً . قال تعالى (والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجاً) والكلام فيه طويل و(ثانيها) البحر ، قال تعالى (وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً) و (ثالثها) الهواء والرياح ، قال تعالى

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته) وقال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) و(رابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق ، قال تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) وقال تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب و(خامسها) أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها ، و(سادسها) أحوال الحيوانات ؛ قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) وقال (والأنعام خلقها لكم) و (سابعها) عجائب تكوين الإنسان فى أول الخلقة ، قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) و (ثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه و (تاسعها) تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة ، و(عاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم فى عالم السموات ، وإلى عشرة أخرى فى عالم العناصر ، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة.

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه ، فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل فى أعمال القلوب أو فى أعمال الجوارح .

﴿أما القسم الأول ﴾ فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل مالا بد منه فى هذا الباب ، قال الله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ، وقال (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

(وأما الثانى) فهو التكاليف الحاصلة فى أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه .

﴿ وأما القسم الخامس ﴾ وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) فهذا كله يتعلق بمعرفة الله .

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته) والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل ، أما بالإجمال فقوله (وملائكته) وأما بالتفصيل فمنها مايدل على كونهم رسل الله قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) ومنها أنها مدبرات لهذا العالم ، قال تعالى (فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا) وقال تعالى (والصافات صفاً) ومنها حملة العرش قال (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ومنها الحافون حول العرش قال (وترى الملائكة حافين من حول العرش) ومنها خزنة النار قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) ومنها الكرام الكاتبون قال (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين) ومنها المعقبات قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين .

﴿ وأما القسم الثالث ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات) ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور .

﴿ وأما القسم الرابع ﴾ من الأصول المعتبرة فى الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك)

﴿ القسم الخامس ﴾ مايتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين (الأول) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) ، (الثانى) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله (غفرانك ربنا) ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات فى تقصير العبودية أكثر وكان قوله (غفرانك ربنا) أكثر .

﴿ القسم السادس ﴾ معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله (وإليك المصير) وهذا هو الاشارة إلى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين ، والقرآن بحر لانهاية له فى تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى فى مشارق الأرض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها . ومن تأمل فى هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة ، لاجرم مدح الله عزوجل القرآن فقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث) والله أعلم

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات القرآن قوله تعالى (كتاباً متشابهاً) أما الكتاب فقدفسرناه فى قوله تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه) وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه . وقوله (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض . وأما كونه كله متشابهاً كما فى هذه الآية ، فقال ابن عباس معناه أنه يشبه بعضه بعضاً ، وأقول هذا التشابه يحصل فى أمور (أحدها) أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلا ، فانه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) أن الفصيح إذا كتب كتاباً فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة (وثالثها) أن كل مافيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً (ورابعها) أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى

الدين وتقرير عظمة الله ، ولذلك فانك لاترى قصة من القصص إلاويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه ، فهذا هو المراد من كونه متشابهاً ، والله الهادى .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات القرآن كونه (مثانى) وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى) وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل : الأمر والنهى ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض ، والجنة والنار ، والظلمة والضوء ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسى ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ من صفات القرآن قوله (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الاولى ﴾ معنى (تقشعر جلودهم) تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف ، قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، وأقول إن المحققين من العارفين قالوا : السائرون فى مبدإ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ، ويجب علينا أن نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير ، فنقول الإنسان إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة ، فهنا يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود ، أما إذا تأمل فى الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله . وأيضاً إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم فى ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضاً بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل فى الذهن ، فاذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشيء ، لأن كل ما استحضرته فى فهومتناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية ، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد ، وأما إذا ترك هذا الإعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن ، فإن كان واجباً فهو دائماً منزه عن الأول والآخر وإن كان ممكناً فهو محتاج إلى الواجب فيكون أزلياً أبدياً ، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فثبت أن المقامين المذكورين فى الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر فى حصول تلك الحالتين المذكورتين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى الواحدى فى البسيط عن قتادة أنه قال : القرآن دل على أن أولياء

الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان ، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسألة فى كتاب إحياء علوم الدين ، وهى أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شىء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة ، وأنا أقول : إنى خلقت محروماً عن هذا المعنى ، فإنى كلما تأملت فى أسرار القرآن اقشعر جلدى وقف على شعرى وحصلت فى قلبى دهشة وروعة ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة فى نفسى منها أثراً ، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه (الأول) أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته فى حق الله تعالى كفر ، وأما الإنتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون فى العلم ، وأما المعانى التى يشتمل عليها القرآن فهى أحوال لائقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله فى قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) إلى آخر الآية (والثانى) وهو أنى سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام فى الروح ، والقائل فى القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون) فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذى وجدته من النفس والعقل ماذكرته والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى بيان ما بقى من المشكلات فى هذه الآية ونذكرها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ كيف تركيب لفظ القشعريرة (الجواب) قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالا على معنى زائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل فى شدة الخوف .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف قال (تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وما الوجه فى تعديه

بحرف إلى ؟ (والجواب) التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لايحس بالإدراك .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال إلى ذكر الله ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ (والجواب) أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشىء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وفى قوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وأيضاً قال لأمة موسى (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقال أيضاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذكرونى أذكركم) .

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ (والجواب) لأن المكاشفة فى مقام الرجاء أكمل منها فى مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح والله أعلم.

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد) فقوله (ذلك) إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره أولا لقبول هذه الهداية (ومن يضلل الله) أى من جعل قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية (فما له من هاد) واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم فى قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

أما قوله تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة ، أما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) وأما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الحواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لايظهر إلا فى الوجه قال تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشىء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان فى نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له . وإذا عرفت هذا فنقول : إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أى لاعيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه ، فكذا ههنا لايقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء ، فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ، ويقال أيضاً إن الذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه ، إذا عرفت هذا فنقول : جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب لحذف الخبر كما حذف فى نظائره ، وسوء العذاب شدته .

ثم قال تعالى (وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون) وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء فى قوله (فأتاهم العذاب) تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب ، فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول ، وقوله (من حيث لايشعرون) أى من الجهة التى لايحسبون ولايخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الأمن منها ، ولما بين أنه أتاهم العذاب فى الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزى وهو الذل والصغار والهوان ، والفائدة فى ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل .

ثم قال (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) يعنى أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع . والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب ، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) والمقصود ظاهر ، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة ، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله (ولقد ضربنا للناس) مشعر بالتعليل ، وقوله فى آخر الآية (لعلهم يتذكرون) مشعر بالتعليل أيضاً ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم ، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة فى القرآن ، لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال (قرآناً عربياً غير ذى عوج لعلهم يتقون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الأول) أن قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر ، والشىء الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً ، فان القديم هو الذى يكون موجوداً فى الأزل ، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا ،

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٣٠» إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ «٣١» ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ «٣٢» فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ «٣٣»

(والثانى) أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعانى بوضع العرب وباصطلاحهم ، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثاً (الثالث) أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا (والجواب) أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهى حادثة ومحدثة ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج قوله (عربياً) منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس فى هذا القرآن فى حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآناً ، والمراد كونه متلواً فى المحاريب إلى قيام القيامة ، كما قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، (وثانيها) كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (وثالثها) كونه (غير ذى عوج) والمراد براءته عن التناقض ، كما قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وأما قوله (لعلهم يتقون) فالمعتزلة يتمسكون به فى تعليل أحكام الله تعالى .

(وفيه بحث آخر) وهو أنه تعالى قال فى الآية الأولى (لعلهم يتذكرون) وقال فى هذه الآية (لعلهم يتقون) والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه ، حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون ، إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ فى شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل مايدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال (ضرب الله مثلا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر، وهو رجل شكس، أى عسر وتشاكس إذا تعاسر، قال الليث: التشاكس التنازع والاختلاف، ويقال الليل والنهار متشاكسان، أى أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر، وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالما بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلماً بفتح السين واللام بغير الألف، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم، وأما سائر القراءات فهى مصادر سلم والمعنى ذا سلامة، وقوله (لرجل) أى ذا خلوص له من الشركة من قولهم: سلمت له الضيعة، وقرىء بالرفع على الابتداء أى وهناك رجل سالم لرجل.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الكلام: اضرب لقومك مثلا وقل لهم مايقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج فى مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه فى حاجاته، فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم، ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته، فأى هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأناً، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقال (ولعلا بعضهم على بعض) فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالا، لا يدرى أى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع. أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه. فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول، وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد، فإن قيل: هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، فهم فى الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم، والمشترى هو السعد الأعظم، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية، والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة، وحينئذ يكون المثل مطابقاً، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله، والقائلون

وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ «٣٤» لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ «٣٥» لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ «٣٦» أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ

بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه ، وأن من سواه مبطل ، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال ، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود .

أما قوله تعالى (هل يستويان مثلا) فالتقدير هل يستويان صفة ، فقوله (مثلا) نصب على التمييز ، والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالتاهما ، وإنما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين ، ثم قال (الحمد لله) والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق ، ثبت أن الحمد له لا لغيره ، ثم قال بعده (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة ، قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ، ولما تمم الله هذه البيانات قال (إنك ميت وإنهم ميتون) والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون ، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى ، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل ، والصديق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، وقوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) أى إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم فى أعداد الموتى ، لأن كل ما هو آت آت ، ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم ، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق . أما أنهم يكذبون ، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء . وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين ، فلأنهم يكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً فى ادعاء النبوة ، ثم أردفه بالوعيد فقال (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من أهل القبلة ، وذلك لأن المخالف فى المسائل القطعية كلها يكون كاذباً فى قوله ، ويكون مكذباً للمذهب الذى هو الحق ، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد .

قوله تعالى ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا

بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٣٧» وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ «٣٨»

يعملون ، أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (والذى جاء بالصدق وصدق به) تقديره : والذى جاء بالصدق والذى صدق به ، وفيه قولان (الأول) أن المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد ، والذى صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروى عن على بن أبى طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذى جاء بالصدق الأنبياء ، والذى صدق به الأتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال (أولئك هم المتقون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق ، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذى يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبى ﷺ أنه قال « دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة » .

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين . أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه » .

(أما على التقدير الأول) فدخول أبى بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما على ، وحمل هذا اللفظ على أبى بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة . أما أبو بكر فإنه كان رجلا كبيراً فى السن كبيراً فى المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبى بكر أولى .

(وأما على التقدير الثانى) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ **قال صاحب الكشاف قرىء وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ، ولم**

يكذبهم يعنى أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أى بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرىء وصدق .

واعلم أنه تعالى أثبت للذى جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

﴿ فالحكم الأول ﴾ قوله (أولئك هم المتقون) وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى ، فالآتى بالتوحيد الذى هو أفضل الأشياء يكون تاركا للشرك الذى هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

﴿ الحكم الثانى ﴾ للمصدقين قوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) ، وهذا الوعد يدخل فيه كل مارغب المكلف فيه ، فان قيل لاشك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لاشك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشىء من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضى أن أحوالهم فى الآخرة بخلاف أحوالهم فى الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لاشك أنهم داخلون تحت قوله تعالى (وصدق به) لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى (لهم ما يشاءون عند ربهم) فان قالوا لانسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هـذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هـذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم المقتضى للطلب ، بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعاً فى نفسه ، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

واعلم أن قوله (عند ربهم) لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما فى قوله تعالى (عند مليك مقتدر) واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله (وذلك جزاء المحسنين) على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم فى العبادة .

﴿ الحكم الثالث ﴾ قوله تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) فقوله (لهم مايشاءون عند ربهم) يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه

وقوله (ليكفر الله عنهم) يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فان الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى ، واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصى مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فانه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ولا يجوز حمل هذا الأسوإ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيصاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر .

﴿ الحكم الرابع ﴾ أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى (أليس الله بكاف عبده) وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال (أليس الله بكاف عبده) ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال (ويخوفونك بالذين من دونه) يعنى لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلا ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبى عبيدة لأنه قال له (ويخوفونك) روى أن قريشاً قالت للنبى ﷺ إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة (عباده) بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يامحمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى (وهمت كل أمة برسولهم) وكفاهم الله شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل) يعنى هذا الفضل لاينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله (أليس الله بعزيز ذى ذى انتقام) تهديد للكفار .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون فى مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله (ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فماله من مضل) والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ «٣٨» قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «٣٩» مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٤٠»

على صحة مذهبهم فى هاتين المسألتين بقوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته . قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ، قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

﴿ الأصل الأول ﴾ هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل فى عجائب أحوال السموات والأرض وفى عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفى عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لابد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(والأصل الثانى) أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله (قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله (قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون) فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ «٤٢» اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٤٣» أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ «٤٤» قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٤٥»

إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) وقرىء (كاشفات ضره ، وممسكات رحمته) بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف ، فإن قيل كيف قوله (كاشفات) و (ممسكات) على التأنيث بعد قوله (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم ، فإني عامل أيضاً في تقرير ديني (فسوف تعلمون) أن العذاب والخزى يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ، الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لوكانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا) وقال (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل

ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال (إنا أنزلنا عليك الكتاب) الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذى يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه (وما أنت عليهم بوكيل) والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول فى إصرارهم على الكفر ، ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ، ومن عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم فى الآية ، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى فى إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهى النائمة إلى أجل مسمى أى إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعنى أنه تعالى يتوفى الأنفس التى يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله (ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) يعنى أن النفس التى يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهى مطابقة للحقيقة ، ولكن لابد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه فى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت ، وأما فى وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان فى كون كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة فى صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ «٤٦» قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ «٤٧»

وأن لايعبد الأوثان التى هى جمادات لا شعور لها ولا إدراك ، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا ، فقالوا نحن لانعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال (أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون) وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أومن أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها (والأول) باطل لأن هذه الجمادات وهى الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثانى) باطل لأن فى يوم القيامة لايملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) ثم بين أنه لاملك لأحد غير الله بقوله (له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى (قل لله الشفاعه جميعاً) وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة ، فان قيل قوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله (الذى خلق الموت والحياة) وبقوله (ربى الذى يحيى ويميت) وبقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) ثم إن الله تعالى قال فى آية أخرى (قل يتوفاكم ملك الموت) وقال فى آية ثالثة (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا) وجوابه أن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض فى عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفى فى هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفى الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس فى هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالاخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ «٤٨» وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٤٩»

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدالهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين ، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة فى قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكرالله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التى هى الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد ، قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذكل واحد منهما غاية فى بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثرذلك السرورفى بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى فى أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية ، ولما حكى عنهم هذا الأمرالعجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهى قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وإنما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمرمعلوم الفساد ببديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت . عن أبى سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله ﷺ صلاته بالليل ؟ قالت « كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما أختلف فيه من الحق بإذنك وانك لتهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء (أولها) أن هؤلاء

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٥٠» قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٥١» فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ «٥٢» أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٥٣»

الكفار لو ملكوا كل مافى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أى ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن فى حسابهم ، وكما أنه ﷺ قال فى صفة الثواب فى الجنة «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» فكذلك فى العقاب حصل مثله وهو قوله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون و (ثالثها) قوله تعالى (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التى اكتسبوها أى ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التى اكتسبوها . ثم قال (وحاق بهم) من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به ، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم .

قوله تعالى ﴿ فاذا مس الانسان ضر دعانا ، ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ، قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ، فأصابهم سيئات ما كسبوا ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين ، أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة ، وذلك لأنهم عند الوقوع فى الضر الذى هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى ، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه ، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة ، وهى إما السعة فى المال أو العافية فى النفس ، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده ، فإن كان مالا قال إنما حصل بكسبى ، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى ، وهذا تناقض عظيم ، لأنه كان فى حال العجز والحاجة أضاف الكل

إلى الله ، وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال (بل هى فتنة) يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند فواتها يجب الصبر ، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتى النعمة ، كما يقال فتنت الذهب بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار . وبقى فى الآية أبحاث نذكرها فى معرض السؤال والجواب .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ههنا ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ (والجواب) أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى وحده ، كان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثانى ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال ، وأنه ليس بين الأول والثانى فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثانى ، فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا . فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما معنى التخويل ؟ (الجواب) التخويل هو التفضل ، يعنى نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما المراد من قوله (إنما أوتيته على علم) ؟ (الجواب) يحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكونى مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمى بكونى مستحقاً له . ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمى بكيفية العلاج ، وإنما وجدت المال لعلمى بكيفية الكسب .

﴿ السؤال الرابع ﴾ النعمة مؤنثة ، والضمير فى قوله (أوتيته) عائد على النعمة ، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، بل قال بعده (بل هى فتنة) فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه ؟ (والجواب) أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر ، فلا جرم جاز الامران .

ثم قال تعالى (قد قالها الذين من قبلهم) فما أغنى عنهم الضمير فى قالها راجع إلى قوله (إنما أوتيته على علم عندى) لأنها كلمة أو جملة من المقول (والذين من قبلهم) هم قارون وقومه حيث قال (إنما أوتيته على علم) عندى وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون فى الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين فى أولئك المتقدمين أنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أى عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال (وماهم بمعجزين) أى لا يعجزوننى فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله (ويقدر) أى هو يقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ، ولابد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، لأنا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق . ونرى الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان ، ويولد أيضاً فى تلك الساعة عالم من النبات ، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وصح بهذا البرهان العقلى القاطع على صحة قوله تعالى (أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

قال الشاعر :

فلا السعد يقضى به المشترى ... ولا النحس يقضى علينا زحل

ولكنه حكم رب السما ... وقاضى القضاة تعالى وجل

تم بعونه تعالى الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للأمام الفخر الرازى رحمه الله تعالى بتصحيح ومراجعة الأستاذ محمد اسماعيل الصاوى الشهير بعبد الله

ويتلوه الجزء السابع والعشرون وأوله تفسير قوله تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

أعان الله على إكماله ، بحق محمد وآله

فهرست

الجزء السادس والعشرون من التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرست ﴾

